

سلسلة العقائد
(١)

حَقِّيقَةُ الْإِيمَانِ

الجزء الثاني

تأليف
أبو حفص
أحمد بن محمد بن عبد العزيز قريشي
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر



١٢٢ شارع الملك فيصل - التعاون - المرسى

ت ١ : ٣٨٣٧٧٧٠

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ٩٤/٥٣٦٤

الترقيم الدولي : I . S . B . N .

977 - 5333 - 01 - 6

دار الهدى

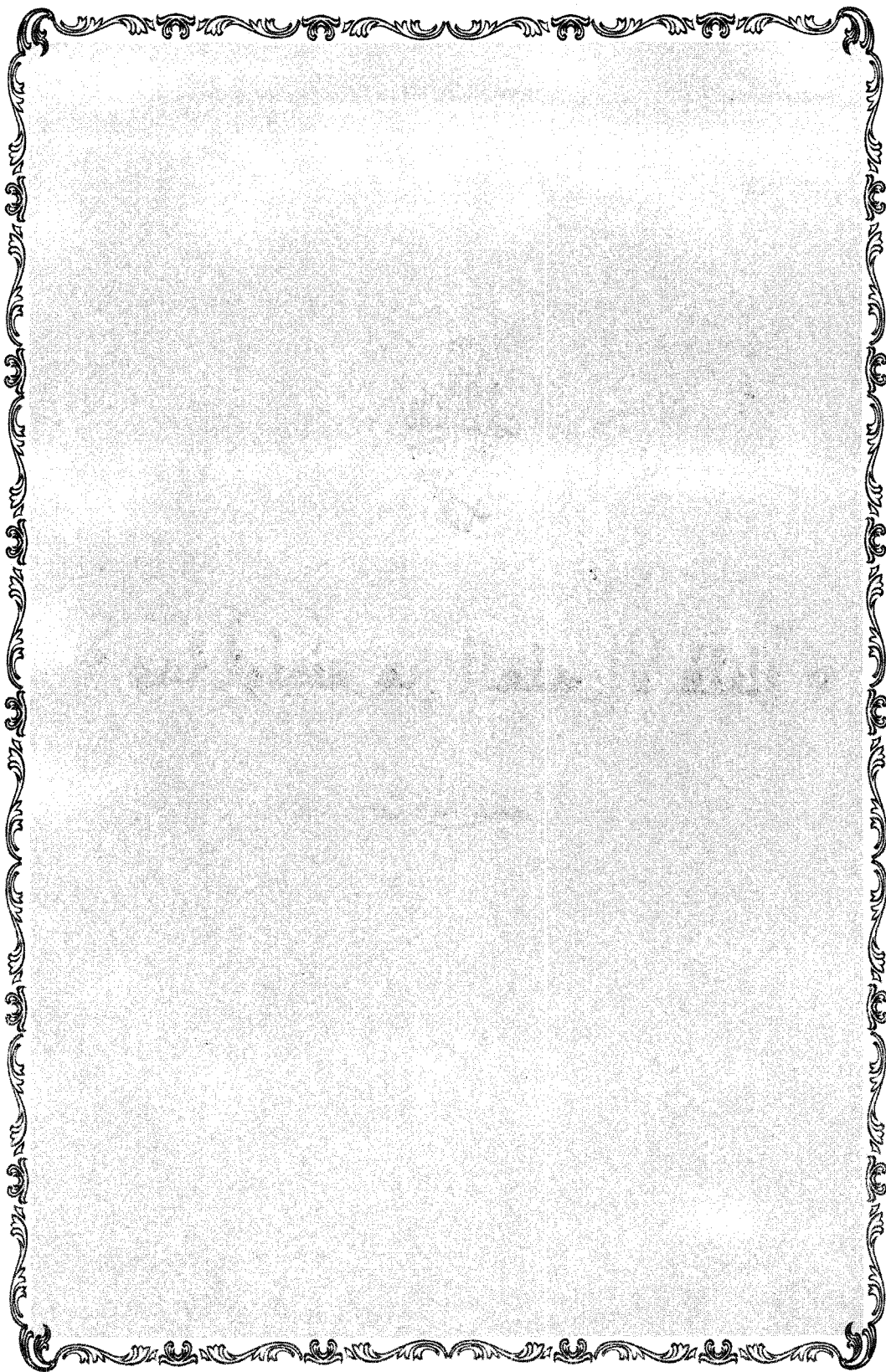
نشر - توزيع

٢٨٢٧٧٠ : شارع الملك فيصل - العلون - الهرم



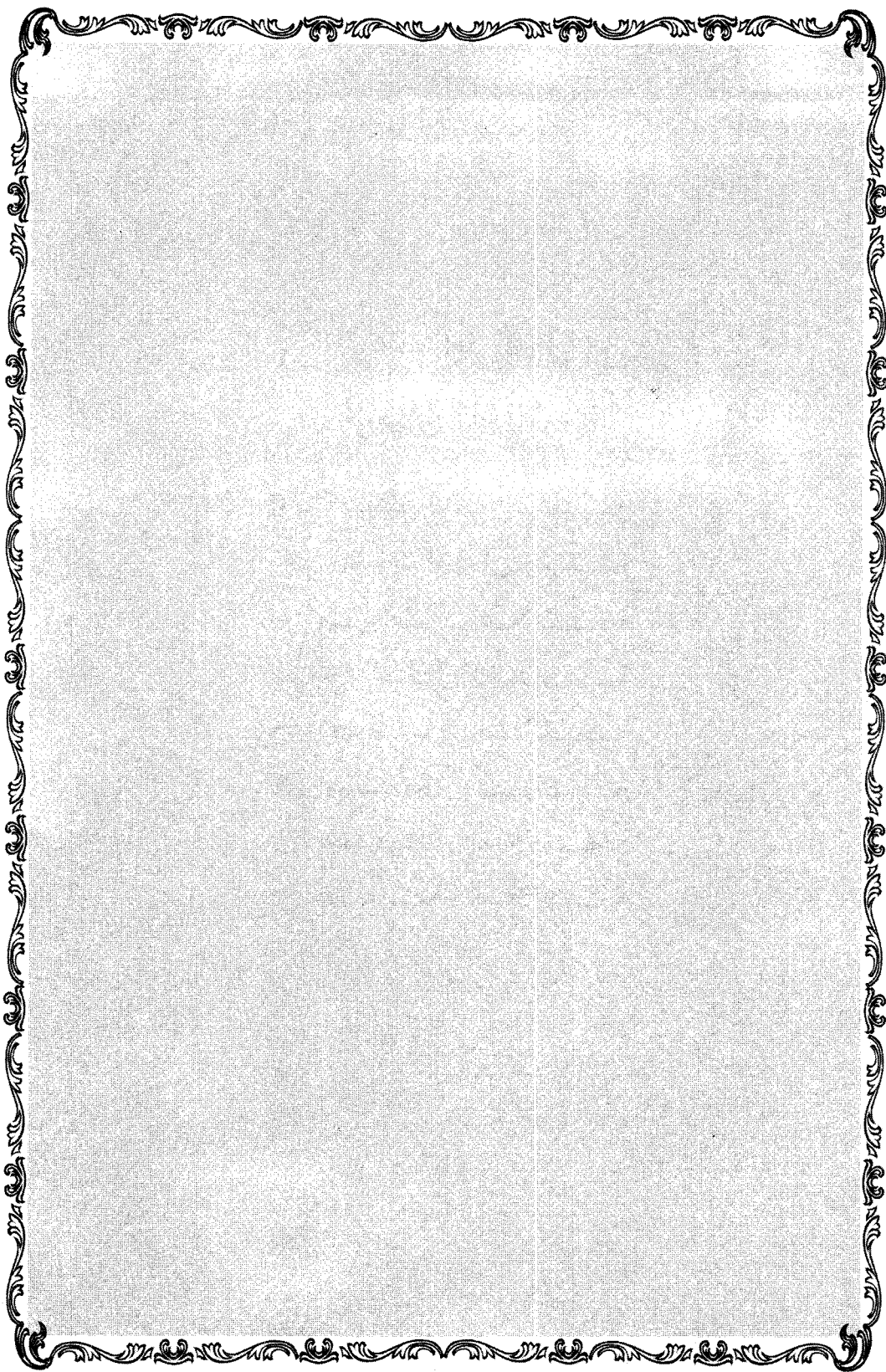
﴿ وَمَا أُوْنِيْنُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ اِلَّا قَلِيْلًا ﴾

صَدَقَ اللهُ الْعَظِيْمُ



الباب الأول الإيمان بالملائكة

- * كيف نؤمن بالملائكة
- * وجوب الإيمان بالملائكة
- * من هم الملائكة
- * خلق الملائكة
- * تفاضل الملائكة
- * أعمال الملائكة
- * صفات الملائكة
- * عصمة الملائكة



الركن الثاني

الإيمان بالملائكة

مقدمة

كيف نؤمن بالملائكة ولهم من الغيب ؟

لقد عاب الكفار والملحدون على أهل الإيمان أن يؤمنوا بالغيب ، ورموهم بالسفه والجهالة لأنهم يعتقدون بما لا يرون أو يسمعون أو يحسون أو يلمسون أو يتذوقون أو يشمون يعني بما لا يقع تحت حواسهم الخمس التي هي السمع والبصر واللمس والشم والذوق ، ونسارع بالرد على هؤلاء ونقول : إن الكون كله ينقسم إلى غيب وشهادة ، فالغيب ما غاب عن الموجودات عن أعين الناظرين ، وإن كانت حقيقة مسلماً بها .

والشهادة : خلاف الغيب ، وهي كل ما كان من الموجودات يقع تحت حواس الإنسان .

وبذلك فإن الإنسان بحكم طبيعة الحياة - مقدر له الإيمان بالغيب ، ومفروض عليه ، لا يستطيع التخلص منه بحال ، اللهم إلا إذا سفه نفسه ، وأراد التخلي عن كرامته الآدمية ، وعن شرفه الإنساني ، ليصبح بعد ذلك حيواناً هابطاً ، لا خير فيه ، أو آلة صماء لا وعى لها ولا إدراك

وذلك لأن الإنسان كائن متحيز ، متى وجد في مكان استحال عليه أن يوجد في مكان آخر مع بقائه في مكانه الذي هو فيه ، ومن هنا ستصبح سائر الامكنة التي تخلو منه بعبده عنها غيباً له وليست بشهادة عنده ولا بد له أن يؤمن بها ،

وما فيها من أشياء - جواهر وأعراض - متى وجدت آثار تدل على ذلك أو أخبار صادقة تنبئ به فهو يؤمن بالأشياء عن طريق أخبار صادقة أو آثار دالة ، ولا ينحصر إيمانه بالأشياء فيما يقع تحت حواسه ، وخاصة وأن حواس الإنسان التي يحصل بها العلم محدودة القوة ، محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه ، فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية ، فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع ، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة ، فإذا صغرت ودقت أو بلغت حداً معيناً من الصغر والدقة عجزت عن رؤيتها ، ولمسه كذلك ، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة ، فإذا خفت انقطع إحساسه بها ، وشمه لا يدرك إلا عن قرب ، وتذوقه أقرب منه .

وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة ، ويعيا عن تصورهما تماماً . ومن هنا كان لابد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها بأية حاسة ، ولم يدرك حتى تصورهما بعقله ، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً ، ولقيمته البشرية قدراً من الإحترام والتقدير .

وكيف ننكر هذه الحقيقة ، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلد ما ، ولم يخرج منه أبداً وهو يؤمن بعشرات البلاد ، ويصدق بوجودها ، وهو لم يرها ولم ير من رآها قط .

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته ، وهو يؤمن بوجود هذا الحيوان الذي لم يره ، ولم ير من رآه أبداً . ونرى ثالثاً يؤمن بالجاذبية إيماناً جازماً ، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يرى ولا يشاهد أبداً ، ونجد رابعاً وُلِدَ ولم يعرف والده لموته قبل ولادته ، وهو يؤمن بأن له والداً ولا ينكر ذلك بحال ، ولذا كان من المضحكات أن يدعى إنسان أنه لا يؤمن بالغيب أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون أن يؤمن بالغيب .

إن الإنسان يكتسب علمه بالموحودات عن طريق عقله وحواسه ، نعم ، ولكن لا سبيل له إلى معرفة الغيب إلا عن طريق آخر ، هو السماع به ، أو مشاهدة آثاره الدالة عليه . فالمرء إذا أخسره أحد أن فلائها مات ، أو سافر ، أو قدم من سفر . و كان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موتٍ أو سفرٍ أو قدومٍ منه . حصل له بواسطة الخبر الذي تلقاه عن غيره من عقلاء الناس

والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجري ، وشعاباً طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد برل فبلل الأرض . وإن لم يشاهد نزوله ، ولم يخبره بنزوله أحد . وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر الذي دل عليه ، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب بالماء مع عدم وجودها فيها قبل ذلك . وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطاراً ، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة ، وإن لم ير ذلك بعينه ولم يخبره به أحد من الناس

وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب ، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات ، أو آثار الأشياء التي آمن بها ، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولاً ، ومطلباً سهلاً ميسوراً ، فالملائكة وإن كانوا غيباً ، فقد دل على وجودهم الدليل الذي ثبتت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان والذي هو خبر الثقات ، وآثار الموجودات

ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً ، فنقول

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدق في خبره ، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بدي الصوت ، ويصدق بوجوده كأنه رآه أو شاهده ؟

أليس الإنسان العاقل يجد كرسيًا قد وضع في غرفة فيعلم أن هناك أحدًا قد وضع هذا الكرسي وأعدّه للجلوس عليه وإن لم ير من فعل ذلك ؟

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتابًا يعلم فوراً أن هناك أحدًا أملى هذا الكتاب ، وأن آلة قد طبعته ولا يشك في هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقينيات له كانت كلها عن طريق الخبر أو الاثر ، وهما الدليل العقلى للإيمان بكل الغيوب .

ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بجملة الفم ، ونقرر أن وجودهم يقينى ، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها .

وأما الذين كفروا بربهم وتنكروا لعقولهم ، وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم ، فأصبحوا لا يؤمنون بشيء حتى وجودهم ، فإنا لا نقيم لهم وزناً، آمنوا أو كفروا، صدقوا أو كذبوا .

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام ، وهو الدليل الذى قدمنا أنه بواسطته آمن العقلاء ، بكل غيب تعذر أن يكون من قسم الشهادة ، والدليل كما سبق أن عرفناه يتكون من عنصرين : الأول الاخبار ، والثانى : الآثار^(١)

أولاً : الأخبار

(١) وهى إخبار رب العالمين ، خالق الملائكة ، وخالق الجن والناس أجمعين ،

﴿الْأَيْعَانُ مَنْ خَلَقَ﴾^(٢)

بلى يعلم ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(٣)

(١) عقيدة اللؤمن لأمى بكر الجزائرى ص ١٨٢ - ١٨٦ بنصرف ، ط مكتبة الكليات الأزهرية

(٢) سورة الملك ، آية ١٤

(٣) سورة النساء ، آية ٨٧

لا أحد وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً . إذ الخالق أعلم بما خلق .
ومن إخباره تعالى ، قوله :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى ، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة ، وأنهم عالم مستقل له كيانه وصفاته .

وقوله تعالى :
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢)

ففى هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى ، وهل يؤمر ويمثل غير موجود ؟

وقوله تعالى :
﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٣)

ففى هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون عن عبادة الله ولا يستكبرون ،
وهل يستنكف ويتكبر غير موجود ؟

(١) سورة البقرة ، آية ٣٠

(٢) سورة البقرة ، آية ٣٤

(٣) سورة النساء ، آية ١٧٢

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ﴾ (١)

وفي هذا الخبر ينكر الله تعالى ، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم ، فهل يعقل أن يعاب أو ينكر على غير موجود ؟ وقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ (٢)

ففى هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عن أحد شيئاً ، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود ؟

وأخيراً فهل هذه الاخبار الإلهية عن الملائكة وهى كثيرة جداً - كما سنذكر - وكلها تتحدث عن صفاتهم ، وأحوالهم وعبادتهم وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة ، دلالة تكسب اليقين ، اللهم بلى .

(ب) إخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام وتحدثهم عنهم ، ووصفهم لهم ، وتلقيهم الوحي بواسطتهم وهى كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد ﷺ فقد صح عنه ﷺ قوله : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة » (٣) . وقوله : « إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » (٤) ، وقوله : « إن لله فى الأرض ملائكة سياحين يبلغوننى عن أمتى السلام » (٥) ،

(١) سورة الزخرف ، آية ١٩

(٢) سورة النجم ، آية ٢٦

(٣) البخارى ومسلم ، واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (٣/٣٩) ، مسلم (٦/١٥٧) والبخارى (٤/١٣٨) .

(٤) رواه مسلم (٢/٨٠) .

(٥) إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح ، وقد أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان .

وقال : « إذا آمن الإمام فأمنوا ، فإن الملائكة تؤمن ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » (١)

كما أخبر ﷺ وتحدث عن ملك الموت وأعوانه ، وعن الروح وعن ملكي القبر ، وعن الحفظة ، والكرام الكاتبين ، وعن رضوان خازن الجنان ، وعن مالك خازن النيران وغيرهم من الملائكة في أحاديث متواترة صحيحة - سنذكر طرفاً منها إن شاء الله - فكيف يسوغ عقلاً ، أو يصح منطقاً وذوقاً أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية ، وهي أصح أخبار في الوجود ، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم .. اللهم لا ؟ (٢)

ثانياً : الآثار :

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً ، نكتفي بطرف منها فنقول : هذا القرآن ، كتاب الله بين أيدينا ، بسوره العديدة ، وآياته الكثيرة ، وعلومه ، ومعارفه ، وإعجازه ، أثر من آثار الملائكة ، إذ تلقاه المنزل عليه ﷺ بواسطة ولم يكن من الله مباشرة ، فما هي الوساطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله ، ومنزله في قوله :

﴿ وَإِنَّا لَنَنْزِلُكَ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ (٣)

وهذا ملك الموت الذي يتخطفنا يوماً فيأخذ أرواحنا ، وينهى بأخذها حياتنا ،

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (١/٨٣) ، مسلم (٢/١٧) ، البخاري (١/١٨٧) .

(٢) عقيدة المؤمن ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات (١٩٢ - ١٩٥) .

وفصلها عن أجسادنا ، فتعدم الحياة ، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له ؟ وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر ؟ اللهم لا .

ولو سألنا خالقنا وقلنا : من يتوفانا ؟ لكان الجواب

﴿ قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

تَرْجَعُونَ ﴾ (١)

ثم إن كلاً من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً غير مرة ، وهما من أعظم الملائكة ، فجبريل قد دخل المسجد وعشرات المصلين حاضرون ، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس ، فجلس إليه وأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذه ، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه ، فسأله عن الإيمان ، وعن الإسلام والإحسان وأشراف الساعة ، وكان ساعته في صورة رجل (٢) .

كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه فكم من مريض تحدث بذلك ، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت .

وبعد ، فإنه لم يبق لنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة ، فلذا نشرع الآن في تقرير كون الإيمان بالملائكة واجب ، بل هو ركن من أركان الإيمان .

(١) سورة السجدة ، الآية ١١

(٢) الحديث بنصه في الصحيحين وكتب السنة .

وجوب الإيمان بالملائكة

يجب الإيمان بالملائكة ، لأن هذا هو الركن الثاني من أركان الإيمان ، كما قال تعالى :

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ
مِّن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ
رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ (١) ﴾

هذا الركن الركين والاصل المكين لا بد فيه من معرفة تامة .
كما قال تعالى :

﴿ أَلَيْسَ الْبِرُّ أَن تُولُواْ وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَالَّذِينَ أَلْبَسُواْ مِن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّنَ ۝ (٢) ﴾

كما قال عز وجل :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ (٣) ﴾

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٥

(٢) سورة البقرة ، آية ١٧٧

(٣) سورة النساء ، آية ١٣٦

ففي هذه الآيات المباركات يرشدنا القرآن الكريم إلى أن الإيمان بالملائكة أصل للإيمان بوحى الله ورسله ، لأن وحي الله تعالى يصل إلى النبی عن طريق ملك من الملائكة ، وهو جبريل أمين الوحي . فإذا جحد شخص وجود الملائكة فقد جحد إنزال الكتب الإلهية ، وجحد رسالة الرسل ، ولذلك قدم القرآن الكريم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالكتب الإلهية وبالرسل . ومن أنكر وجود الملائكة على الصفة التى بينها القرآن ، فهو كافر ، إذ قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اٰمِنُوْا بِاللّٰهِ
وَرُسُوْلِهِۦ وَالْكِتٰبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلٰى رُسُوْلِهِۦ وَالْكِتٰبِ الَّذِى اُنْزِلَ
مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَكِتٰبِهٖ وَرُسُوْلِهٖ وَيَوْمِ الْاٰخِرِ
فَقَدْ ضَلَّ مَلًّا لَا يَبْعِدُ ۝۱﴾

وهكذا أوضح القرآن وجوب الإيمان بالملائكة بهذين الأسلوبين : إثباته الإيمان لمن آمن بهم في آية البقرة . ﴿ اٰمَنَ الرَّسُوْلُ ... ﴾ ونفيه الإيمان ممن كفر بهم في هذه الآية من سورة النساء .

وقال ﷺ في الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن ، حينما سئل عن الإيمان ، قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ... » الحديث (١) . وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركنا من أركان الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا به ، وكان من شك فيه أو حاول التشكيك كاذبا كافرا ، لاحظ له في الإسلام ولا مقام له بين المسلمين ، لتكذيبه لله ورسوله والمؤمنين ، ولإنكاره لقضايا العقول ، ومسلماتها البديهية (٢) .

(١) سورة النساء ، آية ١٣٦

(٢) سبق تخريجه

(٣) عقيدة المؤمن - أبو بكر الجزائري - ص ١٨٩ ، ١٩٠ بتصرف

فمن هم الملائكة ؟

الملائكة لغة : جمع ملاك ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حذفت الألف تخفيفاً ، فصارت ملكاً ، وهو مشتق من كلمة « الألوكة » التي هي الرسالة ، والجمع ملائك وملائكة^(١) .

واصطلاحاً : هم خلق من خلق الله عز وجل ، خلقهم الله عز وجل من نور ، وجبلهم على الخير ، وعصمهم من الشر ، وفطرهم على عبادته وتسبيحه ، مع الخوف منه وتقديسه وهم من العظمة بمكان ، ولا يعلم عددهم إلا الواحد الديان .

(١) لسان العرب ج ٦ ص ٤٢٦٩ ط . دار المعارف

خلق الملائكة

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (١) .

ولم يبين لنا الرسول ﷺ أى نور هذا الذى خلقوا منه ، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض فى هذا الأمر لمزيد من التحديد لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث . قال ابن حجر في الفتح ، وذكر في « ربيع الأبرار » عن سعيد ابن المسيب قال : « الملائكة ليسوا ذكوراً ولا إناثاً ، ولا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتكحون ولا يتوالدون ، ولا ينامون ، ولا يتعبون ، فهم مطهرون من الشهوات الحيوانية ، ومبرءون عن الميول النفسية ، ومتزهون عن الأعراض البشرية » (٢) . وقد سعى الله تعالى الملائكة : عباداً ، وشرفهم بالإضافة إلى اسمه الرحمن ، وبين أن الذين يظنون أنهم إناثاً ، ليسوا على حق ، لأنهم لا علم لهم بذلك ، فقال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (٣)

وعاب سبحانه من وصفهم بالأنوثة ، وسلب عنهم صفة الإيمان ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُؤْنَ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْأُنثَى ۖ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٤)

(١) رواه مسلم (٨ / ٢٢٧)

(٢) فتح البارى لشرح صحيح البخارى ج ١٣ ص ٢٣ بتصرف ط الكليات الأزهرية

(٤) سورة النجم آية ٢٧

(٣) سورة الزخرف آية ١٩

وكانت بعض قبائل العرب تزعم أن الملائكة بنات الله : يعبدونها طمعاً في شفاعتهم لهم ، فنزل قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ① لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ② يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ③ ﴾

تفاضل الملائكة

الملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى ، وعلو المنزلة ، كما هي سته تعالى في الأنبياء والبشر ، أو هم أكبر تفضلاً .

وأفضلهم «جبريل» عليه السلام لأنه إمام الملائكة ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت عليهم السلام ، ثم الملائكة المقربون لقوله تعالى :

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ④ ﴾

ثم حملة العرش ، لقوله تعالى :

﴿ وَنَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ⑤ ﴾

ثم الذين يلونهم ، والذين يلونهم .

(١) سورة الأنبياء آية ١٨ - ٢٠

(٢) سورة النساء آية ١٧٢

(٣) سورة الحاقة آية ١٧

(٤) سورة المائدة آية ١٧

أعمال الملائكة

الملائكة أعظم جنود الله سبحانه وتعالى ، وقد سخرهم الله عز وجل في كثير من الاعمال ، وقد أناط الله عز وجل بهم أعمالاً كثيرة جداً ، ومتنوعة إلى حد كبير ، وبالرجوع إلى القرآن الكريم والنظر في السنة النبوية الشريفة نجد بياناً لوظائف الملائكة وأعمالهم التي أناطها الله تعالى بهم عبادة له وطاعة . وإليك أهمها ، أو ما استطعنا الوقوف عليه :

(١) الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ، وهو الروح الأمين ، جبريل عليه السلام كما قال تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا نَزِيلًا رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ نَزَّلْنَاهُ بِالرُّوحِ الْأَمِينِ ﴿١٨﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ ﴿١٩﴾ يَلَسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

كما سماه الله تعالى «روح القدس» في قوله تعالى :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴿٢١﴾﴾

كما وصفه الله كذلك بالكرم ، والقوة ، وأنه مكين عند الله ، ومطاع في السموات ، وأمين على الرسائل ، كما في قوله تعالى :

﴿وَالْتَجَمَّ إِذْ أَهْوَى ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ② وَمَا يَنْطَلِقُ

عَنِ الْهَوَى ③ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى

⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ⑦﴾

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٤

(٢) سورة النحل آية ١٠٢

(٣) سورة النجم الآيات ١ - ٧

وفى قوله جل وعلا :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي
الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

كما صح عن النبي ﷺ أنه أخبر أن جبريل عليه السلام رافقه في أعظم رحلة تمت في الوجود . وهي إسراء النبي ﷺ ومعراجة حتى بلغ معه سدة المنتهى بالملكوت الأعلى .

(٢) ومنهم الموكل بالقطر [المطر] وتصاريفه إلى حيث أسره الله تعالى ، وموكل كذلك بأمر النبات وهو « ميكائيل » عليه السلام ، وهو ذو مكانة عليه ، ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه عز وجل أيضاً ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، ويصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الله تعالى .

وفى حديث ابن عباس - عند الطبراني - أنه ﷺ قال لجبريل : « على أى شئ ميكائيل ؟ » قال : « على النبات والقطر » وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام « مالى لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ » فقال عليه السلام : « ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار ، عياداً بالله منها .

(٣) ومنهم الموكل بالصور ، وهو إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه ثلاث نفخات بأمر ربه عز وجل الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب الأرض والسماء . أخرج الإمام أحمد والترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن

وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له « قالوا كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وهؤلاء الثلاثة الكرام « جبريل وميكائيل وإسرافيل » رؤساء الملائكة ، وكان النبي ﷺ يجمع بينهم فى دعائه « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

(٤) ومنهم الموكل بقبض الأرواح ، وهو ملك الموت كما سماه القرآن

﴿ قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ

تُرْجَعُونَ ﴾ (٢)

وقيل يسمى بـ « عزرائيل » وهو مأخوذ عن أهل الكتاب ، أو بعض الآثار ، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴾ (٣)

وهم صنفان : ملائكة رحمة وملائكة عذاب .

قال تعالى فى شأن المؤمنين :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها (١٨٥ / ٢)

(٢) سورة السجدة الآية ١١

(٣) سورة الانعام آية ٦١

سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَذْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

﴿ إِنَّا الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ وايضا :

الْأَخْفَاءُ وَلَا تَخْزَوْا وَأَسْرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢﴾

وقال تعالى فى حق الكافرين :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴾

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٣﴾

وقال تعالى فى شأن المنافقين :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ ﴿٤﴾

وقد جاء فى الأحاديث الصحيحة أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله ، إن كان محسناً ففى أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة ، وإن كان مسيئاً ففى أشنع هيئة وأقظع منظر بأغلظ وعيد ، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها فى يده ، بل يضعونها فى أكفان وحنوط يليق بها .

(٥) ومنهم ملائكة يعرجون بأرواح العباد بعد الموت ، لحديث مسلم « إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فيصعدا بها .. » الحديث (٥) .

(٦) ومنهم ملائكة لسؤال العباد فى القبور ، وهما « منكر ونكير » يسألان العبد عن ربه ودينه ونبيه ، فيقولان له : من ربك ، ما دينك ومن نبيك ؟ لحديث الترمذى وهو حسن الإسناد ، وأصله فى الصحاح ، وفيه « إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما « المنكر » وللآخر « النكير » فيقولان : « ما كنت

(٢) سورة فصلت آية ٣٠

(٤) سورة محمد آية ٢٧

(١) سورة النحل آية ٣٢

(٣) سورة الأنفال آية ٥٠

(٥) رواه مسلم (١٦٢/٨)

تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله ، فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب الناس إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً ، قال : « سمعت الناس يقولون قولا فقلت مثله ، لا أدري ، فيقولان : قد علمنا أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض : التثمي عليه ، فتلتثم عليه ، فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » (١) .

هذا وقد ورد حديث يجمع هذه الأعمال « قبض الروح والعروج بها ، والبشارة أو النذارة مع سؤال القبر » عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولما يُلحَدُ [لم يدفن بعد] ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكان على رؤوسنا الطير ، وفي يده ﷺ عود ينكت به في الأرض ، ثم رفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر ، قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، بيض الثياب ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط [رائحة] من حنوط الجنة ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : يا أيها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء [فم القربة] فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في ذلك الكفن ، وذلك الحنوط ولها رائحة طيبة كأطيب رائحة طيبة وجدت على ظهر الأرض ، فتقول الملائكة : روح من هذه ؟ فيقولون : روح فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كان يسمي بها في الدنيا ، ثم يصعدون إلى

السماء، فيستفتحون ، فيفتح لهم ، فما زال يشيعه من كل سماء مقربوها حتى يصل إلى السماء السابعة ، ثم ينادى من قِبَل الله عز وجل ، أن اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، ثم أعيدوه إلى الأرض فأبى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه إلى جسده ، فيأتيه الملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ومن نبيك ؟ فيقول : محمد ﷺ فيقولان : وما علمك ؟ فيقول : جاء بالقرآن فآمنا به وصدقناه ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فالبسوه من الجنة ، وأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وروحها ما شاء ، ثم يفسح له فى قبره مد بصره ، ثم يأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الرائحة ، يقول : أبشر بالذى يسرك ، فهذا يومك الذى كنت تواعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير؟ فيقول : أنا عمالك الصالح طالما ركبك فى الدنيا وأنت تركبني اليوم ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

ثم قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل عليه ملائكة من السماء سود الوجوه ، سود الثياب ، معهم المسوح من جهنم ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : يا أيتها النفس الخبيثة : أخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق فى جسده ، فيترعها كما يتزع السفود من الصوف المبلول [أى كما تخرج الحرير من الشوك مثلاً] فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ولها رائحة ننته كأخبث رائحة ننته وجدت على ظهر الأرض ، فنقول الملائكة : روح من هذه الخبيثة ؟ فيقولون : روح فلان بن فلان بأخبث أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، ثم يصعدون إلى السماء ، فيستفتحون فلا يفتح لهم ، ثم قرأ ﷻ

﴿ لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾

قال : ثم ينادى منادٍ من السماء : أن اكتبوا كتاب عبدى فى سجين ، ثم
اعيدوه إلى الأرض قال : فتهاوى روحه ، ثم قرأ ﷻ

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطَفُهُ الطَّيْرُ
أَوْ نَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

قال : ثم تعاد روحه إلى جسده ، فيأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له : من
ريك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فيقولان له : ومن نبيك ؟ فيقول : هاه
هاه ، لا أدري ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادى
مناد من السماء : أن كذب عبدى فالبسوه من النار وأفرشوه من النار ، وافتحوا
له باباً إلى النار ، فيأتيه من ريحها وسمومها ، ثم يضيق عليه فى قبره حتى
تختلف أضلاعه ، ثم يأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، خبيث الرائحة يقول
له : أبشر بالذى يسوؤك ، فهذا يومك الذى كنت توعده ، فيقول له : من أنت
فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر ؟ فيقول : أنا عمك السيء ، فيقول : رب لا تقم
الساعة (١)

(٧) ومنهم ملائكة «خزنة الجنة» ورئيسهم «رضوان» عليه السلام ، قال تعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ طِبْنَةً قَدْ خَلَوْهَا خَلِيدِينَ ﴿١١﴾

ومعهم « خدم الجنة » وهم ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، قال

سبحانه :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١)

(١) سورة الزمر آية ٧٣

(٢) سورة الرعد آية (٢٣ ، ٢٤)

(٨) ومنهم « ربانية جهنم » وهم تسعة عشر ملكاً ، وكلهم الله تعالى بالنار ، فهم خزانها يعذبون فيها أهلها ، قال تعالى :

﴿ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۖ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرُ ۚ لَا
تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ۚ لَوْ أَهْلَ لِلْبَشَرِ ۚ عَلَيْهِمْ إِسْعَةً عَشْرٌ ۚ وَمَا جَعَلْنَا
أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا أَمْلَئَكَهُمُ مَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ ﴾ (١)

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى « مالك » كما قال تعالى عن أهل النار

﴿ وَنَادَىٰ أُمَمًا لِّمَلِكٍ لِّيُخْرِضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ ۚ ﴾ (٢)

ولهم أعوان أيضاً كما جاء في الحديث « يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف رمام ، كل رمام في يد سبعين ألف ملك يجرونها » (٣) . كما وصفهم الله تعالى بقوله :

﴿ يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْجِبَارُ عَلَيْهِمْ مَلَكٌ غُلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۚ ﴾ (٤)

وقال تعالى بقوله :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا
يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ ۚ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُن تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۚ ﴾ (٥)

(٢) سورة الزخرف آية ٧٧

(٤) سورة التحريم آية ٦

(١) سورة اللذر آية ٢٦ - ٣١

(٣) رواه مسلم

(٥) سورة خافر آية ٤٩ ، ٥٠

(٩) ومنهم الملك الموكل بالرحم لحديث البخارى ومسلم واللفظ له «إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول أى ربى نطفة ، أى ربى علقه ، أى ربى مضغة ، فإذا أراد السله أن يقضى خلقاً قال : قال الملك أى ربى ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه» (١).

(١٠) ومنهم الكرام الكاتبون ، وعملهم كتابة أعمال البشر وإحصاؤها عليهم ، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله ، وعن يساره ملك يكتب سيئات عمله ، كما قال تعالى :

﴿وَأَن عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَكْتُبُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢)

وقال سبحانه :

﴿إِذْ تَلَقَى الْمَلَائِكَةُ عِزَّيْمِينَ وَعَنِ الشَّمَالِ

قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنِيدٌ﴾ (٣)

صفتان للملكين ، فرقيب يرقبه وعتيد حاضر عنده لا يغيب ، وملك الحسنات أمير على ملك السيئات .

وفى الحديث « كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حنة كتبها صاحب اليمين عشراً ، وإن عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال ، دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » (٤) .

وقد أمرنا أن نكرمهم وأن نستحي منهم ، كما قال ﷺ « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند حالتين : الجنابة والغائط ، فإذا اغتسل أحدكم فليستر

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) سورة الانفطار آية ١٠ - ١٢

(٣) سورة ق آية ١٧ - ١٨

(٤) رواه البيهقي عن أبي امامة

بجرم حائط أو بيعيره ، أو ليستره أخوه « (١)

(١١) ومنهم الموكل بحفظ العبد في حله وارتحاله ، وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته وهم المعقبات ، قال الله تعالى :

﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۚ لَكُمْ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ ﴾ (٢)

جاء في تفسيرها : أى بأمر الله . وقال تعالى :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ۖ ﴾ (٣)

كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ ﴾ (٤)

كذلك ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ۖ ﴾ (٥)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد : « ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما من شيء يأتيه إلا قال له الملك وراذك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه » (٦)

قال ابن كثير في قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ۖ ﴾

(١) رواه ابن حاتم بسنده

(٢) سورة الرعد آية ١٠ ، ١١

(٣) سورة الأنعام آية ٦١

(٤) سورة الأنعام آية ١٠

(٥) سورة الأنبياء آية ٤٢

(٦) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٠٣ بتصرف

أى بدل الرحمن . يمتن سبحانه وتعالى بنعمته على عبده وحفظه لهم بالليل والنهار وكلاته وحراسته لهم بعينه التى لا تنام (١).

وقال ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم الله وهو أعلم بهم فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون» (٢).

(١٢) ومنهم الملك الموكل بالجبال وقد ثبت ذكره فى حديث خروج النبى ﷺ إلى « بنى عبد ياليل » وعوده منهم ، وفيه قول جبريل له ﷺ « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوه عليك وقد بعث معى ملكاً لتأمره بما شئت ، فإن شئت أطبق على قومك الجبال من فوقهم ، وإن شئت خسف الأرض بهم » ، قال النبى ﷺ : « بل استأن بهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » (٣) . وقال أيضاً «فنادانى ملك الجبال فسلم على ، فقال يا محمد ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيين . . » الحديث (٤) .

(١٣) ومنهم حملة العرش ، كما قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ وَنَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ﴾ (٦)

قال ابن عباس : ثمانية صفوف من الملائكة ، وقيل : هم فى الدنيا أربعة ،

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٩ ط مكتبة التراث الإسلامى

(٢) رواه ابن هشام فى السيرة

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة

(٤) سورة غافر آية ٧

(٥) رواه البخارى ومسلم

(٦) سورة الحاقة آية ١٧

ويوم القيامة ثمانية ، وقد ذكر ذلك في حديث الصور الطويل ، وفيه قال رسول الله ﷺ : « فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حساً شديداً فهالنا ، فينزل أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة بمثلى من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف ، حتى ينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ، فيحمل عرشه يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى والأرض والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم ، لهم رجل فى تسييحهم ، يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ، سبحان قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت » (١) .

(١٤) ومنهم قسم يسمون به « الكرويين » وهم سادة الملائكة المقربين ، وهم أقرب الملائكة إلى حمة العرش ، وكلمة « الكرويين » من مادة « الكرب » بمعنى الحزن ، لشدة خوفهم من الله جل جلاله وخشيتهم إياه ، وقيل إن الكلمة مأخوذة من لفظة « الكرب » بمعنى القرب أو القوة ، وذلك لقوتهم وصبرهم على العبادة (٢) .

(١٥) ومنهم زوار البيت المعمور ، الذى أقسم الله تعالى به فى كتابه

(١) رواه ابن جرير والطبرانى وغيرهما

(٢) عالم الملائكة للشيخ عبدالحيد كشك ص ٢١ ط المحذر الإسلامى

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾^(١)

وثبت ذلك في حديث المعراج ، وهو بيت في السماء السابعة بحيال الكعبة في الأرض لو سقط لوقع عليها ، حرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم ، يعنى لا تحول نوبتهم لكثرتهم والحديث بالفاظه في الصحيحين ^(٢) .

(١٦) ومنهم ملائكة الدعاء وعملهم الذى وكلوا به أن العبد إذا دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك « آمين ولك بمثل ذلك » ولحديث مسلم : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل » ^(٣) .

(١٧) ومنهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ ، لحديث أحمد : قال ﷺ : « إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام » ^(٤) .

(١٨) ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، فيحفظونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم منهم : ما يقول عبادى ؟ قالوا : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك .. الحديث ^(٥) ولقوله ﷺ : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ^(٦)

(١) سورة الطور آية ٤

(٢) معارج القبول ، شرح سلم الوصول ص ٧٣

(٣) رواه مسلم (٨٦/٨)

(٤) أخرجه النسائي وابن حبان

(٦) رواه البخارى ومسلم

(٥) رواه البخارى ومسلم

(١٩) ومنهم ملائكة صفوف لا يفترون ، وقيام لا يركعون ، وركع وسجد لا يرفعون ، ومنهم غير ذلك
﴿ وَمَا يَتَعَلَّمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (١)

وروى الإمام أحمد والترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أظن (٢) السماء وحق لها أن تظن ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفراشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله عز وجل » (٣) ، وفى رواية « إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راکع أو ساجد ».

وقال ﷺ أيضاً « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ (٥) »

وقال ﷺ : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ فقلنا يارسول الله : وكيف تصف الملائكة عند ربها ؟ قال : يتمون الصفوف الأول ويتراصون فى الصف » (٥) ١ . هـ . (٦) .

(١) سورة المدثر آية ٣١

(٢) أظن : الاطيط : صوت الرجل الذى يوضع فوق ظهر البعير ، أى أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أظن .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : غريب .

(٤) سورة الصافات ، آية ١٦٤ - ١٦٦

(٥) صحيح البخارى ومسلم

(٦) معارج القبول يشرح سلم الوصول إلى علم الاصول فى التوحيد ، للشيخ حافظ بن أحمد الحكيم ج ٢ ص ٦٤ - ٧٤ بتصريف

(٢٠) هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة في أعمال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى :

« والصافات، والزاجرات ، فالتاليات، والنازعات، والناشطات، فالمدبرات ، فالمقسمات »

لقلنا في صدق : إن الكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمر تديره بالملائكة وذلك بإذن ربهم تعالى ^(١).

ومعنى « الصافات » : أى الملائكة تقف صفوفًا عند ربها .

« الزاجرات » : أى أنها تزجر السحاب ، وقال الربيع بن أنس : ما زجر الله عنه فى القرآن .

« التاليات ذكرًا » : أى أنهم يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس كقوله « فالملقىات ذكرًا » .

« النازعات » : أى الملائكة حين تنزع أرواح بنى آدم فتأخذ روحه بعسر فتفرق فى نزعها .

« الناشطات » : أى من تأخذ روحه بسهولة من المؤمنين وكأنما حلته من نشاط .

« المدبرات » : أى تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها عز وجل ^(٢)

« المقسمات » : أى التى تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد ، وكل ملك مخصص بأمر ^(٣) .

(١) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائري ص ١٩٢ - ١٩٧ بتصرف .

(٢) ابن كثير ج ٤ ص ٢ ، ص ٤٦٦ بتصرف .

(٣) صفوة التفسير لمحمد على الصابوني ج ٣ ص ٢٥١ بتصرف ط دار القرآن الكريم - بيروت .

بعض صفات الملائكة

وهذه الصفات قد استوحيناها من خلال الأخبار الصادقة التي هي الدليل الشرعي من القرآن والسنة وقد تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة وأحوالهم، نثبته هنا في بحثنا عن الملائكة كجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيداً فنقول :

(١) إن من صفات الملائكة : « الحياء » .

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي ﷺ قال : « ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة ؟ » ^(١) يعني بذلك الرجل « عثمان بن عفان » رضي الله عنه ، ففي هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء ، فالحياء خير كله ، ونحن أحق بالحياء من الملائكة ، فيجب علينا أن نستحي منهم ، وأن نكرمهم بالأدب والوقار على معصية تغضب الله عز وجل .

(٢) ومن صفاتهم « تآذيتهم من المكروه »

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان للحديث « من أكل من الثوم ، والبصل والكراث فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » ^(٢) ، وللحديث أيضاً « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة » ^(٣) فعلم دخولهم البيت الذي فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما ، دليل على تآذيتهم من هذا المكروه ، والمعنى بالملائكة هنا هم ملائكة الرحمة ، لأن الكتب

(١) رواه مسلم (١١٧/٧)

(٢) رواه مسلم (٩٠ / ٢)

(٣) رواه البخاري (١٣٨ / ٤) ومسلم (١٥٧/٦)

والحفظ لا يدعون الإنسان ، والمعنى بالكلب كل كلب عدا كلب صيد أو حراسة ، والمعنى بالصورة ، كل صورة نهى عنها الشرع مجسمة أو معلقة أو عارية أو نحو ذلك ولا يستثنى منها إلا ما كان للضرورة ، أو كان صورة ممتنة .

وأين هذا مما عليه بيوت المسلمين في زماننا هذا ، فالكلاب تربي للزينة والفاحشة ، والصور تعلق على الجدران ، وفي كل مكان ، عارية وغير عارية ، ومجسمة وغير مجسمة فيا ليت المسلمين يفقهون من غفلتهم ويعودون إلى ربهم .

(٣) ومن صفاتهم « طاعتهم لله تعالى وخوفهم منه سبحانه »

إن الملائكة مطيعون لله تعالى لا يعصونه بحال من الأحوال ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۖ لَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

ومع كثرة طاعتهم لله فما أشد خوفهم من الله ، فقد أثبت القرآن ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۚ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣)

كما قال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٤)

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٦ ، ٢٧

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٨

(١) سورة التحريم آية ٦

(٣) سورة النحل آية ٤٩

(٤) ومن صفات الملائكة « عِظَمُ خَلْقِهِمْ »

للملائكة أحجام كبيرة تفوق أحجام المخلوقات الأخرى التي اعتدنا رؤيتها ، يدل على ذلك قوله تعالى :

﴿ يَتَّبِعُهُ الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُهُمْ وَاهْلِيكُمْ تَارًا وَقُدُّوا لَهُمُ السَّلَامَ
وَالْجَارَةُ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١)

وروى الإمام مسلم عن ابن مسعود قال : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في حلة خضراء قد ملأ ما بين السماء والأرض » (٢) وروى أن النبي ﷺ قال : « أذن لى أن أحدث عن ملك من حملة العرش ، رجلاه فى الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمئة عام ، يقول أى الملك : سبحانك حيث كنت » (٣) .

وهم متفاوتون فى الحجم ، فليسوا متساوين ، إذ أن منهم من له جناحان ، ومن له ثلاثة ومن له أربعة حتى أن جبريل عليه السلام له ستمئة جناح (٤) قال الله تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥)

(١) سورة النحل آية ٦

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه أبو داود ، بسند صحيح .

(٥) سورة فاطر آية ١

(٤) عالم الملائكة ص ٧

فبين سبحانه أن للملائكة أجنحة ، بعضهم له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء والمعراج ، وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال سبحانه :

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾

قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، قال القرطبي : وهو قول أكثر المفسرين .

« جمالهم » ومع عظم خلقهم ، فقد خلقهم الله سبحانه على صورة جميلة كريمة كما قال سبحانه فى حق جبريل أمين الوحي

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝ ﴾ (١)

قال ابن عباس : « ذو مرة » أى منظر حسن (٢) . وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، أنظر ما قالته النسوة فى حق يوسف الصديق عندما رأيته

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ۖ هَٰذَا إِلَٰهٌ مَّالِكٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣)

(١) سورة النجم آية ٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٧

(٣) سورة يوسف آية ٣١

(٥) ومن صفات الملائكة « كثرة عددهم ، بحيث لا يعلمهم إلا الله »

وصدق الله العظيم إذ يقول

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ^(١)

فالملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم ، وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع هذا الحديث ، قال ﷺ : « أظنت السماء وحق لها أن تظ ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد » ^(٢).

أو قوله ﷺ « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك ^(٣). أو قوله ﷺ في حديث الإسراء بعد مجاورته إلى السماء السابعة : « .. ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم » ^(٤) يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، وقال العوفي عن ابن عباس : هو بيت حذاء العرش تعمره الملائكة يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف ^(٥) . فإذا أضيف إلى هؤلاء ما ذكر عن خدمة الجنة ، وما لكل واحد من أهلها من الملائكة ، وكذلك الملائكة الموكلون بأعمالهم والحفظة وغيرهم من السياحين في الأرض يتلمسون مجالس الذكر والملائكة الصّافون في السموات المسبحون بحمد رب الكائنات .

فماذا عن عددهم ؟ لا يبقى إلا أن تسبح بعظمة الله عز وجل ، وتختر له ساجداً .

(١) سورة اللّٰه آية ٢١

(٢) سبق تخريجه

(٣) سبق تخريجه

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٩ بتصرف

(٥) سبق تخريجه

(٦) ومن صفاتهم أيضاً « تشكيل الملائكة »

فالملائكة تتشكل بغير صورها الحقيقية فيما تشاء من الصور الحسنة ، وتترأى لبعض الصفوة المختارة من عباد الله ، وكثيراً ما ظهرت الملائكة في هيئة رجال على مستوى ملحوظ من جمال الصورة وإشراق الوجه ، وحسن الهندام ، إلا أن هذه الأجساد التي تتشكل فيها ، لا يخرجها عن طبيعتها الأصلية التي فطرها الله عليها . فعندما تتشكل مثلاً بالأجسام الإنسانية لا تسرى عليها طبيعة البشر ، فلا تأكل ولا تشرب ، كما بين الله عز وجل ذلك في قصة الملائكة مع « خليله إبراهيم عليه السلام » وكذلك مع « لوط عليه السلام » وما حدث أيضاً في قصة « مريم » وقد تمثل جبريل عليه السلام لها بشراً سوياً ، وكذلك مجيء « جبريل عليه السلام » للنبي محمد ﷺ مرات في صورة « دحية بن خليفة الكلبي » أحد أصحاب النبي ﷺ ، كان جميل الصورة، ومرة في صورة أعرابي أخذ يسأل النبي ﷺ ، وغير ذلك .

وأحياناً تتمثل الملائكة في صورة بشر عادية وتلقى بعض الناس لإخبارهم بما يسرههم ويشرح صدورهم لحسن صنيعهم ، وحميد أفعالهم وكريم خلالهم أو لأجل اختبارهم كما في حديث الذين ابتلاهم الله من بني إسرائيل، وغيره . (١)

(٧) ومن صفات الملائكة « أنهم ينصرون دين الله ويقاتلون مع رسول

الله ﷺ » وقد أثبت القرآن الكريم هذا في غير موضع ، فقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

بِدَرِّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٧ إِذْ يَقُولُ

(١) عالم الملائكة ص ٢٤ - ٢٨ بصرف

لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْكُرْكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَانٍ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَجَاعَلَهُ اللَّهُ إِلاَ بُشْرَى لَكُمْ وَلَسَطَمَ فِي قُلُوبِكُمْ بَعْرٌ وَمَا النَّصْرُ إِلاَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

وقال تعالى :

﴿ إِذْ بُرِّحَ رُؤُوسُكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (١)

وقد تكرر نزول الملائكة للقتال مع المسلمين ولنصرة دين رب العالمين أكثر من مرة ، ومن ذلك :

١ - في غزوة بدر ، كما ذكرته الآيات في سورة آل عمران والأنفال ، وقد نزلت الملائكة أفواجا إذ أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف .

وفي الحديث عن معاذ بن رفاعه بن رافع الزرقى عن أبيه ، وكان أبوه من أهل بدر ، قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » قال جبريل : « وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة » (٢)

(١) سورة آل عمران آية ١٢٣ - ١٢٦

(٢) رواه البخاري

(٢) سورة الأنفال آية ١٢

٢ - فى غزوة الأحزاب كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ^(١)

فقوله تعالى : ﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى ، فيجتمعون إليه فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل فى قلوبهم من الرعب ^(٢) .

٣ - ضد يهود بنى قريظة ، كما ثبت فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : « لما رجع النبى ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم ، قال : فإلى أين ؟ قال : ها هنا ، وأشار إلى بنى قريظة ، فخرج النبى ﷺ » ^(٣) .

٤ - وفى غزوة حنين ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي
مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥
ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا
لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٤)

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٧٠ بتصرف

(٤) سورة التوبة آية ٢٥ - ٢٦

(١) سورة الأحزاب آية ٩ - ١١

(٣) رواه البخارى

وأخرج ابن جرير الطبري عن عبد الرحمن مولى ابن يربن قال : حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين ، قال : « لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة ، قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال : فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه ، فقالوا لنا : شأهت الوجوه ، ارجعوا ، قال : فانهمزنا وركبوا أكتافنا ، فكانت إياها » يعنى الملائكة (١) .

(٨) ومن صفات الملائكة « حضورهم الأعمال الصالحة ، وتنزلهم لها وصلاتهم على أصحابها »

١ - وذلك مثل طاعة الله عز وجل فى ليلة القدر ، كما تحدث القرآن عن ذلك

﴿ نَزَلَ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ۖ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ۖ (٢)

وقال أنس « إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل فى كبكة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى » (٣)

٢ - قراءة القرآن وذكر الله تعالى ، كما نزلت الملائكة لقراءة « أسيد بن حضير » القرآن ، وقال له النبى ﷺ بعد أن أخبره : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها ، لا تتوارى منهم » (٤) وقوله ﷺ « وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فى من عنده . . » الحديث (٥) وقوله ﷺ « إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٥ بتصرف

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٣٠

(٣) سورة القدر آية ٤ - ٥

(٤) سبق تخريجه

(٥) رواه البخارى

أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . . » الحديث (١) .

٣ - تعليم الناس الخير ، قال ﷺ : « إن الله وملائكته ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير » وفي رواية أخرى « وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء » (٢) .

٤ - طالب العلم النافع : كما قال ﷺ : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رصاً بما يطلب ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » (٣) .

٥ - المشى إلى المساجد والمكث فيها : كما قال ﷺ : « إن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد ، فتقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه » (٤) ، وورد بنحوه مطولاً .

٦ - الصلاة فى الصف الأول : كما قال ﷺ : « إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول » (٥) .

٧ - التبكير إلى الجمعة : كما قال ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طروا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر » (٦) .

(٢) رواه انظر انى والترمذى بإسناد صحيح

(٤) رواه مسلم

(٥) رواه اسخري

(١) سبق تخريجه

(٣) رواه أحمد في مستدركه وأهل السنن

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد

٨ - صلاة الفجر والعصر في المسجد جماعة: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون»^(١).

٩ - السحور: كما قال ﷺ: «السحور أكله بركة، فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»^(٢).

١٠ - التصدق والإنفاق في وجوه الخير: كما قال ﷺ: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكًا تلفًا»^(٣).

١١ - الحج والوقوف بعرفة: كما قال ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟...»^(٤).

١٢ - الاستشهاد في سبيل الله: فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: لما قتل أبى جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى، وينهونى، والنبي ﷺ لا ينهانى، فجعلت عمتى فاطمة تبكى، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»^(٥).

١٣ - الصلاة على النبي ﷺ: كما قال صلوات ربي وسلامه عليه: «ما من عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة، مادام يصلى على، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر»^(٦).

(٢) رواه المنذرى في الترغيب والترهيب وقال إسناده قوى

(٤) رواه مسلم عن السيدة عائشة

(١) سبق تخريجه

(٣) رواه البخارى عن أبى هريرة

(٥) رواه البخارى (باب ظل الملائكة على الشهيد)

(٦) رواه أحمد في مسنده بسند صحيح

١٤ - عيادة المريض : قال ﷺ : « ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي ، وإن عادته عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة » (١) .

١٥ - زيارة الإخوان : كما قال ﷺ : « إن رجلاً زار أخاً له في قرية ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى في هذه القرية ، قال : هل لك من نعمة تربها : قال : لا ، غير أنى أحبته فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه » (٢) .

١٦ - الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب : كما قال ﷺ : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل » (٣) .

١٧ - النوم على وضوء : قال رسول الله ﷺ : « من بات طاهراً بات في شعاره » فرائشه « ملك ، فلا يستيقظ إلا قال الملك : اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهراً » (٤) .

(٩) ومن صفات الملائكة كذلك « حبهم لمن يحب ربهم ، ودعائهم للمؤمنين »

إن الملائكة تحب حباً يليق بحالهم ، وحسب ذواتهم ، فقد دل الدليل الشرعى على أنهم يحبون ، ففى الحديث الصحيح « إن الله تعالى إذا أحب عبداً ، نادى جبريل : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض » (٥) .

(١) رواه الترمذى بإسناد حسن

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه

(٣) أخرجه مسلم

(٥) رواه البخارى ومسلم

وإن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه للمؤمنين : كما قال الله تعالى عنهم :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ
كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ ١١ ﴾

(١٠) ومن صفات الملائكة « أنهم يلعنون من لعنه الله تعالى »

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ ٢ ﴾

فمن هؤلاء الذين تلعنهم الملائكة بلعنة الله لهم ؟

أولاً : الكفرة : قال الله تعالى :

﴿ كَيْفَ

يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ ١١ ﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنْ

(١) سورة طه الآيات ٧ - ٩

(٢) سورة البقرة آية ١٦١

عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾

وقال تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَوْمَأُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٩)

ثانياً : الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله ، كما قال ﷺ : « من قتل عمداً ففقد يديه ، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٣) . فالذى يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل القتاتل عمداً بالجاء أو المال .. فعليه هذه اللعنة فكيف بالذى يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟؟

ثالثاً : الذين يؤون محدثاً : من الذين تلعنهم الملائكة ، كما يلعنهم الله ، الذين يحدثون في دين الله بالخروج على أحكامه والاعتداء على تشريعه ، أو يؤون من يفعل ذلك ويحمونه كما في الحديث الصحيح : « من أحدث حدثاً أو آرى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٤) .

رابعاً : لعنهم الذي يسب أصحاب النبي ﷺ ، كما في الحديث « من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٥) .

خامساً : لعن الملائكة المرأة التي لا تستجيب لزوجها ، قال ﷺ : « إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » وفي رواية أخرى « إذا دعا

(١) سورة آل عمران آية ٨٦ - ٨٨

(٢) سورة البقرة آية ١٦١ .

(٣) رواه النسائي وأبو داود وابن ماجه بإسناد صحيح .

(٤) رواه أبو داود والنسائي والحاكم .

(٥) معجم الضعيف في الكبير بإسناد حسن عن ابن عباس .

الرجل امرأته إلى فراشه ، فأبت أن تنجي. لعنتها الملائكة حتى تصبح » ، وفي رواية ثالثة « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت ، فبات غضبان عليها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح » (١) .

سادساً : لعن الملائكة المرأة التي تخرج بدون إذن زوجها ، لما روى ابن عمر رضى الله عنهما : قال « رأيت امرأة أتت إلى النبي ﷺ وقالت : يا رسول الله ، ما حق الزوج على زوجته ؟ قال : حقه عليها أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن فعلت لعنها الله وملائكة الرحمة وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع » (٢) .

سابعاً : لعنهم الذى يشير إلى أخيه بحديدة ، كما قال ﷺ : « من أشار إلى أخيه بحديدة ، فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه » (٣) .

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أبو داود والبيهاق .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة .

عصمة الملائكة

خلق الله عز وجل الملائكة ، وجبلهم على طاعته ، وعصمهم من معصيته ،
فهم كما وصفهم الله تعالى :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

﴿ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

وكما قال :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ

إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصِلَ ۚ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ومع ذلك رأينا من يقول بعدم عصمة الملائكة لشبهات وقرت في أذهانهم ،
أخذوها من كتاب الله فكان ذلك هو الحق الذي أريد به باطل ، ومن ذلك فهمهم
لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قُلُوا

لَتَجْعَلَ فِيهَا مَنِ يَسُدُّ فِيهَا وَإِسْفِكَ الدَّمَاءَ وَفِيهَا نُسُجٌ يُجَادُّ وَتُقَدِّسُ

لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ١١ ﴾

فرحموا أن ذلك من قبيل الاعتراض على الله ، ونسوا أن الاعتراض على الله ليس مجرد معصية فقط ، وإنما ذلك هو الكفر البواح الذي وقع فيه إبليس عليه لعنة الله .

كما قالوا بعدم عصمة الملائكة بزعم أن إبليس كان من الملائكة ، وأنه لم يمثل للأمر الإلهي بل اعترض على حكم الله ، وقاس بعقله الفاسد بينه وبين آدم وقال ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١)

كما استدلوا - ثالثاً - على عدم عصمة الملائكة ، بقصة « هاروت وماروت » كما ذكرت في الإسرائيليات ، وبعض الروايات ، والأكاذيب والخرافات ، مما لا يستحق ذكره ، فهذا كل ما في جعبتهم ، فنقول وبالله التوفيق : إن عصمة الملائكة ثابتة بالقرآن والسنة وعليه إجماع الأمة ، وأن كل ما ذكرت من شبهات إنما هي من نسج الخيال ، أو الجهل والخيال ، فأما عن قصة الملائكة مع آدم ، كما حكته الآيات الكريمات

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

فهل قولهم هذا فيه سب لآدم وذريته ، ومدح وتنزيك لنفوسهم واعتراض على حكم ربهم ؟؟ لا والله لا .

ولعل الحكمة من إخبار الله عز وجل للملائكة عن هذا المخلوق وذريته ما سيكون بينه وبينهم من صلة ، فقد أمروا بعد خلقه بتكريمه وتعظيمه بالسجود له ،

امتحنانا لطاعتهم ، وقدر الله سبحانه أن يكون منهم الحفظة والكتبة وملائكة
الروحى ، والمطر والنبات والعذاب والموت . . وكلها متعلقة بحياة البشر ومقاديرهم
ومصائرهم .

ولم يكن جواب الملائكة على هذا الإخبار الإلهى بخلق آدم من قبيل الاعتراض
مطلقاً ، وإنما كانت حكمة هذا الخلق الجديد خافية عليهم فأرادوا معرفتها ، لماذا
يخلق الله خلقاً غيرهم ؟ وهل بدر منهم تقصير أو قصور فى مهمتهم ، لذلك
أراد الله أن يخلق غيرهم ؟ فكان سؤالهم واستفسارهم . وكونهم وصفوا الإنسان
بالفساد فى الأرض وسفك الدماء ، قبل أن يوجد ، لأن الله أعلمهم بذلك ولأنهم
أدركوا أنه ما دام هذا المخلوق سيكون من طين ويعيش فى الأرض فلا بد أن تكون
له طبيعة قابلة للخير والشر ، وحيث لا بد أن يقع التنازع والصراع بين ذريته ،
فيحصل الفساد وتسفك الدماء .

وحين أدرك الملائكة خصائص هذا المخلوق وعرفوا ما روده الله به من
الاستعداد للمعرفة والتزود من العلم سجدوا سجود تحية وتكريم امتثالاً لأمر الحق
تبارك وتعالى :

﴿وَأَذَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْمَهُوا لِآدَمَ مَجْدُوا لِآدَمَ قَبْلَ الْإِبْلِيسَ

أَبْنَى وَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾ (١)

ومن هنا ينتقل بنا الكلام إلى الشبهة الثانية القائلة بعدم عصمة الملائكة لأن
إبليس - وهو من الملائكة - لم يمثل لأمر الله واعترض على حكمه فاستحق
بذلك الغواية والطرده من رحمة الله ومن جنته ، كما حكته الآيات فى غير موضع
فى القرآن .

نقول : إن من زعم أن إبليس كان من الملائكة فقد أبعده النزاع ، وأخطأ الفهم وضل الطريق وذلك لأن الله عز وجل فصل في القضية بآية كريمة في سورة الكهف فقال :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ
أَفَتُخَذُونَ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ (١)﴾

فهل بعد هذا الحق الناصع ، والوضوح القاطع ، يقول أحد بأن إبليس من الملائكة ، أو يردد تلك الإسرائيلية بأن إبليس كان طاووس الملائكة ، وأعلم الملائكة ، وأبعد الملائكة ، ونحو ذلك ، كيف ؟ وقد اختلف عنهم خلقاً وخلقاً ، وبداية ونهاية وحياة ومصيراً !

أى وجه للشبه بين إبليس والملائكة ؟ وهم مخلوقون من نور ، وقد خلق من نار وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو قد فسق عن أمر ربه ، واعترض على حكم خالقه ، وهم لا يتزوجون ولا يتناسلون ، وهو له أزواج وذرية على شاكلته أعداء لله رب العالمين ، وهم الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، وهو الذى أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وهم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وهو الذى لا يفتر ولا يتوانى فى إضلال خلق الله بعد ما أقسم بعزة الله على إغواء الخلق أجمعين ، إلا من لا يستطيع الوصول إليه من المخلصين ، وهو الذى لا يدع وسيلة ولا باباً إلى إغوائهم إلا سلكه إليهم

﴿ قَالَ
فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦ ﴾ ثُمَّ لَا يَلِيَهُمْ
مَنْ يَنْبِئُ أَيْدِيَهُمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ
وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧ ﴾

فكل هذه فروق بين الملائكة وإبليس ، تحول دون أن يكون إبليس من الملائكة
طرفة عين ، فضلاً عما حكم الله عز وجل به عليه من مصير

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْذُومًا
مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨ ﴾

لكن يبقى هنا استفسار : ما وجه الحكمة في استثناء إبليس من السجود مع أنه
للملائكة ؟ نقول وبالله التوفيق : أولاً : هذا الاستثناء منقطع ، كما يقول أهل
اللغة ، يقال : جاء القوم إلا حماراً ، وأكلت التفاح إلا برتقالة ، وهنا
يقال : سجد الملائكة إلا إبليس .

كذلك يقال : صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وإبليس كان معهم - ولم
يكن منهم ، كما علمت - فبحكم معيته للملائكة ، وهو فرد بين أمم الملائكة ،
كان عليه أن يسجد ، ولكنه أبى ، لأنه خانه أصله الناري ، وطبعه الفاسد ، إذ
قاس وقارن ، فضل وملك ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وأما عن آخر ما في جعبتهم من شبهات حول عدم عصمة الملائكة ، فهي قصة
هاروت وماروت التي حكها الله في سورة البقرة ، فقال سبحانه وتعالى :

(١) سورة الأعراف آية ١٦ - ١٧

(٢) سورة الأعراف آية ١٨

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ
عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ كَذِبًا
لَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ^(١٠) وَاتَّبَعُوا مَا تَلَائَلُوا الشَّيَاطِينُ
عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ
النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا
يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا غَنَيْنَا فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا
يُفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرٍ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا الْمَنْ أَشْرَكَهُ
مَا لَمْ يَكُن فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ^(١١) ﴾

فقد أورد كثير من المفسرين عند تفسير هذه الآية الكريمة روايات كثيرة ،
وقصص عجيبة ، كلها من خرافات بنى إسرائيل ، وأكاذيبهم التي لا يشهد لها
عقل ولا نقل ، ولا شرع ، ولم يقف بعض رواة هذا القصص الخرافي الباطل عند
روايته عن بعض الصحابة والتابعين ولكنهم أوغلوا باب الإثم والتجنى الفاضح
فألصقوا هذا الزور إلى النبي ﷺ ، ورفعوه إليه ، سبحانه ربى هذا بهتان عظيم .
وقد حكم بوضع هذه القصة علماء كثيرون منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزى ،
وابن كثير ، والقاضى عياض ، وغيرهم . ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد
فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما ، فهو كافر بالله العظيم .

وقال الإمام القاضي عياض فى « الشفا » : وما ذكر أهل الأخبار ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت ، لم يرد فيه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس ^(١) . وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير : المرفوع من هذه القصة موضوع ، وأما ما ليس مرفوعاً فمنشؤه روايات إسرائيلية ، أخذت عن كعب وغيره ، ألحقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام ^(٢) . وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا فى معرفة أصول الدين وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات كالإمام الرازى وأبى حيان وأبى السعود والألوسى وغيرهم .

ثم هذه من ناحية العقل غير مسلمة ، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر التى لا تصدر من عرييد ، وقد أخبر الله عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . كما ورد فى بعض الروايات - التى ذكرها بعض المفسرين - رد لكلام الله ، ففى رواية : أن الله قال لهما لو ابتليتما بما ابتليت به بنى آدم لعصيتما ، فقالا : لو فعلت بنا يارب ما عصيناك ؟ ورد كلام الله كفر ، تنزه عنه من له علم بالله وصفاته ، فضلاً عن الملائكة ، ثم كيف ترفع الفاجرة إلى السماء وتصير كوكباً مضيئاً ، وما النجم الذين يزعمون أنه « الزهرة » وزعموا أنه كان امرأة ، فمسخت إلا فى مكانه من يوم أن خلق الله السموات والأرض .

وهذه الخرافات التى لا يشهد بها نقل صحيح ولا عقل سليم هى كذلك مخالفة لما صار عند العلماء المحدثين أمراً يقينياً . ولست أدرى ما الداعى لكل هذه الأكاذيب ، والآية الكريمة نفت كل ما زعموه من أصله ، فى قوله تعالى

﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِلْهِرُونَ وَمَكْرُوءٌ ﴾

و [ما] نافية وليست موصولة ، يعنى : لم ينزل الله علم السحر على

(١) عالم الملائكة من ٣٠ بتصرف

(٢) ابن كثير ج ١ ص ١٤١

الملكين، قاله ابن كثير ورحبه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: لم ينزل الله السحر، وعن الربيع بن أنس قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير : فتأويل الآية على هذا : واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببايل هاروت وماروت ، فيكون قوله ببايل من المؤخر الذى معناه المقدم ، قال فإن قال لنا قائل : كيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل وجه تقديمه أن يقال [واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببايل هاروت وماروت ، فيكون معنياً بالملكين : جبريل وميكائيل عليهما السلام ، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمداً ﷺ ، أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببايل وأن الذين ، يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردا عليهم . هذا لفظه بحروفه (١) .

ونقول أيضاً : وحتى على اعتبار أن [ما] موصولة ، بمعنى [الذى] :

فيكون المراد بما أنزل هو : علم السحر الذى نزل ليعلماه الناس حتى يحذروا منه ، فالسبب فى نزولهما هو : تعليم الناس أبواباً من السحر ، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة ، وأن سليمان لم يكن ساحراً ، وكانا فى غاية الاحتياط، فما كانا يعلمان أحداً شيئاً من السحر حتى يحذراه ، ويقولوا له : إنما

نحن فتنه أى بلاء واختبار ، فلا تكفر بتعلمه والعمل به ، وأما تعلمه للحذر منه ، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة ، فهذا لا شيء فيه ، بل هو أمر مطلوب ، مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة ، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه وذلك بإذن الله ومشيتته . وقد دلت الآية : على أن تعلم السحر لتحذير الناس من الوقوع فيه والعمل به مباح ، ولا إثم فيه ، وأيضاً تعلمه لإزالة الإشتباه بينه وبين المعجزة والنبوة مباح ولا إثم فيه ، وإثماً الحرام والإثم فى تعلمه أو تعليمه للعمل به ، فهو مثل ما قيل : عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه ، ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه .

والخلاصة : على القارئ أن يحذر من هذه الإسرائيليات ، سواء وجدها فى كتاب تفسير أو تاريخ أو مواظ أو أدب ^(١) ، وأن يكون على يقين من عصمة الملائكة ، كعصمة الأنبياء . كما يجب على المؤمن أن يعلم أن الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذى يعبد الله ويتبع رضوانه لامناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير ، وأن يستحى منهم ويكرمهم ويتجنب كل ما من شأنه أن يسئ إليهم ويؤذيهم ، وأعظم ما تؤذى به الملائكة الذنوب والمعاصى والكفر والشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهن أن يخلص المرء دينه لربه ويتجنب كل ما يغضبه .

ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن التى يعصى فيها الله تعالى ، أو التى يوجد فيها ما يكرهه الله ويغضه كالانصباب والتماثيل والصور ، ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران . كما أن البيت الذى يتلى فيه القرآن يتسع بأهله ويكثر خيره وتحضره الملائكة وتخرج منه الشياطين ، وإن البيت الذى لا يتلى فيه كتاب الله عز وجل يضيق بأهله ويقل خيره وتخرج منه الملائكة وتحضره الشياطين . وكذلك

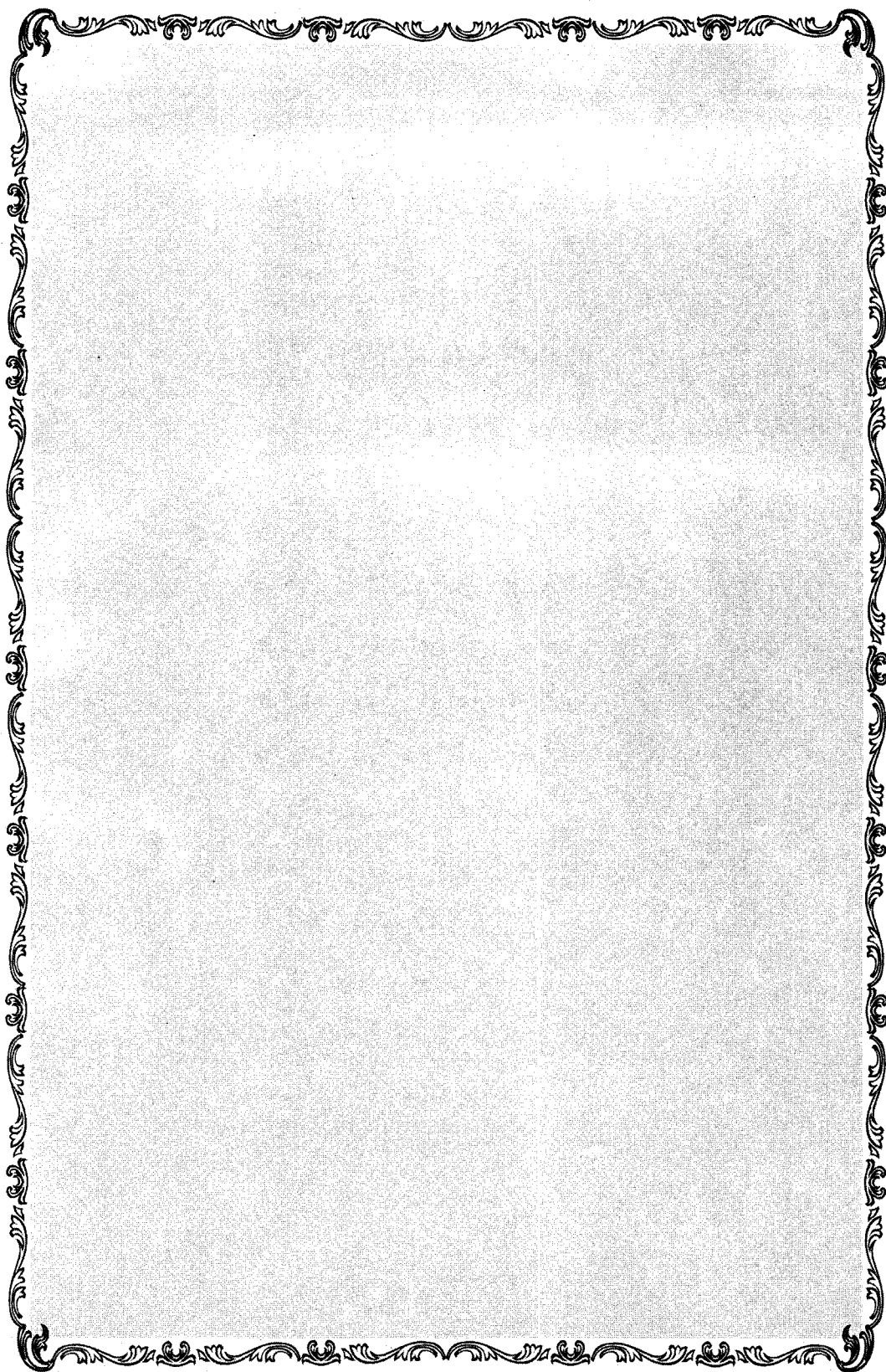
(١) عالم الملائكة ص ٣٢ - ٣٣

يؤذيهم - كما علمت - كل ما يتأذى منه بنو آدم من الرائحة الكريهة ، والافذار
والاوساخ . وبالجمله ، فعلى المؤمن أن يكون تقياً نقياً ، أواماً منياً ، ذاكراً
شاكراً ، حتى يقوّل بصحبة الملائكة الأبرار (١) .

(١) عالم الملائكة الأبرار للشيخ عمر سليمان الأنقر ، يتصرف

الباب الثاني الإيمان بالكتب

- * ما هي الكتب
- * حقيقة الإيمان بالكتب
- * كيف نؤمن بالكتب
- * أدلة وجوب الإيمان بالكتب
- * ما عرف من الكتب وما لم يعرف
- * ما يجب إجمالاً وتفصيلاً
- * ما هي منزلة القرآن الكريم بين الكتب
- * كيف ننتفع بالقرآن
- * هل القرآن مخلوق



الركن الثالث :

الإيمان بالكتب

من أركان الإيمان ومن عقيدة المؤمن « الإيمان بالكتب » ، فما هي الكتب التي يؤمن بها ، ما معناها وما هي ماهية الإيمان بها ، وما دليلها ، وما منزلة القرآن الكريم بينها ؟

فنقول وبالله تعالى التوفيق :

أولاً : تعريف الكتب :

الكتب جمع كتاب ، والكتاب : مصدر كتب يكتب كُتِبَ وكتاباً وكتابة ، إذا جمع الحروف ، وألف بينها ، فكانت كلمات ذات معان خاصة ، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعانى جملاً مفيدة ، تسمى كلاماً .

فالكتاب إذاً هو ما حوى كلاماً مفيداً ، ذا أغراض متعددة ، وكتب الله تعالى التي يجب الإيمان بها : هي الصحف التي حوت كلام الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكانت كتباً ، أو بقيت صحفاً لم تجمع ، ولم يتكون منها كتاب خاص .

فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام . والكتب كالتوراة والزبور والإنجيل . والقرآن العظيم .

حقيقة الإيمان بالكتب :

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن ، التصديق

الجارم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام ، فجمع ودون فكان صحفاً مطهرة وكتباً قيمة . فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً ، وما لم يعرف آمن به إجمالاً .

على أى دليل آمن المؤمن بالكتب ؟

إن المؤمن لم يكن فى حاجة إلى أدلة عقلية ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيماناً راسخاً ، لا تزعزعه أعاصير الشك ، ولا تعصف به عواصف الآوهام مهما كانت عنيفة قوية لأنه يبنى دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة ، ويتحاشى دوماً أن يؤمن بإيمان التقليد والتبعية ، فلذا سنبذكره هنا بأصل كل الأدلة وأم البراهين ليقم اعتقاده بالكتب عليهما ، كما أقام ويقم كل معتقداته عليهما إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان والبرهانان اللذان لا يغلبان ، وهما ذليلاً الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب وآمن به كل عقلاء البشر .

فمن دليل الأثر :

نكتفى بأثر واحد وهو « القرآن الكريم » الكتاب الذى دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود مُنزِّله ، وعلى علمه وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ، ودل على نبوة من أنزل عليه وعلى رسالته ، وعلمه وحكمته وفضله ، وشرفه ، وكماله ، كما دل بالتالى على ذات نفسه ، بأنه كتاب الله ، ووحيه ، وتنزيله ، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه ، حيث ذكر صحف إبراهيم ، وتوراة موسى وزبور داود ، وإنجيل عيسى عليهم السلام ، وذكر طرفاً عما جاء فيها من أخبار وأحكام ، كما قرر أن لله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شيء .

وبعد : فإى أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى؟ إن من يصغى إلى صوت العقل ويستمع إلى شهادة الفطرة ويحكم شواهد الوجدان البشرى ، ويرضى بحكمها ، لا يسعه أبداً غير

الإيمان بالله رباً ، وبمحمد ﷺ رسولا وبالقرآن إماماً وحكماً ، وبالإسلام شرعاً وديناً . كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التي لا أرى ما هو أعظم منها في باب الدلالات على اختلافها وتنوعها ، إذ القرآن - وهو كتاب معجز - قد حوى علوماً ومعارف لم يتأت للبشر أفراداً وجماعات وأئمة وشعوباً الإتيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم الثاني « الجن » والتحدى ما زال قائماً في قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِّمَنِ احْتَمَبَتِ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١)

وان دلالة القرآن على ما ذكرنا دلالة عقلية منطقية ، لا ترد بحال ، وبرهان عقلي لا يغلب بآخر وأن كل من أراد أن ينفي عن القرآن دلالة العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط في إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهي :

* وجود كلام بدون متكلم - وجود علم بدون عالم - وجود رسالة بدون رسول - وجود نبوة بدون نبي ولا منبئ - وجود دلالة بدون دليل - وجود أثر بدون مؤثر .

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفاً ، وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات ويقول بتجويز هذه المستحيلات الستة ؟ اللهم لا .

• دليل الخبر :

ما الذي نوره من الأخبار وهي متكررة متواترة ؟

إن العاقل الحي من الناس ليخجل إذا أراد أن يدل على وجود البديهيات العقلية ، والضرورات الكونية ، أرايت لو قام أحد في وسط جمع حاشد من الناس ، يدل لهم في حماس على وجود الشمس والقمر والارض والسماء ، أو على حاجة العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، أو المريض إلى الدواء ، والخائف إلى الامان ، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟

إذا فإن حال من نصب نفسه للناس يدل لهم على أن الله تعالى قد أنزل كتاباً ، أوحاهما إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب ، وعملوا بها ، وانتفعوا بهديها ، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشري ومنذ آلاف السنين لأعجب من حال الاول ؟ والله المستعان .

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هي أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان : هي أخبار الله تعالى الخلاق العليم ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ يقول تعالى في تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ليحكم بين الناس :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

لِتُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ ﴾ (١)

ويقول في الامتان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه : ﴿ وَأَنْزَلَ

اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (٢)

ويقول فى الإخبار عن توحيده فى ألوهيته ، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصداقاً لما بين يديه من الكتب التى سبقته وإنزال التوراة والإنجيل والفرقان :

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ١ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٢ مِنْ قَبْلُ
هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ٣ ﴿١﴾

ويقول فى تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله ، وإتيانه داود زبوراً ، وتكليمه موسى تكليماً ، وفى بيان الحكمة من إرسال الرسل :

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْيُسُفُفِ ٤ وَالْإِسْمَاعِيلِ ٥ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْإِسْمَاعِيلَ ٦ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ٧ وَآدَمَ ٨ وَنُوحًا ٩ وَرُسُلًا قَدْ
قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٠
رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ١١
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٢﴾

ونكتفى بهذا القدر من إخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله

(١) سورة آل عمران الآيات ١ - ٤

(٢) سورة النساء الآيات ١٦٣ - ١٦٥

«القرآن الكريم» فإن فيه أخبار الله تعالى المصراحة بوحيه وكتبه وبأسماء كتبه وأسماء رسله الذين أوحى إليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، الأمر الذي لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد في نفس إنسان في شأن الكتب الإلهية ، ووجوب الإيمان بها ، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام وشرائع وآداب (١) .

أدلة وجوب الإيمان بالكتب الإلهية ، وكونه ركن من أركان الإيمان :

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية واجب شرعى ، لأن الله تعالى أمر به أمراً جازماً لا يقتضى إلا طاعة الله تعالى فيه ، وتحريم معصيته ، إذ قال تعالى في الأمر بالإيمان بكتبه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ
مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ سَلَكًا بَعِيدًا ﴾ (٢)

إن هذه الآية وحدها كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة ، وبالقرآن الكريم - كتاب الإسلام والمسلمين خاصة - وفى تحريم التكذيب بها ، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها مما هو وحى الله ، وكلامه سبحانه وتعالى . إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب ، بل هو أحد أركان الإيمان الستة التى لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها وإنه - الإيمان بالكتب - للركن الثالث من تلك الأركان ، التى هى بناء العقيدة الإسلامية ، كما جاء ذلك فى

(١) عقيدة المؤمن من ٢٣١ - ٢٣٥ بتصرف

(٢) سورة النساء آية ١٣٦

الكتاب والسنة ، ففي الكتاب يقول تعالى :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ﴾ (١)

ويقول سبحانه :

﴿أَمَّا الرُّسُلُ فَمَا نُزِّلَ إِلَيْهِ
مِنْ رَبِّهِمْ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (٢)

ومن السنة ، حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، والذي جاء فيه سؤال جبريل عليه السلام للرسول ﷺ عن الإيمان ، وجواب الرسول ﷺ له بأنه : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ... » (٣)

كما أن الإيمان بالكتب واجب عقلى فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها وإقامة الحجة عليهم بها ، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً فى إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التى أرسل إليها حتى يؤمنوا به ويصدقوه ، ويتبعوه ، ويعملوا بما جاءهم به ، والتشريع الإلهى نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه ويتضمنه ، ويثبت فيه ، ليبقى بعد

(١) سورة البقرة آية ١٧٧

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥

(٣) رواه السنة

وفاة الرسول الذى جاء شرعاً محفوظاً ، تعمل به الاجيال إلى المدى الذى حدد له بنسخه برسالة أخرى ، أو ينسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل ، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما .

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذى جاء به ، أو ضاع الكثير ، وحينئذ يقول الناس : بم نعبد الله ، وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبد به ؟ وتكون لهم الحجة على الله تعالى ، وهذا ما لم يردده الله تعالى حيث صرح بنفسه فى قوله :

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١)

ما عرف من الكتب الإلهية وما لم يعرف :

• إن المصدر الوحيد الذى يرجع إليه فى معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده ، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً لا يتطرق إليه معه الزيادة ، ولا النقص ، ولا التحريف ، ولا التغيير ، أو التبديل ، بحال من الأحوال ، لأنه من ساعة نزول الآيات الأولى منه ، أو السورة القصيرة أو الطويلة ، ورجال متفرون لكتابته فى سطورهم ، وحفظه فى صدورهم ، فلم يتم نزوله فى خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء ، ثم لم يمض غير زمن قصير حتى أصبح حفاظ القرآن الكريم غياً فى الصدور ، عشرات الآلاف من الرجال الأفاضل ، والنساء الفضليات واستمر محفوظاً فى الصدور ومدوناً فى السطور ، ترعاه دول وأمم وشعوب وحكومات ، وتتوارث حفظه ، ورعايته الاجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا ،

وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى إلى قرب نهاية هذه الحياة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا لَذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَآ جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزُونَ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ نَزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢)

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة : صحف إبراهيم ، وصحف موسى ، وثلاثة كتب هي : توراة موسى ، وزيور داود ، وانجيل عيسى ، عليهم السلام ذكرها في مواضع متفرقة منه : نذكر منها قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾ (٣)

والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية « التوراة » وقوله تعالى في الحديث عن اليهود :

﴿ وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ (٤)

وقوله تعالى :

(٢) سورة فصلت الآيات ٤١ - ٤٢

(٤) سورة المائدة الآية ٤٣ - ٤٤

(١) سورة الحجر آية ٩

(٣) سورة الفرقان الآية ٣٥

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَايَيْنَا دَاوُدَ دُزُورًا ۖ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

وَءَايَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ۖ ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۖ ﴾ (٣) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۖ ﴾ (٤)

فقد جاء في هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار ،
نحو قوله تعالى عن التوراة :

﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ .. ﴾ (٥)

حيث ذكرت حكماً من أحكام القصاص في الأطراف . ونحو قوله تعالى عن التوراة والإنجيل :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ
مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزٍّ أُخْرِجَ شَطْرُ قَارِزِهِ
فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُخَيِّطَ بِهِمْ
الْكُفَّارَ ۖ ﴾ (٥)

(٢) سورة الحديد الآية ٢٧

(٤) سورة المائدة الآية ٤٥

(١) سورة الإسراء الآية ٥٥

(٣) سورة الأعلى الآية ١٨ - ١٩ .

(٥) سورة الفتح الآية ٢٩

فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصف الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذى حوته هذه الآية القرآنية الكريمة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأِي
صُحُفٍ مُّوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۖ ۝٣٧ أَلَا نَزَّلُ وَإِذْهُ وَزُرُّنَا ۖ وَلَوْلَا الَّذِي
۝٣٨ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۖ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۖ ۝٤٠
ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ۖ ۝٤١﴾

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن فى صحف كل من إبراهيم وموسى : الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامة لا يحمل عنها ذنبها غيرها ، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله ، وسعى فيه نفسه ، كما أن الإنسان سوف يعرف به ، ويجزاه كاملاً غير منقوص . فهذه الكتب التى ذكرت فى القرآن الكريم بأسمائها ، وأسماء أصحابها الذين نزلت عليهم يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت مفصلة ، ويؤمن بباقي كتب الله تعالى التى لم تذكر فى القرآن مفصلة ، على سبيل الإجمال ، حيث لم يرد فى القرآن ذكر أسمائها ولا أسماء من نزلت عليهم ، وإنما ذكرت مجملة كما فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ ۝١﴾

وكما فى قوله تعالى

﴿ كَانَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

(١) سورة النجم الآيات ٣٦ - ٤١

(٢) سورة الحديد الآية ٢٥

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بِهِ
النَّاسُ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿١١﴾

فقد جاء في هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملًا فيؤمن بها المؤمن مجملًا وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم (١).

* وكذلك مما يجب الإيمان به ، الإيمان بكل ما جاء في الكتب من الشرائع ، وأنه كان واجباً على الأمم الذين نزلت إليهم كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرُّسُلُ يُشْعِرُونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ
شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي شَيْئًا
قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ١٤
وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فَأَتَى الْنَفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرْخَ قِصَاصٌ
فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١٥ وَقَتْنَا عَلَى أَثَرِهِمْ يَعْنِي ابْنُ مَرْيَمَ

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٢) عقيدة للمؤمن ص ٢٢٥ - ٢٢٨ بتصرف

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتِينَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى
وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ
(١) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٢) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم
بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ حَقِّ لِكُلِّ
جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِنْ لَيَبْذُلَكُمْ فِي مَاءٍ أَنْتُمْ تَأْتِيهِمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٣) وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَآخِذْهُمْ أَنْ يَقْتُنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ (٤)

* وأن جميعها يصدق بعضها بعضًا لا يكذبه ، كما قال الله تعالى في الإنجيل :

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ (٢)

وقال في القرآن :

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ (٣)

* وأن كل من كذب بشيء منها أو أبى عن الانقياد لها مع تعنق حظه به يكفر

(١) سورة المائدة الآيات ٤٤ - ٤٩

(٢) سورة المائدة آية ٤٦

(٣) سورة المائدة آية ٤٨

بذلك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (١)

* وأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق ، كما نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل ، قال تعالى في عيسى عليه السلام :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾
إلى قوله تعالى :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴾ (٢)

وكما نسخ كثير من شرائع التوراة والإنجيل بالقرآن ، كما قال تعالى في وصف
النبي محمد ﷺ :

﴿ وَجِئْتُ لَكُم بِالطَّبَيبِ
وَجِئْتُكُمْ عَلَيْهِمُ الْخَبْرَ ۖ وَصَّعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣)

(١) سورة الأعراف آية ٤٠

(٢) سورة آل عمران آية ٤٨ - ٥٠

(٣) سورة الأعراف آية ١٥٧

وأن نسخ القرآن بعض آياته ببعض حق ، كما قال تعالى ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ

آيَةٍ أَوْ نَسِيَهَا نَاتٍ يَخَرِّفُهَا أَوْ مِثْلَهَا ۖ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ

آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ لَّ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ ۖ ﴾ (٢)

الآيات

والناسخ والمنسوخ في آيات مشهورات مذكورات في موضعها من كتب التفسير وغيرها .

وإنه لا يأتي كتاب بعده ، ولا مغير ولا مبدل لشيء من شرائعه بعده ، وأنه ليس لأحد الخروج عن شيء من أحكامه ، وأن من كذب بشيء منه من الأمم الأولى فقد كذب بكتابه ، كما أن من كذب بما أخبر عنه القرآن من الكتب فقد كذب به ، وأن من اتبع غير سبيله ولم يقتف أثره ضل ، قال تعالى :

﴿ الْمَعْصِ ۝ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي سَدْرِكَ حَرَجٌ

مِنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم

مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۖ ﴾ (٣)

والإيمان إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل (٤) .

(١) سورة البقرة آية ١٠٦

(٢) سورة النحل آية ١٠١

(٣) سورة الاحزاب آية ١ - ٣

(٤) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الاصول في التوحيد للشيخ حافظ بن أحمد حكيم ج ٢

ص ٧٥ - ٧٧ بتصرف

نعم يجب الإيمان بجميع الكتب التى أنزلها الله عز وجل إجمالاً وتفصيلاً ،
على نحو ما سبق .

* ولكن كيف نؤمن بهذه الكتب ؟

نحن أمرنا أن نؤمن بما أنزل كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُؤُمُونَ

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١)

ولم نؤمر أن نؤمن بما بقى مما حرف ويدل . «نؤمن بما أنزل لا بما حرف وبدل» .

* فنحن مثلاً إذ نؤمن بالتوراة التى نزلت على موسى ، ونعلم أن ذلك من
الإيمان ، وقد أخبر الله أن فيها هدى ونوراً وأثنى عليها فى كتابه الخاتم فقال

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

إلا أن هذه التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام غير موجودة بالمرّة ، كما
هو مسلم من الجميع . أما التوراة المتداولة الآن فقد قام بكتابتها أكثر من كاتب ،
وفى أزمان مختلفة ، وقد دخلها التحريف .

يقول المرحوم الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى : «ومن أدلة التحريف الحسية
أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود » (٣) . وقد
أثبت القرآن هذا التحريف ، ونعى على اليهود التغيير والتبديل الذى أدخلوه على
التوراة فقال :

﴿ أَفَقَطَّمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنفَرُونَ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) سورة البقرة آية ٤

(٢) سورة الأنبياء آية ٤٨

(٣) راجع بتوسع كتابنا "نعصب اليهود" .

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

فهم تجرأوا على كتاب الله ، فحرفوه ليخفوا ما فيه من الحق ، ونسوا قدراً بما ذكرهم الله به في التوراة ، فالذى عندهم من التوراة الصحيحة هو بعضها فقط

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (١٢)

وأول دليل على صحة نقد القرآن للتوراة المتداولة ، أنها ليست كلها هي توراة موسى التي جعلها الله نوراً وهدى ، ما جاء في التوراة من وصف الله بما لا يليق بجلاله وكماله ، ففي سفر التكوين [٣ : ٢٢] « وقال الرب الإله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر » وفيه [٦ : ٦] « فحزن الرب أنه عمل الإنسان وتأسف في قلبه » .

فهل يعقل أن هذا من كلام الله ، وهل يصح أن ينسب إليه الحزن والأسف على شيء عمله . وكذلك ما جاء فيها مما يمس شرف الأنبياء ويتنافى مع ما لهم من عصمة ومكانة رفيعة وخلق متين ، فقالوا عن نوح إنه سكر وتعرى ، وعن إبراهيم أنه كذاب ، وأن لوطاً رنا بابتسيه وأنجب منهما ، وأن داود قد خان قائده وزنا بزوجه ثم قتله ، وعن سليمان أنه عبد الأصنام إرضاء لزوجته ، وعن موسى أنه خان الرسالة ، وأن هارون دعا الإسرائيليين إلى عبادة العجل . الخ . فهل ثمة دليل على التحريف أقوى من هذا ، لقد اضطر النقاد من مصلحي اليهود أنفسهم إلى الاعتراف بهذه الحقيقة وأن التوراة قد حرفت ، وقد أورد مذهبهم « حاخام باريزا أجوليان ويل » في كتاب اليهودية (٣) .

(١) سورة البقرة آية ٧٥

(٢) سورة النساء آية ٤٦

(٣) راجع يتوسع كتاب " إظهار الحق "

• وكذلك نحن إذ نؤمن بالإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام وأنه هدى ونور ، إلا أن الإنجيل قد لحقه مالمخى التوراة من التحريف ، قال تعالى :

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرَى
لَقَدْ تَأْمِرُ بَعَثَهُمْ فَكُنُوزَهُمْ فَكَّرُوا بِالْجَنَّةِ أَعْمَارًا كَبُرَتْ وَلَئِنَّمَا بَنَتْهُمُ
لِلْعَذَابِ وَالْبَغْيَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ
لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴿١٢﴾ ﴾

ويكفى لصحة التدليل على التحريف فى الاناجيل المتداولة بأيدى النصارى الآن، أنها أربعة اختيرت من نحو سبعين إنجيلاً أو أكثر ، وهذه الاناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام ، ومؤلفها معروفون وأسماءهم مكتوبة عليها ، وقد قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الاناجيل هى رأى بولس دون سائر الحوارين ودون أقرب الاقربين إلى عيسى .

وقد وجد فى مكتبة أمير من الامراء فى « باريس » نسخة من إنجيل « برنابا » وهو يخالف الاناجيل الاربعة مخالفة كبيرة ، فى أمور أساسية كقوله بالتوحيد ، ورسالة عيسى ، وعدم بنوته لله ، وإنكار صلبه ، والتصريح بالاسم الصريح فى البشارة بالنبي محمد ﷺ ، هذا والتناقض حتى بين الاناجيل المعترف بها واضح وضوح الشمس ، ليس فى السفر الواحد أو الإصحاح الواحد، بل وفى الصفحة الواحدة كذلك (٢) .

(١) سورة المائدة آية ١٤

(٢) راجع بنوع كتابنا تعصب النصارى .

* وإذا كان الأمر كذلك فما معنى تصديق القرآن للكتب السابقة ؟

أعنى إذا كان التحريف فى التوراة والإنجيل ثابتاً ثبوتاً حقيقياً لا ريب فيه بنص القرآن من جهة ، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى ، فما معنى أن القرآن جاء مصداقاً لما تقدم من الكتب الإلهية ؟

معنى ذلك : أن القرآن جاء مؤيداً للحق الذى ورد فيها ، كما سبقت الإشارة إليه ، من عبادة الله وحده والإيمان برسله ، والتصديق بالجزاء ، ورعاية الحق والعدل ، والتخلق بالأخلاق الصالحة .

وهو فى الوقت ذاته مهيمناً عليها ومبيناً ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط وتحريف وتصحيف ، وتغيير وتبديل .

وإذا انتفت هذه الأخطاء التى أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس باسم الله ظهر الحق واستبان والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْمُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ حَتَّى تُقِيمُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (١)

واقامتها لا تتحقق إلا بعد تطهيرها من الزيف (٢) .

(١) سورة المائدة آية ٦٨

(٢) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ١٤٤ - ١٤٧ . بصرف

ما هي منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى ؟

إن مما لا شك فيه - لدى العقلاء والعلماء والفصحاء - أن للقرآن الكريم منزلة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزول ، وقد تتجلى هذه المنزلة العالية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط التالية :

أولاً : كون القرآن ناسخاً لها لفظاً وحكماً ، فلا تقرأ للتعبد ، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام ، وذلك لما داخلها من تحريف ، وما أصابها من تضييع ونسيان ، ولأنها كانت شرائع خاصة ببنى إسرائيل ، أو موقوتة بزمان معين ، في الوقت الذي أنزل القرآن الكريم ليكون كتاباً للعالمين

﴿ بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ^(١)

ثانياً : كونه مهيمناً عليها رقيماً شهيداً ، فما صححه منها وأقره فيها صح وقر ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلاً عليه ليس منها ، بطل وانقضى كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ^(٢)

ثالثاً : لتعهد الله عز وجل بحفظه إلى أن يرفعه إليه ، وليس ذلك لغير القرآن فقال تعالى :

(١) سورة الفرقان آية ١

(٢) سورة المائدة آية ٤٨

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

كما قال :

﴿ وَإِنَّا لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِ نُنَزِّلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢)

في حين أن الله عز وجل استحفظ الأمم السابقة على كتبها

﴿ بِمَا اسْتُحِفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ (٣)

ولكنهم لم يحافظوا عليها ولم يحفظوها ، بل ضيعوها وحرفوها كما سبق .
أما القرآن فعلى مدى الزمان لم تستطع يد العدوان أن تحرف فيه شيئاً لزيادة أو نقصان .

رابعاً : اشتماله على كل خير ، وإرشاده لكل كمال ، وهدايته إلى سعادة الدارين ، كما أن فيه الرحمة بآثم معانيها ، تلك التي تشمل الإنسان والجان والحيوان ، والكافر والمؤمن ، والحى والميت ، وفيه الشفاء التام للعام لجميع الأمراض العقلية والنفسية والقلبية ، فيه الشفاء من الكفر والشرك والقلق والاضطراب ، والحيرة والخوف والكبر والحسد والكسل والعجز والبخل والشح والظلم والخوف كما قال تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

خامساً : فيه التبيان والبيان لكل شئ مما الإنسان في حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى ، وكذا الهداية الكاملة والرحمة التامة والبشرى بخيرى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى :

(١) سورة الحجر آية ٩

(٢) سورة فصلت آية ٤١ - ٤٢

(٣) سورة المائدة آية ٤٤

(٤) سورة الإسراء آية ٨٢

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

سادساً : فيه النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية والمبدد لساتر الجهالات النفسية ، والمبين لساتر الحقائق والاسرار الكونية ، كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (٢)

وفيه الحق الإلهي الثابت في نفسه ، المحقق الثابت لغيره من كل ما هو حق

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (٣)

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (٤)

أي متلبساً به ، مشتملاً عليه ، مؤيداً له ومقرراً .

سابعاً : فيه الذكر الإلهي الذي نغيا عليه القلوب وتطيب بتلاوته الأرواح ، وتركو بالعمل به النفوس

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكِلُونَ ﴾ (٥)

وكذا الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة ، والزاجرة عن كل رذيلة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦)

نعم للمؤمنين (٧)

(٢) سورة النساء آية ١٧٤

(٤) سورة المائدة آية ٤٨

(٦) سورة يونس آية ٥٧

(١) سورة النحل آية ٨٩

(٣) سورة الإسراء آية ١٠٥

(٥) سورة الزخرف آية ٤٤

(٧) عقيدة اللامن لامي بكر الجزائري ص ٢٤ - ٢٤٥ بصرف

ثامناً : شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها ، واحتواؤه على أعظم منهج رباني يحقق السعادة في الدنيا والآخرة : « فالإيمان به يقتضى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والاعتبار بأمثاله ، والاتعاظ بقصصه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمشابهه ، والوقوف عند حدوده ، وتلاوته آناء الليل والنهار ، والذب عنه لتحرير الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، والنصيحة له ظاهراً وباطناً بجميع معانيها » (١) .

ولم لا ؟ وإن من يتغنى الحق ويريد الوصول إلى التعاليم الإلهية الصحيحة لا يجد أمامه غير القرآن الكريم فهو الكتاب الذي حفظت أصوله وسلمت تعاليمه ، وتلقته الأمة عن محمد ﷺ عن جبريل ، عن الله ، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله وأنه الجامع لأسمى المبادئ وأقوم المناهج ، وخير النظم ، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات ، والآداب والمعاملات ، والنظم وأنه الكفيل بخلق الفرد الكامل والأسرة الفاضلة والمجتمع الصالح ، والحكومة العادلة ، والكيان القوى الذي يقيم الحق والعدل ويرفع الظلم ويدفع العدوان ، وأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الخلافة ووراثة الأرض (٢) .

﴿ قَدْ

جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِمْ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ (٣)

(١) معارج القبول ج ٢ ص ٧٨ يتصرف

(٢) العقائد الإسلامية ص ١٤٧ - ١٤٨ يتصرف

(٣) سورة المائدة آية ١٤ - ١٥

تاسعاً : هذا القرآن هو الروح التي تتوقف، عليه حياة الإنسان الفاضلة الكريمة، وأن الناس بدون أن تسرى فيهم الروح القرآنية أموات حقاً لا يتفكرون بوجودهم ولا بحياتهم المادية ، قال تعالى في هذا :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن
جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَفِي هُدًى إِلَى
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ (١) ﴾

ولكن من الذى يتففع بالقرآن بما فيه من خير وهدى ونور وبيان ؟ إنهم من اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

١ - **الإسلام :** بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه ووجهه ، طالباً رضاه ، منفذاً لأوامره ، متجنباً نواهيه وما يسخطه الله من اعتقاد وقول وعمل :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝ (٢) ﴾

٢ - **الإيمان :** بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول ﷺ ، ويؤمن إيماناً خاصاً بما فى القرآن من الهدى والخير ، يحمله على تعرفه عليه ومدارسته والعمل بما فيه

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

(١) سورة الشورى آية ٥٢

(٢) سورة النحل آية ٨٩

وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾

٣ - **الإحسان** : بأن يحسن المرء في إيمانه وإسلامه ، فيعيش يراقب الله تعالى في كل ما يأتي ويذر ، وما يقدم وما يؤخر ، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته ويراقبه في محابه فيأتبها ، ومساخطه فيجتنبها

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ ١ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

٤ - **التقوى** : بأن يتقى الله تعالى في أن يشرك به أو أن يعصيه ، بترك ما أوجب عليه ، أو انتدبه إليه ، أو بفعل ما حرمه عليه ، أو كرهه له

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)

* **وكلمة أخيرة** : إن من استكمل هذه الصفات ، وحققها فقد استوجب

كل ما في القرآن من خير وهدى ، وتحقق له ذلك كاملاً ، فحصل له الشفاء في صدره وبدنه ، والرحمة في قلبه ، والنور في بصيرته ، والذكر والموعظة في قلبه والبيان في لسانه ، والحق في حكمه ، والبشرى في حياته وآخرته . وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم يتففع بما في القرآن من الهدى والخير ، وليس ذلك عائداً إلى أن القرآن نفذ منه هداة وخيره اللذان كانا فيه ، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه ، وإن لذلك مثلاً نضربه : هو وجود مريض يوصف له دواء نافع ، ويقدم له ، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله فيبقى الدواء في خزانته ، ويبقى هو يعاني من آلام مرضه إلى أن يكره على استعمال الدواء فيشربه ، فيشفى

(١) سورة يونس آية ٥٧

(٢) سورة لقمان آية ٢ - ٣

(٣) سورة البقرة آية ٢

من مرضه ، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يعاني من أسقامه وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت .

فهل الذنب ذنب الدواء ؟ والجواب : لا إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواء وهو بين يديه ، فكان حاله كحال من قال :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهورها محمول

أ . هـ (١)

مبحث : هل القرآن مخلوق ؟

قال صاحب العقيدة الطحاوية : « ولا نجادل في القرآن ونشهد أنه كلام رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، فعلمه سيد المرسلين ، محمداً ﷺ ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين ، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين »

فقوله : ولا نجادل في القرآن يحتمل أنه أراد : أننا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، بل نقول : إنه كلام رب العالمين .. إلخ كلامه ، يحتمل أنه أراد : أننا لا نجادل في القراءة الثابتة ، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح وكل من المعنيين حق .

وقوله : ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين ، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أن كلام الله بالحقيقة غير مخلوق ، بل قوله : ولا نخالف جماعة المسلمين ، مجرى على إطلاقه : أننا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه ، فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة ^(١) .

وبالجملة ، فإن أهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن كلام الله غير مخلوق ، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات ، أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً ، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وأن نوع الكلام قديم ^(٢) .

(١) العقيدة الطحاوية ص ٢٩٢ - ٢٩٤ بصرف

(٢) العقيدة الطحاوية ص ١٢٨

والذى تولى كبر هذه الفتنة « أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى » الذى كان وزيراً للمأمون ، فبدأ فى إشعال هذه الفتنة عام ٢١٨ هـ فكتب باسم المأمون إلى العلماء ليقولوا بخلق القرآن تحت قهر السلطان ، فأبى « أحمد بن حنبل » أن يخضع فحملوه مقيداً إلى المأمون ، ومعه « محمد بن نوح » على بعير ، فلما كان ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب فقال لأحمد : « يا هذا ، أنا وافد الناس ، فإياك أن تحييهما إلى ما يدعونك إليه ، فتحمل أوزارهم إلى يوم القيامة » فلما اقترب من جيش الخليفة ، جاء خدام وقال : يعز علي يا أبا عبد الله ، أن المأمون قد سل سيقاً لم يسله من قبل ذلك ، فجشى أحمد على ركبتيه ورمى بطرفه إلى السماء وقال : « سيدى غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل » فجاءهم الصريخ بموت المأمون . . قال أحمد : ففرحنا

وولى الخلافة المعتصم ، فردوهما إلى بغداد ، ومات محمد بن نوح فى الطريق ، ودخل أحمد بن حنبل السجن ببغداد ومكث به (٢٨) « ثمانية وعشرين شهراً » ثم خرج إلى الضرب بين يدى المعتصم ، وأصر أحمد أن كلام الله غير مخلوق ، ومن قال القرآن محدث فهو كافر .

وأصيب أبو دؤاد بالفالج فى جلده وفرح الكثير من الناس لمرضه . واستمرت محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤ « أربع عشرة سنة » وقد ثبت الله تعالى . وقد قال هلال بن العلاء : « لولا أن ثبت أحمد فى الفتنة لكفر الناس » وقيل أن سبب الفتنة النصارى الذين كانوا فى حاشية البيت الأموى ، وعلى رأسهم يوحنا الدمشقى الذى كان ييث بين المسلمين أن القرآن ذكر أن عيسى بن مريم كلمة الله لقأها إلى مريم فتكون كلمته القديمة فيسألهم أكلمته قديمة أم لا ؟

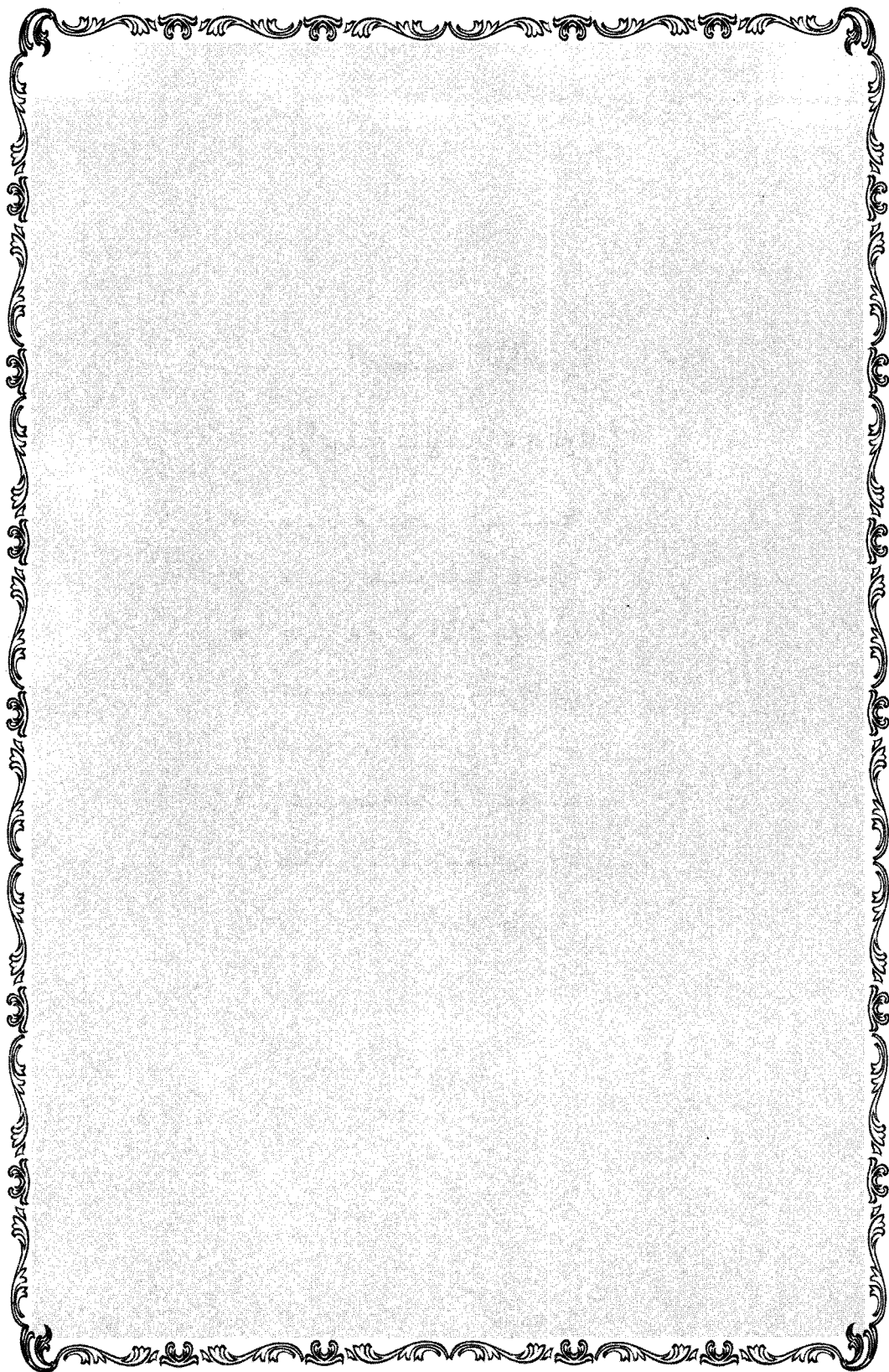
فإن قالوا : لا فقد قالوا : إن كلامه مخلوق ، وإن قالوا قديمة ، ادعوا أن عيسى قديم ، ولا شك أن ذلك تليس لأن معنى كلمة الله ، أن الله خلقه بكلمة منه كما نص على ذلك فى آيات أخرى لا أنه ذات الكلمة (١) .

(١) القنديل فى فقه الدليل لأبى المنذر عبدالحق بن عبد اللطيف ج ١ ص ٤٦ - ٤٧ بتصرف .

الباب الثالث

الإيمان بالأنبياء والرسل

- * ما معنى النبوة
- * من هم الرسل
- * مؤهلات الأنبياء
- * صفات المرسلين
- * معنى الإيمان بالرسل
- * عصمة الأنبياء
- * خاتم الأنبياء محمد ﷺ
- * من ثمرات الإيمان بالرسل



الركن الرابع الإيمان بالأنبياء والرسل

ما معنى النبوة لغة وشروعاً :

النبوة لغة : اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره ، ومن قولهم : نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس ، أو هي اسم مشتق من أنبا فلان غيره ينثب إنباء ، إذا أخبره بخبر ذي شأن ، ولهذا يقال النبوة بالهمزة بعد الواو ، وبها قرأ ورش عن نافع « آتيناكم الكتاب والحكم والنبوة »^(١) وقرأ حفص عن عاصم النبوة بواو مشددة ، ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه ، وذلك بقلب الهمزة واواً ، وإدغامها في الواو ، وهو إعلال معروف عند النحاة

والنبوة شرعاً : هي إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته ، والإعلاء من شأنه ، بإنبائه بالروحي الذي أراده له ، أو له ولغيره .^(٢)

والنبي : ذكر من بنى آدم ، أوحى الله تعالى إليه بأمر ، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول ، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول ، هو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحى إليه ، والنبي من أوحى إليه بشيء ولم يؤمر بإبلاغه ، لاختصاصه به دون غيره من الناس . وعليه ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً .

أو أن النبي من أمره الله أن يدعو إلى شريعة سابقة ، دون أن ينزل عليه كتاباً أو يوحى إليه بحكم جديد ناسخ أو غير ناسخ ، وأما الرسول فهو من بعثه الله إلى قوم وأنزل عليه كتاباً ، أو لم ينزل عليه كتاباً ، لكن أوحى إليه بحكم لم يكن في شريعة من قبله ، وعلى هذا فكل رسول نبي ، وليس العكس ، وهذا هو الراجح .

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٩ .

(٢) حاشية مصطلح الديبر على العقائد ص ٣٦

الرسول في التاريخ :

لم تخل أمة من الأمم ، ولا زمان من الأزمنة من دعوة نبي أو رسالة رسول ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (١)

وكذا قال : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٢)

وكذلك : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ (٣)

ولذلك فإن الرسل كانوا عدداً كبيراً وجمّاً غفيراً ، لا يعلم عددهم إلا الله ، غير أننا لا نستطيع أن نحزم بعدد معين ، لا نزيد عليه ، ولا نقص منه ، وذلك لعدم ثبوته عن الرّوح الإلهي ، والخبر النبوي الصحيح ، ومعرفة عددهم أمر لا ينبغي عليه تكليف ، فهو علم لا يتفح وجعل لا يضر .

ولكننا نوقن بأن الأنبياء والرسل بدءوا بآدم أبي البشر عليه السلام ، كما بدأ الرسل بنوح عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٤)

وكما جاء في حديث الشفاعة الصحيح : فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول رسل الله . . . (٥) هذا وعامة من ذكر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم فيما يعرف بالشرق الأوسط . منها بعثوا وفيها عاشوا مع أقوامهم ، وفيها ماتوا ودفنوا .

(٢) سورة الرعد ، آية ٧

(٤) سورة النساء آية ١٦٣

(١) سورة فاطر ، آية ٢٤

(٣) سورة النحل ، آية ٣٦

(٥) رواه البخاري ومسلم بتمامه

فمثلاً : إبراهيم عليه السلام بُعث بالعراق ، وهاجر منها إلى أرض كنعان فتنقل بين الحجاز والشام ، وإسماعيل عليه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة . وإسحاق كان بالشام وكذا يعقوب إلا أنه هاجر إلى مصر ، وكذا يوسف عليه السلام الذى عاش بمصر حتى مات بها ، وموسى وهارون عاشا بمصر ، وداود وسليمان فى أرض المقدس ، وعيسى ولد فى بيت لحم وعاش بأرض المقدس ، ثم بعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ بمكة التى ولد بها وعاش فيها إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز إلى أن توفى بها ، وبها قبره الشريف ﷺ (١) .

مؤهلات النبوة :

الذى ينبغى أن يعلم هنا أن النبوة لا تأتى عن طريق الكسب والاجتهاد أبداً ، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية ، وتخلّى عن سائر الحظوظ النفسية ، وعن كل الرغبات والشهوات ، وسائر متع الحياة ولذائدها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبياً أو رسولاً بحال من الأحوال .

إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين ، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبداً من عباده ، فيحفظه من التلوث النفسى ، والضلال العقلى ، والفساد الخلقى ، والانحراف الفطرى ، ويضفى عليه الكمالات النفسية والعقلية والخلقية ، ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف .

ومن المؤهلات للنبوة وتلقى الوحي الإلهى :

أولاً : المثالية :

ونعنى بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة ، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس .

(١) انظر بنو س : عقيدة المؤمن لأبى بكر الخضر : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ - ٢٦٩

ثانياً : شرف النسب :

إن عامل الوراثة يتنقل - حسب سنة الله الإلهية - من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون في أشرف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام : السرف عن الدنيا الخلقية ، والتتزه عما يُخلُ بالمرءات ، ويهبط بالقيم البشرية ، من كل سلوك شائن منحرف ، تكرهه الطباع البشرية السليمة وتشمئز منه النفوس الكريمة .

ثالثاً : عامل الزمن :

إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين ، تحتم بعثة نبي ، وإرسال رسول وتقتضيه ، ومن ذلك وجود فراغ روى تسبب عنه فساد اجتماعي كبير ، أو فساد عام في الأرض تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد ، وذلك لما غرز الله تعالى في الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية ، وقربها كلما عم الشر وعظم الفساد ، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء وتطلعه إليه ^(١) .

والناظر في هذه المؤهلات يراها وضحت في كل الأنبياء والرسل ، لكنها كانت أكثر وضوحاً وأسطع ضياء في النبي ﷺ ، إذ اكتملت فيه بما لم تكتمل في نبي غيره أو رسول سواه صلوات ربي وسلامه عليه ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

صفات الأنبياء :

إن للمؤهلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد في أحدهم أبداً ، إذ هي واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده .

(١) عقيدة المؤمن ص ٢٥٩ - ٢٦١ بتصرف

ومن تلك الصفات :

أولاً الصدق :

صدق النية والإرادة ، صدق القول ، والعمل ، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق ، وهو الكذب والنفاق ، أو الإهمال واللامبالاة ، والمتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة ويؤمن بها .

ثانياً : الأمانة :

الأمانة في كل شيء ، في القول والعمل ، في الحكم والقضاء ، في الحديث والنقل في الرواية والتبليغ ، في السر والعلن معاً ، إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهي الخيانة بحال من الأحوال ، فلا خيانة فيهم أبداً ، ولو في أقل الأشياء وأتفهاها ، ومتى وجد شيء من الخيانة ، فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً .

ثالثاً : التبليغ :

والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه ، فلا يخفى منه شيئاً ، ولا يكتمه بحال فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحى إليه ، وأمر بإبلاغه إلى الناس ، والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين ، ويستحيل في حقهم ولا يتأتى لهم ، لأن الله تعالى أهلهم للبلاغ عنه ما أراد له عباده من الهدى والخير ، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة ، وانتفت الرسالة .

رابعاً : الفطنة :

إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب ، بل هي مع ذلك : رقة الشعور وصفاء الذهن ، ورهافة الحس ، وصدقه وسرعة البداهة ، على حد قول حسان بن ثابت في النبي ﷺ :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأنيك بالخبر
 إن الفطنة من المؤهلات لتلقى الوحي ، والأمانة عليه ، وكذا التبليغ به ،
 والصدق فيه ، فالغباء ، وبلادة الحس ، وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة وشرف
 التلقى عن الله تعالى ، كما يستحيل في حقهم الكذب والخيانة والكتمان^(١) .
 هذا ، وإن هذه الصفات التي توفرت في الأنبياء والمرسلين ، لهي قد بلغت
 أوجها وكمالها في النبي محمد ﷺ ، كما ستعلمه .

ما معنى الإيمان بالرسول ؟

ومعنى الإيمان بالرسول هو التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة
 رسولا ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بما يعبد من دونه ،
 وأن جميعهم صادقون مصدقون ، بارون راشدون كرام برة أتقياء أمناء هداة
 مهتدون ، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به ، فلم يزيدوا فيه ولم ينقصوا منه ،
 فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، وأنهم كلهم كانوا على الحق المبين ، والهدى
 المستبين .

اتفقوا جميعاً في كلمة التوحيد وأصول الدين ، وأما فروع الشرائع من
 الفرائض والحلال والحرام فقد تختلف ، فيفرض على هؤلاء ما لا يفرض على
 هؤلاء ، ويخفف على هؤلاء ما يشدد على أولئك ويحرم على أمة ما يحل
 للآخرى ، وبالعكس ، لحكمة بالغة وغاية محمودة قضاهما ربنا عز وجل ، لاختلاف
 العقول والأفكار ، وتنوع المدارك والأفهام ، وتغاير الأزمنة والامكنة ، قال تعالى :

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

وما ذلك إلا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَاكُمْ ﴾^(١)

(١) سورة المائدة ، آية ٤٨ ، والأنعام ١٦٥

وكذا ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكْمَ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢)

وكذا الإيمان بهم يقتضى الإيمان بكل نبي ورسول ، فالإيمان بجميعهم متلازم ، من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى ، وبجميع الرسل عليهم السلام .
ولذلك وجب الإيمان بالأنبياء والرسل على الإجمال والتفصيل .

الإيمان بالوحدانية وإجمالاً وتفصيلاً

أما إجمالاً : بأن يؤمن المرء بكل من نبأ الله من نبي ، وبكل ما أرسل من رسول ممن عرف نبوتهم ورسالتهم ومن لم يعرف .
وذلك لقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ
مِنْ قَبْلُ﴾ (١)

وكذا قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ
مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ
وَرُسُلِهِ لَا نَعْرِفُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ
رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَأَنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣)

(١) سورة النساء آية ١٣٦

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٨٥

(٣) سورة النساء ، آية ١٥٢

فلهذه الآيات وغيرها يؤمن المؤمن يرسل الله تعالى ، ولا يفرق في الإيمان بهم ، بين رسول ورسول منهم ، كما فعل اليهود والنصارى ، حيث آمن اليهود بأنبياء بنى إسرائيل ، وكفروا بعيسى بن مريم ومحمد ﷺ . ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ ، وقد كفر الله تعالى وتوعد بالعذاب المهيمن من يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض ، في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَذِرُكَ بِكَفْرُوكَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيُرِيدُونَ أَن يُقَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ
بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَسْخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ (١) ﴾

وأما تفصيلاً : بأن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلياً فمن عرفهم عن طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل .

فيجب الإيمان بخمسة وعشرين نبياً ورسولاً ، قد ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم وهم : آدم ، وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، يوسف ، وشعيب ، وأيوب ، ويونس ، وموسى وهارون ، وإلياس واليسع ، وذو الكفل ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .
وقد ذكروا في القرآن الكريم ، منهم ثمانية عشرة في آية

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ۝ ﴾

ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ
 حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
 هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى
 وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى
 وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا
 وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾

من سورة الأنعام (١)

وذكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن الكريم وهم : آدم ،
 وإدريس ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وذو الكفل ، وخاتمهم محمد ﷺ .

ماهية الإيمان بالرسول

كما يجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله إلى الخلق لتبشيرهم وإنذارهم ،
 تبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته إن آمنوا به وبرسله وأطاعوه ، وإنذارهم من
 غضب الله وعقابه وناره إن كفروا به وعصوا رسله قال تعالى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَأَمَّنْ
 ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٤﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٣ - ٨٦

(٢) سورة الأنعام ، آية ٤٨ ، ٤٩

كما يجب علينا أن نؤمن بأن جميع هؤلاء الرسل بعثهم الله لتحقيق غرض أساسي واحد هو عبادة الله عز وجل وإقامة دينه وتوحيده في ربوبيته والوحيته وأسمائه وصفاته ، فقد قال سبحانه

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١)

وقال أيضا :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٣)

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله أدى أمانته وبلغ رسالته على الوجه الاكمل وبينها بيانا واضحا شافيا كافيا .

ويجب علينا طاعتهم ، وعدم مخالفتهم ، لان ذلك من طاعة الله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (٤)

وقال أيضا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٥)

(٢) سورة الشورى ، آية ١٣

(٤) سورة النساء ، آية ٨٠

(١) سورة الانبياء ، آية ١٥

(٣) سورة النحل ، آية ٤٠

(٥) سورة النساء ، آية ٦٤

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علماً وعملاً ، وأصدقهم ، وأكملهم أخلاقاً ، وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، وأنه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانة والكتمان والتقصير في التبليغ ، وعن الكبائر كلها والصغائر ، وقد تقع منهم ذلات أو عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات كما وقع لآدم عليه السلام في أكله من الشجرة على وجه النسيان ، ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها .^(١)

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعاً كانوا رجالاً من البشر ، فلم يكونوا من الملائكة ولم يبعث الله أنثى ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾^(٢)

ونؤمن أن الله سبحانه لم يخصص بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية ، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال الذين يأكلون ويشربون ، ويمشون في الأسواق وينامون ، ويجلسون ، ويضحكون ، ولهم أزواج وذرية ، ويتعرضون للأذى ، وتمتد إليهم أيدي الظلمة وينالهم الاضطهاد ، وأنهم يموتون ، وقد يقتلون بغير حق ، وأنهم يتألمون ، ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية بين الخلق ، وقد دل على ذلك كثير من النصوص ، منها قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَقْلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

(١) انظر مبحث عصمة الأنبياء .

(٢) سورة الأنبياء آية ٧

(٣) سورة آل عمران . آية ١٤٤

مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿١١﴾

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً

وقوله تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّامِ الطَّعَامِ ﴿٣﴾

وقد قال رسول الله ﷺ : « ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأنزج النساء » (٤) .

وكان ﷺ « يمرض ويتالم ، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش ، والغضب والضجر والتعب ، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه » (٥) .

ونؤمن أنهم لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية ، فلا يتصرفون فى الكون ، ولا يملكون النفع أو الضرر ، ولا يؤثرون فى إرادة الله تعالى ، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه . قال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَبَرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لِّقَوْمٍ هُمُومُونَ ﴿٦﴾

وقال أيضا

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ

فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٧﴾ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ ﴿٧﴾

(١) سورة الفرقان ، آية ٢٠

(٢) سورة الرعد ، آية ٢٨

(٣) سورة المائدة ، آية ٧٥

(٤) أخرجه البخارى فى أول كتاب النكاح

(٥) راجع سيرة النبى ﷺ ، وه الشماثل النبوية للترمذى ، وه الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ، وغيرها .

(٦) سورة الأعراف ، آية ١٨٨

(٧) سورة الجن ، الآية ٢٦ ، ٢٧

وإنما خصهم الله عز وجل بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق تؤهلهم لتلقى الرُوحى والاضطلاع بأعباء الرسالة ليكونوا قدوة للناس وأسوة ، يقتدى بهم فى أمور الدين والدنيا ، فيجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله معصومون عن أية نقيصة تقدر فى دينهم وطاعتهم لله جل وعلا ، أو فى مقدرتهم على تبليغ الرسالة التى حملوها ، فقد قال سبحانه فى حقهم :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَاهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ ۝٨١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلَهُمْ أَقْنَدَهُ ۝٨٢﴾

فهم قد كملهم الله سبحانه فى الأمانة والصدق والفتانة والتبليغ وغيرها من الأخلاق التى لا بد منها للقيام بالحمل الذى حملهم الله إياه ، وبالمسئولية التى أناطها بهم ، وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق ، فقال عز شأنه عن إسماعيل عليه السلام :

﴿ إِنْ تَوْكَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٨٣﴾

وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٨٤﴾

إلى غير ذلك من الآيات الربانية التى شهدت لهم بالصدق والهدى . ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الباهرات والآيات الظاهرات الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى ،

(٢) سورة مريم ، آية ٥٤

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٩ ، ٩٠

(٣) سورة مريم ، آية ٤١

والمعجزات هي ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من خوارق العادات التي يتحدثون بها العباد ، فنؤمن بكل ما ذكر في القرآن الكريم منها ، وبما وردت فيه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ وهذا القدر من المزايا يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل ، ونؤمن مع هذه المماثلة أن الله فضل بعضهم على بعض ، لقوله عز من قائل : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۝ (١) ﴾

وينبغي أن نعتقد أن أفضل الرسل هم أولو العزم منهم ، وهم « نوح وإبراهيم ، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، كما ذكرهم الله عز وجل في آيتين : فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ (٢) ﴾

وأيضاً : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۝ (٣) ﴾
ونؤمن أن أفضل الخلق على الإطلاق نبينا محمد بن عبد الله ﷺ ،

وقد فسر بعض السلف قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۝ (٤) ﴾ بأنه سيدنا محمد ﷺ وفي ذلك أحاديث صحيحة منها : ما صح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم يوم

(١) سورة البقرة ، آية ٢٥٣

(٢) سورة الاحزاب ، آية ٧

(٣) سورة الشورى ، آية ١٣

(٤) أنظر تفسير الطبري ج ٤ ص ٣٧٨

القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع^(١) وغيره من الأحاديث التي تدل بوضوح على أن محمداً بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم ، فهو عبده المصطفى ونبيه المجتبي ، ورسوله المرتضى ، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الاتقياء ، وسيد المرسلين ، وحبيب رب العالمين ، وكل دعوى النبوة بعده فغبي وهوى وضلال ميين^(٢) .

وسنفضل القول عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى^(٣) ، أ.هـ^(٤) .

(١) أخرجه مسلم وغيره .

(٢) العقيدة الطحاوية

(٣) مبحث النبي محمد ﷺ

(٤) راجع بتوسع : معارج القبول ج ٢ ص ٧٨ - ٨٢ ، والإيمان أركانه حقيقته . د . محمد نعيم ياسين ص ٢٨

- ٤٤ ، والشرع الزكية في العقائد السلفية ص ١٨١ - ١٩١ .

مبحث فى « عصمة الأنبياء »

الرسول اصطفاهم الله واختارهم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصى ، صغيرها وكبيرها

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ ﴾ (٢)

وحلّاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة ، والتفانى فى الحق ، وأداء الواجب فمنهم الصديق :

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ (٣)

ومنهم من اصطّعه الله لنفسه

﴿ وَالْقَيْدُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (٤)

﴿ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنُنْفِيسَ ﴾ (٥)

ومنهم من هو بعين الله ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٦)

ومنهم من اجتبه الله وعلمه

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦١

(٤) سورة طه ، آية ٣٩

(٦) سورة الطور ، آية ٤٨

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٣

(٣) سورة مريم ، آية ٤١

(٥) سورة طه ، آية ٤١

تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ
كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١﴾

وبعد أن ذكر الله جملة من الانبياء في سورة مريم قال :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ
نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا
إِذْ نَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (١)

وهم وإن تفاوتوا في الفضل إلا أنهم بلغوا الغاية من السمو الروحي والصلة بالله

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ
مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۝ ﴾ (٢)

وهكذا نجد النصوص الكثيرة الواردة في القرآن بشأن الانبياء والرسل تضيفي
عليهم من الطهر والنزاهة والقداسة ما يجعل منهم النموذج الحى والصورة المثلى
للكمال الإنسانى .

ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا معصومين من التورط فى الإثم ومنزهين عن

(١) سورة يوسف ، آية ٦

(٢) سورة مريم ، آية ٥٨

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٥٣

الوقوع فى المعاصى فلا يتركون واجباً ، ولا يفعلون محرماً ، ولا يتصفون إلا بالاخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة ، والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقرر لهم ، والله سبحانه وتعالى هو الذى تولى تاديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم ، حتى كانوا قمماً شامخة وأهلاً للاصطفاء والاجتباء

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنشَأْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَاهَا قَوْمًا لَّا يَسْوَاهَا بَكُفْرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنَاهُمْ أَقْنِدْهُ ۝ (١) ﴾

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَتَائِعِيدِينَ ۝ (٢) ﴾

وكذلك :
﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَتَاخِشِعِينَ ۝ (٣) ﴾

فهذه الآيات أدلة بينة على مدى الكمال الإنسانى الذى أفاضه الله على أنبيائه ورسله ، ولو لم يكونوا كذلك لسقطت هيبتهم فى القلوب ، ولصغر شأنهم فى أعين الناس ، وبذلك تضيع الثقة فيهم ، فلا ينقاد لهم أحد . وتذهب الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق ، بل لو فعلوا شيئاً مما يتنافى مع الكمال الإنسانى بأن يتركوا واجباً ، أو يفعلوا محرماً ، أو يرتكبوا ما يتنافى مع الخلق الكريم لكانوا قدوة سيئة ولم يكونوا مثلاً علياً ومنازات هدى ۝ (١)

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٧٣

(١) سورة الأنعام آية ٨٩ ، ٩٠

(٣) سورة الأنبياء ، آية ٩٠

(٤) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ١٥٧ - ١٥٩

شبهات اثبتت حول عصمة الأنبياء

حاول بعض المغرضين الذين أرادوا تشويه صورة أفضل المخلوقات وهم الأنبياء والرسول - أن يستغلوا بعض آيات القرآن الكريم التي يوهم ظاهرها أن الأنبياء ارتكبوا ما يتنافى مع عصمتهم ويشوه صورتهم ، مما يتيح للغير أن يفعل هذه الأشياء بحجة أن الأنبياء قد فعلوها ، وليس الأمر كذلك . إذ ليست هذه الآيات على ظاهرها ، أو كما يتبادر إلى الذهن ، ويتجلى ذلك فيما نذكره بالنسبة لما نسب لكل نبي فيما يلي .

(١) آدم عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (١)

فظاهر هذه الآية أن آدم عصى ربه وغوى بمخالفة أمر الله واستجابته لدعوة الشيطان ، وأن ذلك كان زلة وقع فيها .

﴿ فَأَزْهَقَ الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (٢)

ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن هذه المعصية إنما وقعت من آدم نسياناً منه لعهد الله ولم يصدر عنه هذا الفعل عن إرادة وقصد ، والله سبحانه لا يؤاخذ على الخطأ ولا على النسيان ، لأن ذلك تكليف بما لا يطاق ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، والأصل في هذه القاعدة قول الله سبحانه :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (٣)

(٢) سورة البقرة ، آية ٣٦

(١) سورة طه ، آية ١٢١

(٣) سورة الاحزاب ، آية ٥

وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (١)

والدليل على أن ما وقع من آدم كان نسياناً وعن غير عمد ، قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (٢)

أى أن آدم نسى عهد الله الذى وصاه به حين ارتكب ما نهاه عنه من الأكل من الشجرة ، ولم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه ، حيث لم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه ، وحيث لم يوجد العزم على المعصية ، فلا توجد المؤاخذة .

وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان عصيانياً نظراً لمقام آدم الذى خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأسكنه جتته ، وعلمه الأسماء كلها ، والذى شأنه هكذا يجب أن يكون يقظاً كاقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له وعهده إليه ، فهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . هذا فضلاً عن أنها كانت صغيرة وقعت منه قبل أن يجتبيه الله للنبوة .

(٢) نوح عليه السلام :

أما نوح عليه السلام فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه مع من هلكوا فى الطوفان ، مع وعد الله بنجاة ونجاة أهله . فقال :

﴿رَبِّ إِنَّا بَنَىٰ مِنْ أَهْلِى وَإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾
 ١٥ قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا
 تَسْمَعَنَّ مَا يُنْسَىٰ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّىٰ أُعْطِىْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
 ١٦ قَالَ رَبِّ إِنِّىٰ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا

تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿١﴾

فلم يكن لنوح عليه السلام علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله فسأل الله كيف هلك مع الوعد بنجاة أهله ، وابنه من أهله ، فعلمه الله أن الصلة الدينية والنسب الروحي أقوى من صلة الدم ، فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم ، فقال له معلماً إياه : « إنه ليس من أهلك » معللاً ذلك بأن عمله عمل غير صالح ، وما دام ذلك كذلك فليس هناك صلة نسبية وبذلك يتنفي نسبه من أبيه ، فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة .

وكان على نوح عليه السلام وهو الأب الثاني للبشر الذي بذل حياته لله ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله ويجاهد في سبيله ، كان عليه أن يظن لهذا المعنى وأن يدركه ، فلما لم يتبه إليه ، وغلبت عليه عاطفة الأبوة ، اعتبر ذلك نقصاً بالنسبة لمقامه الرفيع ومنزلته الكبرى التي حباه الله بها . ومن ثم فقد لجأ إلى الله أن يغفر له هذه العثرة التي لم يقصد إليها ، ولم يكن له علم بها فقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴾

١. هـ (٢)

(٣) إبراهيم عليه السلام :

إذ جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٣)

(١) سورة هود ، آية ٤٥ - ٤٧

(٢) المقائد الاسلامية ص ١٦٠ - ١٦٢ بتصرف

(٣) سورة الشعراء ، آية ٨٢

ونحن لا نعرف لإبراهيم خطيئة، والذي نعلمه أن الله قد اتخذهُ خليلاً وأضفى عليه من صفات الكمال ما هو خالق به، كما قال :

﴿ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١)

كذلك قال عنه :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا
لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢)

وطلبه من الله أن يغفر له خطيئته ليست خطيئة بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، وإنما هي ما يستشعره في نفسه من قصور في تفانيه في الله، وأداء رسالته، نظراً لمكانته السامية ومنزله الرفيعة. (٣)

وأما ما ورد بشأن كذبات إبراهيم عليه السلام في قوله :

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ (٤)

وكذلك ﴿ فَذَرْنَاهُ فِي النَّجْمِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ (٥)

وفي قوله عن زوجه « سارة » قولي أنك أختي .

كما جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة قال : « لم يكذب إبراهيم إلا

(١) سورة البقرة ، آية ١٢٠

(٢) سورة النحل ، آية ١٢٠ - ١٢٢

(٣) العقائد الإسلامية سيد سابق ص (١٦٢ ، ١٦٣) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية ٦٣

(٥) سورة الصافات ، آية ٨٨ ، ٨٩

ثلاث كذبات اثنتان منهن في ذات الله ،

قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾

وقال : بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقبل له : إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال أختي ، فأتى سارة ، فقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني . . الحديث^(١)

ورواه الإمام أحمد - مختصراً - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال : « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقوله لسارة : « إنها أختي »^(٢) والحق أن هذا ليس من باب الكذب الحقيقي الذى يذم فاعله - حاشا وكلا ، ولما - وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعارض فى الكلام لمقصد شرعى ديني ، كما جاء فى الحديث « إن فى المعارض لمندوحة عن الكذب » وكما جاء فى الحديث أيضاً « كلمات إبراهيم عليه السلام الثلاث التى قال ، ما منها كلمة إلا ماحل بها عن دين الله تعالى . . الحديث »^(٣) أى دافع بها عن دين الله ، فقول إبراهيم عليه السلام « بل فعله كبيرهم هذا » إنما عرض لهم فى القول حتى يقول « فاسألوهم إن كانوا ينطقون » وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق فيعتزفوا بأنها جماد كسائر الجمادات فيقيم عليهم الحجة :

﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ
﴿ ١١ ﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

(١) رواه البخارى بتمامه ، ومسلم ، وأصحاب السنن

(٢) رواه الإمام أحمد وهو على شرط الصحيح

(٣) رواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد

﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ

﴿٦٦﴾ أَفَلَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

إن إبراهيم عليه السلام لما سأله قومه «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» شعر بأن الفرصة قد سنحت له ليلغ مآربه وليصل إلى الحقيقة التي أراد أن يقرأ بها فبأسلوب حكيم يجيبهم على سؤالهم بأن محطم الأصنام هو كبيرهم، وأن الشاهد على فعله هو بقية الأصنام وتابع قوله «فاسألوهم إن كانوا ينطقون» فقد غضب الصنم الكبير من أن تعبدا هذه الأصنام الصغيرة، وهو أكبر منها فكسرها.

وبلا وعى ولا تفكير ينزل القوم فى هذا المنزل الذى دفعهم إليه إبراهيم فيقول بعضهم لبعض أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق، وأنتم الظالمون باتهام إبراهيم ولكن الحقيقة تصدمهم بعد ذلك فإذا بهم يطرقون برؤوسهم من الخجل ثم يعودون إلى مجادلة إبراهيم قائلين: إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق فكيف تطلب منا أن نسألها؟ حيث برزت حجة إبراهيم مدوية مجلجلة تفرع آذانهم وتفتحهم بهذا الجواب البليغ:

﴿٦٥﴾ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ

﴿٦٦﴾ أَفَلَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾

هذا والكذب هو الإخبار عن شيء على غير ما هو عليه فى الواقع مع اعتقاد المخبر أن ما قاله غير مطابق للواقع قاصداً بذلك خديعة السامع. ولم يكن كلام إبراهيم بهذا المعنى، بل فيه من التهكم والسخرية ما فيه.

(١) سورة الأنبياء، آية ٦٤ - ٦٧

(٢) سورة الأنبياء، آية ٦٦ - ٦٧

كذلك وقوله تعالى : ﴿ فَتَنْظُرْ نَظْرَةً فِي الْيَوْمِ ﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿

عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن نهان غاية الإهانة .

وقد يكون على الحقيقة أى أنا سقيم من عبادتكم غير الله ، أو أنه كان به سقم خفيف أو أنه كان سقيم الباطن والضمير ، قلق الخاطر لأفعالهم .

وأما قوله : هى أختى عن روجه ، فهى أخته فى دين الله . وقد قال لها « إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك » يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ، وقد أفصحت بعض الروايات بذلك « فقولى إنك أختى فإنك أختى فى دين الله ، وقد تكون أخته حقيقة قبل أن يحرم الزواج بالأخوات ، كما يحتمل أن تكون ابنة عمه وإطلاق الأخت على بنت العم سائغ لا تنكره اللغة .

وعلى ذلك لم يحصل من إبراهيم كذب ولا صورة كذب . (١) .

وزعم قوم أن إبراهيم عليه السلام شك فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى ، كما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَكَّنْ عَلَيْهِ وَلَئِنْ لَيْسَ لِي بِحُجَّةٍ قَالَتْ فَذْ أَرْبَعَةٌ مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٠ - ١٣٤ ، ومع الأنبياء فى القرآن الكريم عفيفي عبد الفتاح طيارة

ص ١١٢ - ١١٥

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٠

وليس الأمر كما زعموا وحاشا لخليل الرحمن أن يقع فى الشك .

وإنما كان إبراهيم عليه السلام محباً للاستطلاع ، شغوفاً بأن يرى الشيء الذى يقع عنده موقع الغرابة ، وقد علم أن الله سيحيى الموتى ويبعثهم ليوم لا ريب فيه ، ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فأحب أن يرى ميتاً عاد حياً ، ليترقى بذلك من علم اليقين إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال « رب أرنى كيف تحى الموتى » إنه يسأل عن الكيفية ولم يقل : رب هل أنت تحى الموتى؟ (١)

والحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » .

فليس المراد هاهنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف . ذلك أنه لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكوا فى أنه هل يجيئهما إلى ما سألا .

وليس فى قوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم ، لكن فيه نفى الشك عنهما ، يقول : إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فأبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس .

وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال (٢)

(١) قصص الانبياء لعبد الوهاب النجار ص ١٢٨ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٥ بتصرف

وزعم قوم كذلك بأن إبراهيم عليه السلام تظاهر بالشرك مع عبدة الكواكب في قوله عنها « هذا ربي » في الآيات الكريمة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى

إِبْرَاهِيمَ مَلِكًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَ الْكَوْكَبِينَ ﴾

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا

عَلَيْهِمْ أَنَّا بَرَآءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ ۚ إِنَّ رَبَّنَا شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ (١)

ونسارع فنقول : حاشا لنبى أن يشك فضلاً عن أن يشرك أو يتظاهر بالشرك

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (٢) ﴾

والأمر باختصار : إن إبراهيم عليه السلام اتجه إلى طريقة أخرى من طرق الدعوة في محاجة قومه وتزييف دينهم ، فأتى بها على سبيل التدرج في الإلزام ، أو المحاوراة والمداواة حتى يثبت لهم عدم صلاحية آلهتهم التي يعبدونها ، ثم يصل بهم إلى الحق والحقيقة .

لقد استطاع عليه السلام أن يبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب التي تطلع وتافل ، وتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال . لا إله إلا هو ولا رب سواه (٣) وكيف يكون هذا من فعل إبراهيم ، وربنا عز وجل يقول في أول الأمر

(١) سورة الأنعام آية (٧٥ - ٨٣) .

(٢) سورة آل عمران آية ٦٧ .

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ج ١ ص ١٢١ بتصرف .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى

إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾

وفي نهاية الأمر : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُكَ آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ۚ
ولست حجة إبراهيم وهو الذي قال الله عنه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (١)

كذلك قال

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) شَاكِرًا

لِنِعْمِهِ أَجْنِبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) وَآتَيْنَاهُ فِي

الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) ثُمَّ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥)

وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَعِيمًا مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦)

(٤) يوسف عليه السلام :

﴿ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِنَّ وَهَمَّ بِهَا ﴾

إِذْ شَرَّقَ فِيهَا النَّاسُ وَغَرَّبُوا ، وَقَالُوا فِيهَا بِالْإِسْرَاطِيلِيَّاتِ ، وَالْكَذِبِ وَالْبَهْتَانِ .
حتى زعموا أن يوسف الصديق عليه السلام جلس منها كما يجلس الرجل من

(١) سورة النحل آية (١٢-١٢٢) .

(٢) سورة الأنبياء آية (٥١) .

(٣) سورة الأعراف آية (١٦١) .

أهله بعد أن حل إزاره وأراد أن يواقعها لوما أدركه برهان ربه!! أقول : وليس في الآية ما يدل أدنى دلالة على أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة وذلك من وجوه:

١ - أن المقصود بالهم هنا الهم بالضرب والأذى ، وذلك أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها ، فاستعصم وأبى ، وقال :

﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١)

وإزاء هذا الاستعصام والتأبى والترفع عن التسفل ، همت امرأة العزيز بضربه وإلحاق الأذى به ، بعد أن عجزت عن إغرائه بكل وسيلة ، فهم هو بأن يعاملها بالمثل دفاعاً عن نفسه لولا أن رأى أن ذلك لا يليق بأمثاله من أصحاب النفوس الكيرة ، ولا سيما أن هذا البيت آواه وأكرمه ، فضلاً عن أنها سيدته التي تبنته ، وأنها زوجة رجل عظيم في أمة عظيمة .

فلولا أن رأى ذلك كله ، وهو صاحب شعور نبيل وعاطفة جياشة ، لقابلها بالمثل ، ولأذاها بالضرب المبرح ، ولكنه كذلك لا يرضى بالاستكانة ويقف ذليلاً يتلقى الضربات من امرأة أصابها جنون الشهوة الحيوانية - وهو من هو - فأثر أن يفر منها تفادياً من الحرج الذي تعرض له ، ولكنها أبت إلا أن تتابعه لثأر لنفسها منه

﴿وَأَسْتَبْقَا الْبَابَ وَفَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأُفَيَّسَ سَيْدَهَا لِدَا الْبَابِ﴾ (٢)

فكان في ذلك خلاصه .. فهذا معنى .

٢ - وقيل المراد بهم بها خطرات حديث النفس الذي تركه لله فانقلب في حفة حسنة ، كما في الحديث يقول الله تعالى « إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له

(١) سورة يوسف ، آية (٢٣)

(٢) سورة يوسف ، آية (٢٥)

حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسئته فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من أجل ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ^(١) وليس الهم كالعزم وليس العزم كالفعل .

٣ - أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا : أى ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، كقولك : قد كنت هلكت لولا أن تداركته . وقوله تعالى :

﴿ إِن كَادَتْ لَتَنْبِذِي يَدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِي ﴾ ^(٢)

وقد اختلف النحويون في تقديم الجواب ، ورأينا أنه إذا دار الامر بين أن يكون جوابًا محذوفًا وبين أن يكون متقدمًا عليها ، فلا شك أن التقديم أولى من الحذف . فهِمَّ عليه السلام امتنع لوجود البرهان عنده وهو حرصه على الطاعة واستمساكه بآداب آبائه وأخلاقهم الزكية الطاهرة وأن قوله (وهم بها) لا يصلح جوابًا لأن (لولا) لها الصدارة ، ولأن (لولا) حرف امتناع لوجود ، امتنع الهم لوجود البرهان ، كما امتنع إبداء أم موسى ما فى نفسها على ابنها لوجود «ربطنا على قلبها» . والجواب محذوف تقدم دليله على لولا .

٤ - وكيف يقع الهم من يوسف عليه السلام وهو النبی المعصوم ، فيجب أن ننظر عمن نتكلم . وكيف يقال : همَّ يوسف عليه السلام وقد شهد الله تعالى ببراءته بقوله تعالى :

﴿ إِنِّي مِّنْ عِبَادِكَ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٣)

وشهد الشيطان ببراءته بقوله

﴿ قَالَ فِعْزَكَ لَآغْوِيَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِمَّنْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٤)

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) سورة يوسف آية (٢٤) .

(٣) سورة القصص ، آية (١٠) .

(٤) سورة ص آية (٨٢ ، ٨٣) .

وشهد ببراءته الشاهد من أهل امرأة العزيز إذ قال :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ
قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتُ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ
قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ
مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ
عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (٢٩)

وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن بقولهن :

﴿ حَسْبَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٣٠)

وشهدت ببراءته زوجة العزيز بقولها :

﴿ أَلَيْسَ لَكَ خَصَمٌ أَحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣١)

وشهد لنفسه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٢)

وقال ﴿ هِيَ رَأَوْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ (٣٣)

وشهد له الملك بعد معرفة الحقيقة فقال

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ (٣٤)

(١) سورة يوسف آية (٢٦ - ٢٩)

(٢) سورة يوسف آية (٥١)

(٣) سورة يوسف آية (٢٦)

(٤) سورة يوسف آية (٥٤)

(٢) سورة يوسف آية (٥١)

(٤) سورة يوسف آية (٢٣)

(٦) سورة يوسف آية (٥٤)

فالذى يريد أن يتهم يوسف بالهم عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان وكلاهما شهد ببراءة يوسف ، فلا مفر له من الإقرار بالحق على أى حال وهو براءة يوسف عليه السلام (١) .

(٥) موسى عليه السلام :

إذ قال الله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ٥٠ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥١ ﴾ (٢)

والشبهة تمثلت فى أن موسى عليه السلام قتل نفساً بغير حق .

والجواب على ذلك :

١ - أن موسى لم يقتل ، وإنما أراد أن يفض النزاع ، فوكز المعتدى وكزة كانت القاضية عليه ، فندم على فعلته وعدّها من عمل الشيطان واستغفر ربه عما ارتكب وتضرع إليه أن يتوب عليه وألا يجعله مساعداً للمجرمين ، فغفر له وتاب عليه .
* والوكز في اللغة هو الضرب بجمع الكف ، فقد وكزه موسى ولم يرد قتله ، هذا مع العلم بأن موسى لم يكن نبياً ولا رسولا حين وكز خصمه . فهو من جنس القتل الخطأ .

(١) انظر : مع الانبياء في القرآن الكريم ص (١٦١ ، ١٦٢) ، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د . أحمد السيد النكومي ، محمد أحمد القاسم ص ١٣٨ - ١٤٠ . قصص الانبياء عبد الوهاب النجار ص ١٥٨ - ١٦١ .
العقائد الإسلامية ص ١٦٣ - ١٦٤ .
(٢) سورة القصص آية (١٥ ، ١٦) .

٢ - أن الذي قتله موسى لم يكن مؤمناً بل كان كافراً مشركاً بالله العظيم
ولكفره كان مستحقاً للقتل .

(٦) داود عليه السلام :

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ بَبْؤًا

الْخَصِمُ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ (٦١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ
قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكَمْ بَيْنَنَا يَا مُحِقُّ
وَلَا شَطِطٌ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۖ (٦٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي
الْمُخَاطَبِ ۖ (٦٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
مِّنَ الْخَالِطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ
رَاكِعًا وَأَنَابَ ۖ (٦٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ

مَقَابٍ ۖ (٦٥)

وهذه القصة ليس فيها ما يدل على أن داود عليه السلام قد عصى ربه بارتكاب
ما ينافي العصمة وكل ما يمكن أن يقال في هذا : إنه قضى بين الخصمين بعد أن
سمع من أحدهما وقبل أن يسمع من الآخر ، والتعجيل بالحكم قبل الاستماع إلى
الطرفين يعتبر في نظر القضاء مخالفة ، ولا سيما إذا كان القاضى نبياً كداود عليه

السلام ، ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب .

ويمكن أن يقال أيضاً إنه خاف من تسور الخصمين المحارب ودخولهما عليه بغتة وهو بين يدي الله ، خاف أن يقتلاه كما كانت عادة بنى اسرائيل من قتلهم الانبياء ، فكان هذا الخوف وهو فى المحارب ومائل بين يدي الله ، مما لا يليق بمكانته وعظيم قدرته وحسن صلته بالله ، مالك ناصية كل شيء .

وسواء أكان ما ينسب إلى داود عليه السلام من العجلة فى الحكم أو من الخوف من القتل ، فقد ظن أنه مختبر بما وقع له ، فاستغفر ربه ، وخر راکعاً منياً إلى الله راجعاً إليه .

ولا يمكن أن تتضمن القصة التى ذكرت فى القرآن معنى آخر وراء ذلك مما يتقص من قدر نبي عظيم .

وما ذكر من أن المقصود بالنعجة هى المرأة ، وأن داود اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتالها عليه ، فهو من الإسرائيليات المكذوبة ، ومن الدخيل الذى يتنافى مع عظمة الرسالة ، وكمال النبوة وشرف الدعوة التى انتدب الله لها خيار خلقه وصفوة عبادہ ^(١) .

(٧) سليمان عليه السلام :

يقول الله سبحانه وتعالى عن سليمان عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ
أَنَابَ ۖ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَتَّبِعُنِي لِأَخِي مِنْ
بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۖ ﴾ ^(٢)

(١) المعائد الإسلامية ص (١٦٥، ١٦٦) ، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص (١٤١، ١٤٣، ١٤٦) .

(٢) سورة ص آية (٣٤، ٣٥) .

والشبهة مأخوذة من الإسرائيليات التي تزعم أن سليمان عليه السلام نزع خاتمه الذي أخذه الشيطان وتمثل به وأخذ يحكم الناس على أنه سليمان ، حتى مكنه الله عز وجل منه ، فتاب وأتاب .

والحق يقال : إن هذا كله أكاذيب وتلفيقات وإسرائيليات ، إذ كيف يجوز للشيطان أن يتمثل برسول الله «سليمان عليه السلام» ، فأى ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا ، وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان ، وهو أكرم على الله من ذلك ؟

وإى ملك أو نبوة يتوقف أمرها على خاتم يدومان بدوامه ، ويزولان بزواله ؟ وما عهدنا فى التاريخ البشرى شيئاً من ذلك .

وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة ، فكيف يغفل الله شأنه فى كتابه الشاهد على الكتب السماوية ولم يذكره بكلمة ؟ وهل غيرَ الله سبحانه خلقه سليمان فى لحظة حتى أنكرته أعرف الناس به وهى زوجته ؟

الحق أن نسج القصة مهلهل لا يصمد أمام النقد وأن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها. وأما التفسير الصحيح لمعنى الفتنة فى الآية الكريمة ، كما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : قال : «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد فى سبيل الله فقال له صاحبه - يعنى قرينه من الملائكة - قل : إن شاء الله ، فلم يقل ولم تحمل واحدة منهن شيئاً ، إلا واحدة جاءت بولد ساقط إحدى شقيه ، فقال النبى ﷺ : لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله أجمعين».

فهذا هو المتعين فى تفسير الآية ، وخير ما يفسر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله ، وقد بينت بعض الروايات : أن الترك كان نسياناً ، والمراد بصاحبه :

الملك كما جاء في بعضها (١).

(٨) محمد ﷺ :

وقد جاء في القرآن الكريم :

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لَذَنبِكَ ﴾ (٢)

وكذلك :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۚ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۚ وَيَنْصُرَكَ

اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣)

وظاهر الآية الأولى يوهم بأن للرسول ﷺ ذنباً ، وأن عليه أن يستغفر الله .

وظاهر الآية الثانية يفيد بأن الله غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر .

والمعروف من سيرة رسول الله ﷺ أنه معصوم قبل البعثة وبعدها ، فقد عصمه الله من عبث الطفولة ولهو الشباب ، فلم يله كما كان يلهو غيره ، لأنه أعد لحمل رسالة الهدى والنور ، وقد أشار إلى هذا فيما حدث به عن نفسه ، فقال : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله برسالته ، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معى بأعلى مكة ، لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ، فقال أفعل فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ، سمعت عزفاً ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فلان بفلاته ، فجلست أسمع ، فضرب الله على أذنى فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبي ، فسألني

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير د . محمد أبو شهبة (ص ٣٧٧ - ٣٨٥) بتصرف .

(٢) سورة محمد آية (١٩) .

(٣) سورة الفتح آية (١ - ٣) .

فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة ، ثم ما هممت بسوء ^(١) .

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه ، مدة حياته لا يخطر السوء على قلبه ، وإذا كان ذلك كذلك فما معنى الذنب الذي أمر أن يستغفر منه ، والذي قد غفر له ما تقدم منه وما تأخر ؟ مما لا جدال فيه أن الرسول ﷺ كانت تصدر عنه بعض التصرفات التي لم يوح إليه شيء بخصوصها ، بل كان أمرها متروكاً إلى اجتهاده الخاص ، فكان في بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن متجاوزاً ما هو أحسن منه ، فاعتبر وقوفه عند الرأي الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنباً بالنسبة إليه وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه .

وقد ذكر القرآن أمثلة لذلك :

(١) فمنها اجتهاده في أسرى بدر ، وقبوله الفداء ، وقد عتب الله عليه عتياً

أبكاه :

﴿ مَا كَانَ لِإِنِّي أَنْ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٧
لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٨ ﴾

أي لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذه المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظيم على قبول الفداء وعدم الإثخان في الأرض .

ولما نزلت هذه الآية بكى رسول الله ﷺ وبكى معه أبو بكر بكاءً شديداً ،

(١) رواه الطبراني ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة .

(٢) سورة الأنفال آية (٦٧ ، ٦٨) .

وقال: « لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر » ففي هذه الحادثة لم يكن من الرسول إلا الاجتهاد في قضية لم يوح إليه فيها بشيء ولم يخطئ في حكمه فيها، لأن الرسول ﷺ لا يقر على خطأ وإنما عدل عما هو أحسن إلى ما هو حسن. (١)

(ب) ومنها : أنه قبل أعمار المتخلفين عن الغزو دون تمحيص هذه الاعذار ، ليتبين له من هو صادق ومن هو كاذب

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ (٢)

فهذه ليست ذنباً في ذاتها ، ولكنه اجتهاد من النبي ﷺ ولا تعدو إلا تكون من باب خلاف الأولى في أمر لا نص فيه ، وقد كان من باب التدبير في الحرب .

وأما قوله : « عفا الله عنك » فليس عن ذنب صدر منه ، وإنما هو التلطف من الله في الخطاب مع حبيبه ﷺ وهذا كما لو قلت : أنت يرحمك الله ، واسمع كلامي غفر الله لك ، وإن لم يكن هناك ذنب البتة . (٣)

(ح) ومن ذلك : عتاب الله له في إخفائه أمر زواجه بزَيْنَب بنت جحش بعد طلاق « متبناه » زيد بن حارثة لها - وكان الله قد أمره بذلك - ليطل تقليداً من تقاليد الجاهلية ، إذ كانت هذه التقاليد تقضى بتحريم زواج زوجة الابن المتبنى مثل تحريم الزواج بزوجة الابن من النسب ، فكان الرسول ﷺ يجد حرجاً مثل أي إنسان عندما يتخرج من مخالفة التقاليد والخروج على العادات .

(١) العقائد الإسلامية ص (١٦٧ - ١٦٩) .

(٢) سورة التوبة آية (٤٣) .

(٣) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص (١٦٠ - ١٦١) .

وقد رفع الله عنه الحرج بعد العتب اليسير :

﴿وَأَذِّنْ قَوْلَ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ٢٧﴾
 مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيهِ أَفْرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ٢٨﴾ (١)

وقد نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب - عمة رسول الله ﷺ - وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجهها زيد بن حارثة مولا ، فكرهت ذلك ، ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجه إياه ، ثم أعلم الله - عز وجل - نبيه بعد ، أنها من أزواجه ، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها ، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس ، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجته ، وأن يتقي الله ، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ، ويقولوا: تزوج امرأة ابنه ، وكان قد تبنى زيدا ، وهذا هو السبب الصحيح . (٢)

وما قيل غير ذلك فهو محض اختلاق ، كما زعمته الإسرائيليات بأن النبي ﷺ رأى زينب وهي نائمة ، شبه عارية ، فوقع حبها في قلبه ، وتمناها ، ولكنه أخفى

(١) سورة الأحزاب آية (٢٧ ، ٢٨) .

(٢) إرواه ابن أبي حاتم والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين وكذا ابن حجر في فتح الباري .

ذلك عن الناس ، ويأتيه زيد ، يشكو أمر زوجته ، فيقول له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، في الوقت الذي كان يخفى حبها ، مع أن الله سيظهره ، وأن لو فارقها زيد تزوجها .

فكل هذا من الكذب الصراح والباطل الواضح ، إذ كيف يليق هذا بنبي ؟ وهو الذي كان يرى «زينب» وهي شابة ، وريبت على عينيه ، وهو الذي زوجها لمولاه «زيد» وكرر الطلب حتى استجيب له ، فكيف يقال : فلما شاهدها وقع حبها في قلبه !!؟ ولو كان ﷺ صاحب رغبة لأشبعها في ميعة الصبا ، وشرح الشباب أيام أن كان الغيد الكواعب من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له .. (١)

(د) وما يدخل في هذا النطاق : قول الله سبحانه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكُمْ هَيَّجَى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ نَصَدَى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) ﴾ (١)

فهذا عتب من الله لرسوله حين طمع في إسلام بعض صناديد قريش ، فأقبل عليهم يدعوهم إلى الله ، وهم ينصتون له ، ويقبلون عليه . وفي هذه الأثناء حضر عبد الله بن أم مكتوم ، وأخذ يقاطع الرسول ﷺ ، ويقول له : علمني مما علمك الله ، ويكرر ذلك ، فكان الرسول ﷺ يضيق بهذه

(١) انظر بنو مسعود الإسرائيليات في التفسير ص (٤٥٥ - ٤٦٣) .

(٢) سورة عبس الآيات (١ - ١٠) .

المقاطعة، ويعبس من الضيق مع أن الرجل أعمى لا يبصر هذا العبوس ، ومع ذلك عاتبه الله فيه ، فكان كلما لقيه بعد يقول له : أهلاً بمن عاتبنى فيه ربي (١) .

(هـ) ومن هذا ما روى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قرأ قول الله

سبحانه :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۖ (٢) ﴾

تلك الغرائق (٢) العلا وإن شفاعتهن لترجي .

فهذا كذب محض وافتراء أحقر من أن يناقش ، وليس فيه صلة بين هذه

الأكذوبة وبين قول الله سبحانه

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ

مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

فإن الآية تقرر أنه ما من نبي ولا رسول تمنى هداية قومه ، واستجابتهم لدعوته إلا جاء الشيطان واضعاً أمامه العقبات ومينساً له من الوصول إلى الهدف الذي يستهدفه إلا أن الله سبحانه يعجل بإزالة ما يلقي الشيطان من وسوسة تيشسه ويحيى في نفسه الأمل والرجاء .

وفي ذلك تمحيص لأهل الحق ، وفتنة لضعاف الإيمان ، فالذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم ، وتخبت له قلوبهم .

(١) العقائد الإسلامية (١٦٩-١٧٠) بتصرف .

(٢) سورة النجم آية (١٩ - ٢٠) .

(٣) الغرائق : جمع غرنوق : وهو اسم لطائر مائي أسود أو أبيض ، ومن معانيه : الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك . « راجع قاموس معجم ياقوت » .

(٤) سورة الحج آية (٥٢ - ٥٤) .

كما يقال : كيف يجوز أن يلقي الشيطان هذه الكلمات التي فيها مدح للأوثان، وقد جاءت السورة بذمها وأنكرت على عابديها ، وجعلتها أسماء لا مسمى لها، وما التمسك بها إلا أوهام وظنون ، فلو أن القصة صحيحة لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها وكان النظم مفككا ، والكلام متخاذلا ، وكيف يقع مدح بين ذمين؟ بل كيف يجوز هذا ممن كمل عقله على كل العقول؟ ، وكيف يكون للشيطان على الرسول سبيل أو سلطان؟ وهو مخالف لقوله تعالى:

﴿ إِنِّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ^(١)

وأي شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء ، وقال تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ لَكَ لَسُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ^(٢)

فكيف بالنبي ﷺ؟ فأي بشر أصدق إيمانا وأقوى توكلا من رسول الله؟! وقد صدق الشيطان ذلك كما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

﴿ قَالَ فِعْزَيْكَ لَا غُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿٨٧﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(٣)

بفتح اللام وكسرهما ، ومن أحق من الأنبياء بالاصطفاء أو من أشد إخلاصا منهم؟ وكيف ، وقد كان للرسول ﷺ شيطان فأسلم ، فصار لا يأمره إلا بخير؟! ^(٤) وكيف يصح أن يزيد الرسول ﷺ في القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إن كان مغايرا؟ وكيف يتفق هذا مع التوحيد الذي جاء به؟ ومع العصمة التي عصمه الله بها؟ . وهل امتدح رسول الله ﷺ الأصنام في الجاهلية حتى يمتدحها في الإسلام؟ أو ذكرها بخير أبدا؟ وكيف وهو الكفر البواح!!؟

(١) سورة الإسراء ، آية (٦٥) .

(٢) سورة النحل ، آية (٩٩) .

(٣) سورة ص - آية (٨٢، ٨٣) .

(٤) رواه مسلم .

ولو صح ذلك لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلاً للتشكيك في الدين!! وكيف يستدل بأحاديث لم يصل واحد منها إلى درجة الصحة في مثل هذا الأمر الذي هو جد خطير ؟ وكيف لا ، ولم يتفق حديث مع الآخر في عرض القصة ، وقد جاءت مهلهلة متداعية ، لا يثبت منها شيء أمام البحث والتحقيق هذا ولم يثبت عن العرب أنهم وصفوا آلهتهم بالغرانيق لا في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : أن ذلك الوصف كان جارياً على الستهم . بل وما ذكر في اللغة من معانيها « الغرائيق » لا يلائم معنى الإلهية والأصنام ، حتى يطلق عليها في فصيح الكلام الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق ، لأن الذوق العربي يأبى ذلك .

فالقصة لم تصح عقلاً ولا نقلاً ، ولا من وجه من الوجوه (١) .

هذا هو ما نسب إلى رسل الله وأنبيائه ، وهو لم يخرج عن كونه هينات هينات ، لا تصل للدرجة المعصية ولا تتنافى مع العصمة ولا تنقص من أقدارهم السامية ، أو تنال من مكانتهم العالية ومزلتهم الرفيعة .

ولذلك وجب الإيمان بعصمة الأنبياء والرسل ، مخالفين بذلك اليهود والنصارى الذين أبوا إلا أن يجرحوا كثيراً من الأنبياء والرسل ، وينسبوا إليهم ما نزههم الله عنه وصانهم منه ، كما ورد في كتبهم المحرفة ، وهى تسبب الشرك والكبائر لهؤلاء الأنبياء والرسل ، فاعجب !!

والخلاصة : وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام .

فالإيمان بالرسل ضرورى لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى ، لأن الله تعالى هو الذى نبأهم وأرسلهم وأخبر عنهم وأمر بالإيمان بهم وتصديقهم ، والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به ، من

(١) راجع بتوسع الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير (ص ٤٤٢ - ٤٥٤) .

الملائكة والكتب والرسل والبعث والجزاء ، والقضاء والقدر ، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به ، فيكفى المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله ، وأمره بالإيمان بالرسل ، كقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ (١)

ومن ثم فنحن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل إجمالاً وتفصيلاً ، كما قال تعالى :

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (٢)

فوجب الإيمان بجميعهم تفصيلاً فيما فصل ، وإجمالاً فيما أجمل (٣) كما وجب الإيمان بأفضليتهم على سائر الخلق والاعتقاد بعصمتهم ، على نحو ما ذكر. هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ ، فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل سوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم وكمالهم ووجوب تعظيمهم واحترامهم .

ولهذا نكتفى بما سبق من البحث في اعتقاد المؤمن بالرسل عليهم السلام لنخص بالبحث « النبي الخاتم » صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع ، والعامّة لكل الناس ، والذي يجب محبته على سائر الخلق ، واتباعه دون سائر الأنبياء ، واتباع شريعته دون سائر الشرائع ، مع الإيمان به ، ونصرته ونصرة شريعته ، كما أخذ الله العهد والميثاق على الأنبياء والرسل بذلك

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ

عَلَىٰ ذَٰلِكُمُ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤)

ذلكم هو النبي الأمي ، محمد رسول الله ﷺ .

(٢) سورة النساء آية (١٦٤) .

(١) سورة النساء آية (١٣٦) .

(٤) سورة آل عمران آية (٨١) .

(٣) عقيدة المؤمن (ص ٢٧٠ - ٢٧٢) بتصرف .

النبي محمد ﷺ

ويجب علينا أن نؤمن بأن محمداً بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسوله ، وعبدَه وصفيه ، اصطفاه الله تعالى من خير القبائل وأفضل البيوت ، وجعله أعظم ولد آدم وسيد الخلق أجمعين .

كما قال ﷺ : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ^(١) .

كما قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ^(٢) وكذلك قال : « أنا سيد الأولين والآخرين ولا فخر » ^(٣) .

فهذه الأحاديث وغيرها تدل بوضوح على أن محمداً بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم ، وأنه ﷺ نشأ نشأة الطهر والعفاف ، ولم يشرك بالله طرفة عين قط ، ولم يعبد صنماً مع أنه نشأ في بيئة كلها تعبد الأصنام ، ولم يشرب خمرًا كما كانوا يشربون ، ولم يلعب ميسرًا كما كانوا يلعبون ، ولم يثد بتًا كم كانوا يثدون . ولم يأكل حرامًا كما كانوا يأكلون ، بل لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط ، فصلوات ربي وسلامه عليه .

فكانت دنياه كلها معبدًا يطيب أصائله وعشاياه وأسحاره بذكر الله وحده ، ونعلم أنه جد في الحياة راعي غنم ، ثم تاجرًا ، فكان في حياته المثل الأعلى في الجد القوي الصالح ، والأمانة التي تعتصم بالتقوى ، والحكمة الحكيمة في كل ما يصرف به شئون دنياه ، والرعاية التي تقدر الحق والواجب لكل ما حمل من أمانة ، وأنه كان في أطوار حياته الكامل في الأدب والخلق ، وحكمة العقل ،

(١) رواه مسلم والترمذي

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه البخاري ومسلم

وسمو العاطفة ، ونباعة النكر وقوة الإرادة ، ومضاء العزيمة ، وجلال الشرف ، وعزة الكرامة ، ونبل المروءة ، وكرم الإيثار والنجدة ، وسماحة النفس ..

ثم اصطفاه ربه خاتماً للنبيين ، فجاهد في الله حق جهاده ، وبلغ ما أنزل إليه من ربه وشهد الله له بذلك فوجب أن نؤمن بأنه خاتم الأنبياء ، لما ورد في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ .

فأما القرآن ، فقد قال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ ﴾ (١)

وأما السنة فقد قال ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فاحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » (٢) .

وقال أيضاً : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » (٣) .
ونعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا نبوة بعده ﷺ وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ، لا نبي بعدي » (٤) كما نعتقد أنه ﷺ قد اكتملت فيه صفات الأنبياء واتضحت فيه مؤهلات النبوة ، فضلاً عن ذكره في الكتب السابقة ، وشهادات كثير من علماء اليهود والنصارى بنبوته (٥) .

كذلك يجب أن نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام إمام المتقين : الذي يقتدى به

(٢) رواه البخارى ومسلم

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤٠

(٤) أخرجه مسلم

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٥) راجع بتوسع ، فصل « وأشهد أن محمداً رسول الله » ج ١ من حقيقة الإيمان

في الخير كله ، وأنه وحده الجدير بالافتداء والتأسي به دون غيره ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١)

كما قال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

يُحِبُّوكُمُ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

وَسُلِّمُوا أَسْلِمًا ﴾ (٢)

كما نؤمن أنه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن ، وأن له أعلى مراتب محبة الله عز وجل وهي الخلقة فقد قال رسول الله ﷺ « لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنه أخى وصاحبى ، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً » (٣)

كما يجب أن نعتقد أنه مبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى ، فقد حكى الله سبحانه في القرآن قول الجن

﴿ يَلْقَوْنَآ آيَاتِهِ يَرْجُونَ عِزَّ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ

مِنْ عَذَابِ الْيَمِّ ﴾ (٤)

كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٥)

كما قال : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (٦)

وقال : ﴿ بَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٧)

(١) سورة آل عمران : آية ٣١

(٢) رواه مسلم

(٥) سورة سبأ : آية ٢٨

(٧) سورة الفرقان : آية ١

(٢) سورة النساء : آية ٦٥

(٤) سورة الأحقاف : آية ٣١

(٦) سورة الأعراف : آية ١٥٧

وقال ﷺ : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونضرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » ^(١) ويجب علينا أن نقدم محبته على الوالد والولد والنفس .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » ^(٢)

وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه : فقال له عمر : يا رسول الله لانت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي ، فقال النبي ﷺ : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : لانت الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر ^(٣) كذلك يجب علينا أن نؤمن بأن الله عز وجل قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقة ﷺ في كل ما جاء به ، وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة ، تحدى به العالمين ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو بمثل بعض منه ، ولو بسورة واحدة ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا
بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ^(٤)

ونؤمن بأن الله عز وجل أيده بالمعجزات الحسية ، المذكورة في الأحاديث الصحيحة ، مثل : انشقاق القمر وتسليم الحجر عليه ، وحنين الجذع إليه ،

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه البخاري

(٤) سورة البقرة : آية ٢٣ ، ٢٤

وتسييح الطعام بين يديه ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، وشهادة الشاة المشوية أمامه ، وإظلال السحاب له قبل مبعثه ، وما كان من حال أبي جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه ، وما كان من شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها ، ورميه التراب في وجوه المشركين يوم بدر ، وإصابتهم به ، وإخباره بالمغيبات التي وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، واستجابة الله سبحانه لدعائه ، وعصمته من القتل ، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب ، وصنفت فيه المصنفات الواسعة ^(١)

وقد ورد في معجزاته الحسية أخبار كثيرة ، بعضها متواتر ، وكثير منها مشهور وهي في مجموعها تفيد العلم اليقيني بوقوع تلك المعجزات أولاً ، وصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

كما نؤمن أن الله سبحانه قد أيده بالحجج البالغة ، والأدلة الظاهرة ، الماثلة في ذاته وصفاته وأخلاقه ، فنؤمن أن الله عز وجل حباه خلقه وصورة ، يحكم المتفرس فيها بأنها دالة على نبوته ، وصدقه عليه الصلاة والسلام ، وما أحسن قول « حسان بن ثابت » رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

ونؤمن بأن الله سبحانه وتعالى حباه أخلاق القرآن كلها ، مما يدل على صدقه وتأيد الله له ، فما سمع أحد منه كذباً لا في أمور الدين ، ولا في أمور الدنيا ، لا قبل البعثة ولا بعدها ، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره وإظهاره ، وما فعل فعلاً قبيحاً أو منفراً ، لا قبل النبوة ولا بعدها ، وما فر عن أحد من أعدائه مهما عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أحد ويوم الأحزاب

(١) راجع بتوسع : كتب السيرة والحديث ، وباب علامات النبوة بالبخارى وباب معجزات الرسول ﷺ وكتاب « دلائل النبوة » للإمام أبي نعم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء ، وكتاب أعلام النبوة : لأبي الحسن المارودي ، وكتاب « دلائل النبوة » للبيهقي ، وكتاب « الوفا بأحوال المصطفى » لابن الجوزي .

وكان عظيم الرحمة والشفقة بأمنته حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ۗ ﴾ (١)

وقال أيضاً :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ

رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴾ (٢)

وكان في أعظم درجات الكرم والسخاء ، وكان زاهداً في الدنيا ، قانعاً باليسير منها ، لا يدخر شيئاً ، وكان في غاية الفصاحة ، وأعطى جوامع الكلم ، وكان حليماً صفوحاً ، لا يغضب إلا لله تعالى ، متواضعاً للمؤمنين ، عابداً لله ، مجاهداً في سبيله متوكلاً عليه ، وقد ظل عليه صلوات الله وسلامه على صفاته وأخلاقه الربانية من أول عمره إلى آخره ، ما غير ولا بدل وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُكَفِّرِينَ ۖ ﴾ (٣)

والتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طوال عمره .

وقد كان في هذه الخصال وغيرها من الأخلاق الكريمة ، في كل واحدة منها في الغاية القصوى من الكمال ، ولا يتفق ذلك لأحد من الخلق ، غير أولئك الذين عصمهم الله تعالى ، فكان اجتماع هذه الصفات والأخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته .

ولهذا فإننا نجد كثيراً من العقلاء قد حكموا بصدقه عليه الصلاة والسلام ، لما يعرفونه من أخلاقه ، وصدقه ، وسيرته العطرة ، فهذه خديجة رضي الله عنها ،

(١) سورة فاطر : الآية ٨

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٨

(٣) سورة ص : الآية ٨٦

لما كانت تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق الأمين ، فعندما أخبرها بما لقيه من
الوحي ، وقال لها : « إني قد خشيت على نفسي » قالت : « كلا والله ما يخزيك
الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ،
وتعين على نوائب الحق »^(١) وكذلك هرقل ملك الروم ، فلما أنبى ﷺ ، لما كتب
إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، طلب من كان في بلاده من العرب ، وكان أبو
سفيان في طائفة من قريش في تجارة إلى بلاد الشام ، فاستدعاهم هرقل إلى
مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ودعا بترجمانه ، وشرع يسألهم عن أحوال النبي
ﷺ ، فيصل بعدما سمع منهم إلى نتيجة قاطعة وهي : أن ما سمع من أحوال
محمد ﷺ وصفاته وسيرته فيهم لتدل على صدقه فيما جاء به ، وأنه نبي
مرسل^(٢)

ومن المفيد في هذا المقام أن ثبت هذا الحوار الذي دار بين هرقل ، وأبي
سفيان ، كما نقله البخاري في صحيحه ، لما فيه من العظة والعبرة ، والحجج
البالغة والبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة على صدق النبي محمد ﷺ وأخلاقه
العظيمة ، ومعجزاته الباهرة ، فعن عبد الله بن عباس أخبر أن أبا سفيان بن
حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، في
المدة - يعني صلح الحديبية - التي كان رسول الله ﷺ هادئ فيها أبا سفيان وكفار
قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم
دعاهم ودعا بترجمانه ،

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟

فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً .

فقال : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال

(١) رواه البخاري

(٢) الإيمان : أركانه حقيقته ، د/ محمد نعيم ياسين ص ٤٤ - ٥١ بتصرف

لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فلإن كذبتني فكذبوه - فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذباً لكذبت عنه - ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبة فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا

فقال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

قال أبو سفيان : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟

قلت : نعم

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟

قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول أبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يتأسى بقول من قبله ، وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا : قلت : لو كان من آبائه ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ، ^(١)

ومع ماورد في فضل النبي ﷺ ، وعلو درجته ، وعظيم منزلته على كل البشر بل وهداة البشر وهم الأنبياء ، وكذا سائر المخلوقات ، فإنه مع ذلك كله هو عبد من عباد الله ، وبشر من خلق الله ، ليس إلهاً ولا ابن إله ، ولا شريكاً مع الله

«كما زعمت النصارى في نبهم»

ولم يتخل عن بشريته وعبوديته لله عز وجل ، لأن ذلك هو الشرف ذاته ، والفضل نفسه ، ولأن نقي البشرية عن النبي ﷺ - ولو بزعم النورانية - ضلال مبين ، وبعد عن الدين ، ونورانية المعنوية لا تنكر ، فهو السراج المنير ﷺ ، ولكن لا يجوز الغلو في مدحه ﷺ وهو القائل : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »^(١)

تدبر ما ذكرتك به من آيات الله وحديث الرسول ﷺ لتؤمن بأن محمداً ﷺ لم يبلغ ما بلغ من عظمة وكمال وسمو إلا بإخلاص الدين لله وحده ، والعبودية الكاملة لله عز وجل وأنه كان بشراً يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾^(٢) ١. هـ

ومن ثمرات الإيمان بالرسول (صلى الله عليهم وسلم أجمعين) :

أولاً : العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى ويبينوا لهم كيف يعبدون الله ، لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك .

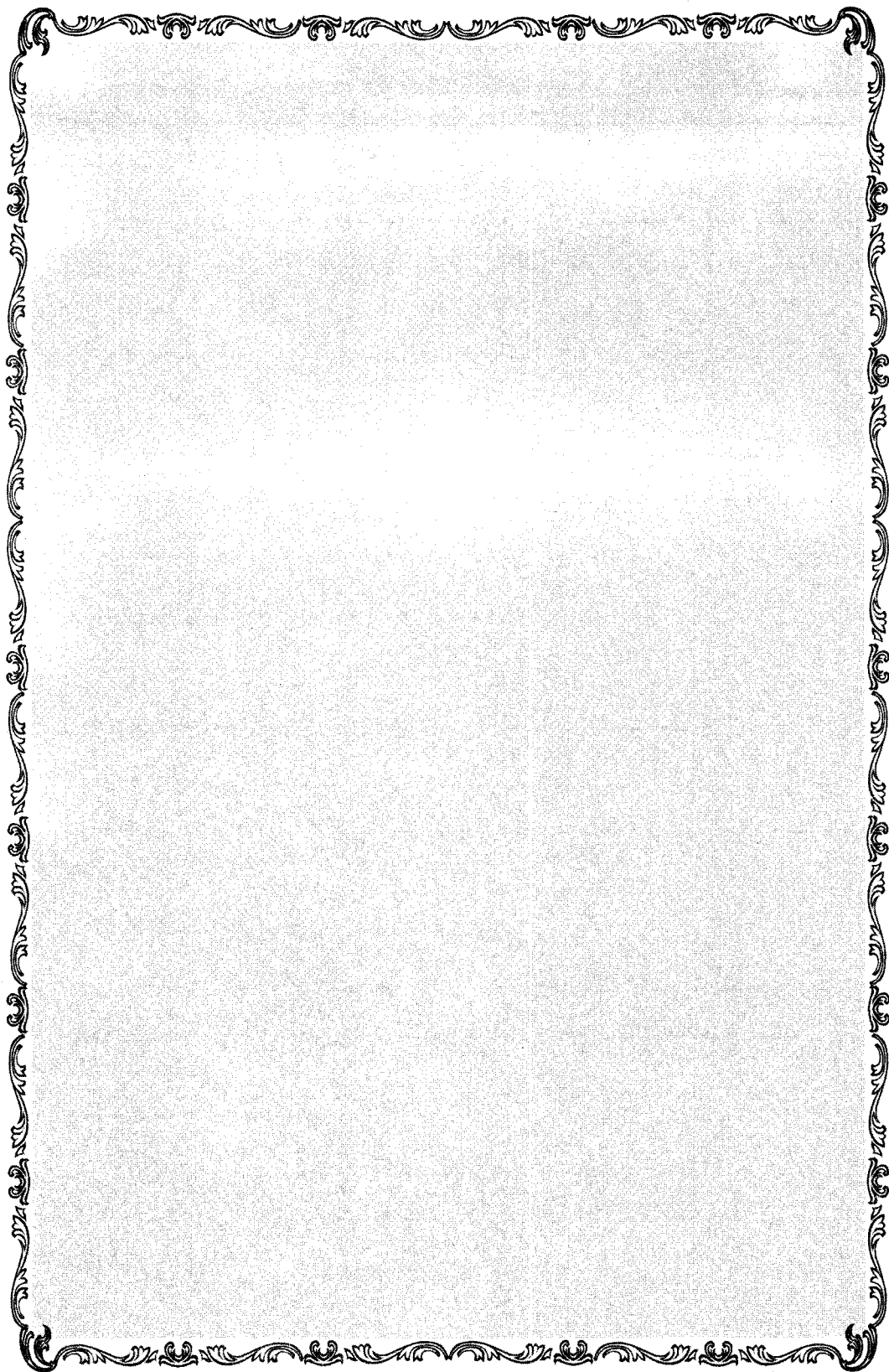
ثانياً : شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى .

ثالثاً : محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم والثناء عليهم بما يليق بهم ، لأنهم رسل الله تعالى ولأنهم قاموا بعبادته وتبليغ رسالته والنصح لعباده^(٣)

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) سورة الإسراء : آية ٩٣

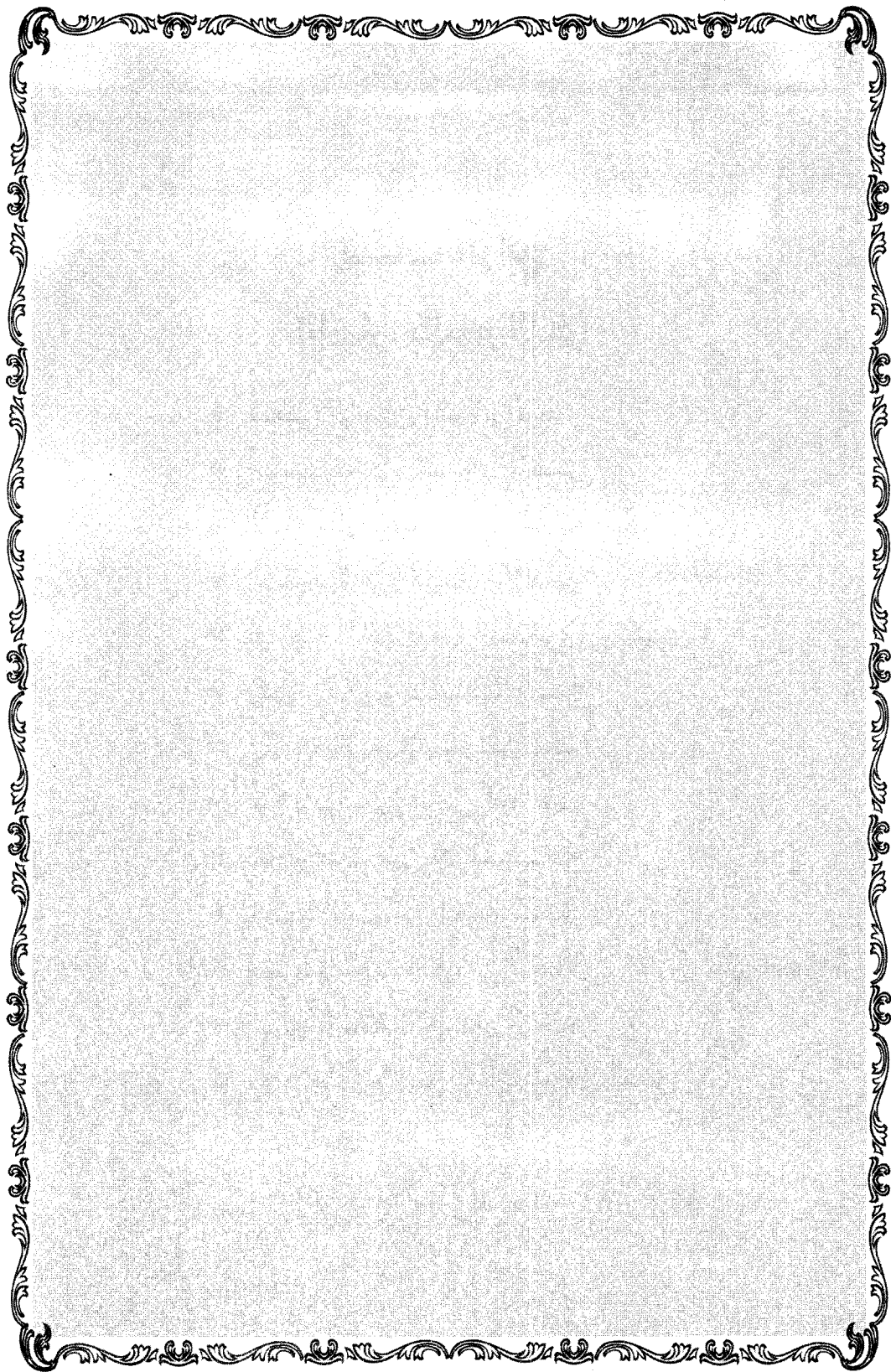
(٣) الثمرات الزكية في العقائد السلفية (ص ١٩١) ، ورسائل في العقيدة لابن عثيمين (ص ٢٧) .



الباب الرابع

الإيمان باليوم الآخر

- * معنى الإيمان باليوم الآخر
- * أسماء اليوم الآخر
- * الأدلة على البعث بعد الموت
- * الحكمة من اليوم الآخر
- * علامات الساعة ، الصغرى والكبرى ،
- * زلزلة الساعة
- * يوم البعث
- * الوقوف على أرض المحشر
- * العرض على الله
- * حساب الخلائق
- * أخذ الصحف - ميزان الأعمال - المرور على الصراط
- * نهاية المطاف المستقر الأخير
- * نعيم أهل الجنة - عذاب أهل النار



الركن الخامس

" الإيمان باليوم الآخر "

* تعريف : ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد باليوم الآخر أمران :

الأول : فناء هذه العوالم كلها ، وانتهاء هذه الحياة بكاملها

والثاني : إقبال الحياة الآخرة وابتدائها .

فدل لفظ « اليوم الآخر » على آخر يوم من أيام هذه الحياة ، أو على اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة .

والإيمان باليوم الآخر مقتضى للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وعلامات ، وما يتم فيه من أهوال ، مع اختلاف الأحوال ، لأهل الجنة وأهل النار ، كما هو مقتضى كذلك لتصديق الله تعالى في أخباره عن الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجرى فيها من أمور عظام كبعث الخلائق ، وحشرهم ، وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا .

* أسماء اليوم الآخر في القرآن الكريم :

١ - « اليوم الآخر » : وإن كان أشهر الأسماء لهذا اليوم المقابل للدنيا ،

﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ ^(١)

(١) سورة الاحزاب ، آية ٢١ .

فإن له أسماء أخرى كثيرة كلها ذكرت في القرآن الكريم ، ومنها :

٢ - **الآخرة** : وهى مرادفة لليوم الآخر ، كما أنها مقابلة للدار الدنيا ،

﴿وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(١)

٣ - **يوم القيامة** : لأنه اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾^(٢)

٤ - **يوم الدين** : لأنه اليوم الذى يدان فيه الناس ، أى يحاسبون

﴿وَمَا آذَرْتُكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾^(٣)

٥ - **يوم البعث** : إذ يبعث الناس من قبورهم ، ويخرجون من الأجداث سراعاً :

﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾^(٤)

كما قال سبحانه أيضاً

﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥)

٦ - **يوم الحشر** : إذ يحشر الناس جميعاً ولا يتخلف منهم أحد .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾^(٦)

وكذلك ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾^(٧)

(٢) سورة القيامة ، آية ١

(٤) سورة التغابن ، آية ٧

(٦) سورة فصلت ، آية ١٩

(١) سورة البقرة ، آية ٤

(٣) سورة الانفطار ، آية ١٧

(٥) سورة الروم ، آية ٥٦

(٧) سورة ق ، آية ٤٤

٧ - يوم النشور : إذ هناك ينشركل شيء ، وتبلى السرائر ،

﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (١)

٨ - يوم الجمع : لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ (٢)

٩ - يوم التغابن : لأن أهل الجنة يغنبون أهل النار ، ولا غبن أعظم

من دخول النار ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ (٣)

١٠ - اليوم المشهود : أى العظيم الذى تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه المرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم

﴿ ذَٰلِكَ

يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمُ مَشْهُودٌ ﴾ (٤)

١١ - اليوم العظيم : لأنه عظيم الاهوال ، كثير الفرع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝١

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٢ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥)

١٢ - اليوم المعلوم : الموقوت بوقت محدد عند الله ، هو سبحانه يعلمه ، ولا يعلمه غيره ، ولا يتقدم ولا يتأخر ،

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝١ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ

يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٦)

(١) سورة التغابن ، آية ٩

(٢) سورة هود ، آية ١٠٣

(٣) سورة الواقعة ، آية ٤٩ ، ٥٠

(١) سورة الملك ، آية ١٥

(٣) سورة التغابن ، آية ٩

(٥) سورة المطففين ، آية ٤ - ٦

١٣ - اليوم الحق : أى الكائن لا محالة ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ (١)

وكل شئ فيه حق ، وبالحد.

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ (٢)

١٤ - يوم الواقعة : لتحقق هذا اليوم ووجوده ، لا يصرفه صارف ، ولا يدفعه دافع :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَذِبٌ ۚ ﴾ (٣)

﴿ حَافِصَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ (٤)

١٥ - يوم الحاقة : لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد

﴿ الْحَاقَّةُ ۚ ١ مَا الْحَاقَّةُ ۚ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۚ ﴾ (٥)

١٦ - يوم القارعة : لأنها تفرع أذان الناس قرعاً شديداً

﴿ الْقَارِعَةُ ۚ ١ مَا الْقَارِعَةُ ۚ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۚ ﴾ (٦)

١٧ - يوم الطامة : لأنها تطم على كل أمر هائل مقطع ، فهى داهية كما قال تعالى :

﴿ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ (٧)

وهى طامة كبرى كما أخبر

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (٨)

١٨ - يوم الصاخة : لأنها تصخ أسماع الناس ، أى تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تصمها

(١) سورة النبا ، آية ٢٩

(٢) سورة الواقعة آية ١ - ٣

(٣) سورة القارعة ، آية ١ - ٣

(٤) سورة النازعات ، آية ٣٤

(٥) سورة غافر ، آية ٢٠

(٦) سورة الحاقة : آية ١ - ٣

(٧) سورة القمر آية ٤٦

﴿ فَأَذْجَاءَ تِلْكَ الصَّاحَّةُ ﴾ (١)

١٩ - يوم الغاشية : لأنها تغشى الناس وتعمهم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ (٢)

٢٠ - يوم الزلزلة : أى تحركت من أسفلها ، ورجت رجاً شديداً

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ نَثْقَالَهَا ② ﴾

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ (٣)

٢١ - يوم الفصل : الذى يفصل الله عز وجل فيه بين الخلائق بالحق

﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴾

﴿ لَيَوْمِ الْقُصْلِ ③ وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْقُصْلِ ④ وَيَلْهُو مَيْدِ ⑤
لِلْمُكَذِبِينَ ﴾ (٤)

٢٢ - يوم الحساب : الذى يجاسب الناس فيه على أعمالهم

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٥)

٢٣ - يوم الجزاء : الذى يجازى الناس فيه على أعمالهم ، إن خيراً أو

شراً ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (٦)

(١) سورة عبس ، آية ٢٣

(٢) سورة الغاشية ، آية ١

(٣) سورة المرسلات ، آية ١٢ - ١٥

(٤) سورة آل عمران ، آية ١٨٥

(٣) سورة الزلزلة آية ١ - ٣

(٥) سورة غافر ، آية ٢٧

فيجزى الحسن على إحسانه والمسي على إساءته

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ ﴾

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾

٢٤ - يوم الحسرة : أى على الكافرين من أهل الجحيم ، ومن فرط فى

طاعة رب العالمين

﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ۚ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْضَرُنِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ۚ ﴾ ﴿٣﴾

٢٥ - يوم المغفرة : أى للمؤمنين من أهل النعيم ، ومن عمل للقاء رب

العالمين :

﴿ قُلْ يَبَادِي ۚ ﴾

الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَنْقُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ

اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾

٢٦ - يوم الخروج : أى خروج الناس من قبورهم

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۚ ﴾ ﴿٥﴾

٢٧ - يوم العرض : إذ يعرض جميع الناس على الله العزيز الغفور ،

﴿ يَوْمَ يُعْرَضُونَ لِأَنْحَقَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۚ ﴾ ﴿٦﴾

(٢) سورة مريم ، آية ٣٩

(٤) سورة الزمر ، آية ٥٣

(٦) سورة الحاقة ، آية ١٨

(١) سورة غافر آية ١٧

(٣) سورة الزمر ، آية ٥٦

(٥) سورة ق ، آية ٤٢

٢٨ - يوم الآزفة : أى التى اقتربت

﴿وَأَنْذَرُهمْ﴾

﴿يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ (١)

وكذلك ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ (٢)

٢٩ - يوم التناد : إذا ينادى الناس بعضهم على بعض

﴿وَيَقُومُوا فِي آخِافٍ عَلَيْهِمُ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (٣)

٣٠ - يوم التلاق : أى يلتقى فيه جميع الناس من لدن آدم إلى آخر

ولده ، كما يلتقون بالخالق جل وعلا ، ويلقى كل
إنسان فيه ما عمل ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (٤)

٣١ - يوم الساعة : أى الساعة التى يعلمها الله ، ولا علم لأحد بها

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ

السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ
قَرِيبًا﴾ (٥)

٣٢ - يوم المعاد : أى الموعد الذى حدده الله ، فلا يخلفه

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٦)

(١) سورة غافر آية ١٨

(٢) سورة النجم ، آية ٥٧

(٣) سورة غافر ، آية ٣٢

(٤) سورة الاحزاب ، آية ٦٣

(٥) سورة غافر ، آية ١٥

(٦) سورة آل عمران ، آية ٩

٣٣ - يوم العدل : الذى لا ظلم فيه لأحد ، ويرجع الحق فيه لكل مظلوم ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾^(١)

٣٤ - يوم الرحمة : الذى ادخر الله عز وجل له من رحمته تسعة وتسعين جزءاً

﴿نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢)

٣٥ - يوم العذاب : الذى أعد الله فيه من العذاب للكافرين والظالمين والمجرمين ما لا يعلمه أحد سواه

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(٣)

٣٦ - يوم الشفاعة : إذ الله يملكها وحده

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾^(٤)

ثم يأذن الله عز وجل بالشفاعة للشفعاء

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٥)

٣٧ - يوم الوعيد : كما أنه يوم يتحقق فيه وعد الله للمؤمنين ، يتحقق وعيده على الكافرين

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾^(٦)

٣٨ - يوم الفرار : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(٢٠) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٢١) وَصَلَاتِيهِ وَبَنِيهِ

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٧)

(٢) سورة الحجر ، آية ٤٩ .

(٥) سورة الزمر ، آية ٤٤ .

(٦) سورة ق ، آية ٢٠ .

(١) سورة غافر ، آية ١٧ .

(٣) سورة الحجر ، آية ٥٠ .

(٥) سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .

(٧) سورة عبس ، آية ٣٤ - ٣٧ .

٣٩- وهو أمر الله : أى الحق الواقع لا محالة

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۖ ﴾ (١)

٤٠- وهو دار القرار : أى المستقر الأخير ، والقرار فيه إما جنة وإما نار

﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ (٢)

٤١- يوم الفتح :

﴿ قُلْ يَوْمَ الْقُدْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ

٤٢- يوم الخلود : وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (٣)

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ

يَوْمُ الْخُلُودِ ۖ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٤)

(١) سورة النحل ، آية ١

(٢) سورة غافر ، آية ٣٩

(٣) سورة السجدة ، آية ٢٩

(٤) سورة ق ، آية ٣٤ ، ٣٥

إمكان الفناء : هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، وما لم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التي لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحوادث مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل .

إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم ، إن التغير الجارى والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة - وهى نظرية علمية فى غاية الصحة - قد أثبت حدوث العالم ، وبالتالي قد أثبت وجود الله تعالى الأزلى ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبت حدوث العالم أثبت إمكان فناءه أيضاً ، إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هى أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى ، واستمرار هذه العملية سترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهى الحياة تلقائياً ، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدمه اللاابتدائى ، إذ لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمان بعيد ، وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضاً إمكان فناءه اللازم له ، والذي هو فى طريقه إليه ، لأن عملية إنتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة ، ولا بد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام ، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية ، وتنتهى الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

ودليل آخر : أن العالم كل له أجزاء ، ونحن نشاهد الفناء يجرى فى أجزائه باستمرار ، فالإنسان كالحیوان كالنبات كلها تفنى أماناً ، وتحت سمعنا وبصرنا ، ونفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع ، وهى قطعاً أجزاء من هذا العالم ، كما أننا نرى الزلازل من الفينة إلى الفينة يدمر مدناً وقرى كبيرة ، ويغير معالم

الأرض فى كثير من البلاد فى العالم ، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله ، إذ ما أمكن الفناء فى أجزائه أمكن فناءه كله .
وبناء على هذا فالיום الآخر ممكن الوقوع ، وهو مرتقب جداً ، وننتظر أنباءه ، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة ، وذلك لخراب العالم وفناؤه .

إمكان المعاد : هل المعاد ممكن ؟

ولم لا يكون ممكناً وإثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبداً ، وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً فهو من قبيل الجائز الإمكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضاً عقلياً ؟ وإذا كان الجواب : لا ، أبداً . فالمعاد إذاً - وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى - ممكن وجائز .

وشيء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لتصور وقوع الشيء موجوداً وغير موجود .
والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علته ، فهو أى المعاد إذاً ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلى ، والبرهان المنطقى ، إمكان البعث وجواز وقوعه وإليك الدليل .

لقد استدل القرآن الكريم على إمكانية البعث بعدة طرق ، ومن عدة جهات ، منها : أن هذا البعث وقع فى الدنيا حقيقة ، وهذا يشبه وقوعه فى الآخرة ، كما أقام الأدلة على إمكان البعث ووقوعه مما يوجب إثباته مع وجوب الإيمان به ،

وكذا بالرد على منكري البعث وتفنيد شبههم الباطلة .

واليك تفصيل هذه الجهات :

أولاً : وقوع بعث في الدنيا من بعد موت ، وإحياء من بعد إمانة ، وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم في سبعة مواضع :

١- الموضع الأول : في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَامُ يُمُوسَىٰ لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ۖ فَآخُذْكُمْ الصَّيْقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (١)

٢- الموضع الثاني : في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا نَفْسًا فَادْرَأْهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْمُونَ ۝ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ (٢)

٣- الموضع الثالث : في قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أُحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة ، آية ٥٥ ، ٥٦

(٢) سورة البقرة ، آية ٧٢ ، ٧٣

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٤٣

٤ - الموضع الرابع : فى قوله تعالى :

﴿ أُوَكَّلَ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِنَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتُ قَالَ لَيْتُ يَوْمًا أُبْعِثُ بَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى جِمَارِكَ وَلَخَعَلَكَا آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا الْحَمْدُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

٥ - الموضع الخامس : فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤَمِّنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾

٦ - الموضع السادس : فى قوله تعالى : على لسان عيسى عليه السلام

﴿ وَابْرِئْ أَلَاكُمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٣)

(١) سورة البقرة . آية ٢٥٩

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٦٠

(٣) سورة آل عمران ، آية ٤٩

وكذا في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ
الْأَكْصَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ (١)

٧ - الموضع السابع : في قوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ
الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ① إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى
الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا ② فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ③ ثُمَّ
بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَالِيتُهُمْ أَمْدًا ④ ﴾ (٢)

إلى أن يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ
أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا
إِذْ يَنْزِعُ عَنْهُمْ بُيُوتَهُمْ آمُرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رِزْقُهُمْ
أَنَامُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ③ ﴾ (٣)

اختصرت هذه المواضع في القرآن ، ولك أن تراجع تفسير الآيات في
مواضعها في كتب التفسير .

(١) سورة المائدة ، آية ١١٠

(٢) سورة الكهف آية ٩ - ١٢

(٣) سورة الكهف ، آية ٢١

ثانياً : أدلة القرآن الكريم على إمكانية البعث ووقوعه بالعقل مع النقل ، وذلك فى المواضع الآتية :

١ - قياس الإعادة على البدء : فالذى خلق أول مرة قادر على أن يعيد خلقه أيضاً مرة أخرى ، بل الإعادة أهون عليه من الخلق الأول .

﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ ^(١)

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ^(٢)

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ^(٣)

ولكن الإعادة أهون من البداية هذا فى حق الخلق ، أما فى حق الخالق جل وعلا فكل شيء أمامه هين ، لان أمره بين الكاف والنون

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٤)

ولذلك قال تعالى :

﴿ وَهُوَ

الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ^(٥)

كما قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ

قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ^(٦)

(٢) سورة الاعراف ، آية ٢٩

(٤) سورة النحل ، آية ٤٠

(٦) سورة يس ، آية ٧٨ ، ٧٩

(١) سورة ق ، آية ١٥

(٣) سورة الانبياء آية ١٠٤

(٥) سورة الروم ، آية ٢٧

وهذا قياس جلى واضح ، لا يحتاج إلى دليل يثبت ، فهناك خلق قد أنسى من تراب لا حياة فيه ، فالذى يوجد الحياة من تراب وجدت فيه الحياة من قبل ، ليس بأعجب من الإيجاد من تراب - بادية - بادية - لا عهد له بالحياة .
كما قال تعالى .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُسَوِّفُ وَمِنكُم مَّن يُرَدِّدْ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⑦

٢ - قياس الإعادة على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، فإن إيجاد النار في الشجر الأخضر الذى يقطر ماء ، يناسب الحياة التى تجري في الانسان والحرارة التى تسرى في دمه وروحه ، والقادر على هذا هو

الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّن الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ②

٣ - قياس قدرته على الإعادة ، على قدرته على خلق السموات والأرض بطريق الأولى ، فإن خلق الإنسان بالنسبة لخلق السموات والأرض يسير في قدرة الله تعالى ، وذلك من أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على خلق الإنسان مرة أخرى وإعادته إلى حياة أتم وأكمل . إن خلقه بالنسبة لخلقهم يسير فلم تستبعدون القدرة على الإعادة ؟ قال تعالى :

﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ

مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

كما قال :

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢)

٤ - قياس الإعادة بعد الموت باليقظة بعد النوم ، فالبعث ما هو إلا حياة جاءت عقب موت جاء بعد الحياة الدنيا : وكذلك الإنسان ينام ثم يستيقظ بعد النوم ، فالحياة شبيهة باليقظة . والموت شبيه بالنوم ، والعكس صحيح ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ

الَّذِي يَتَوَفَّيْكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثْكُمْ فِيهِ

لِيُقَضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣)

(٢) سورة يس . آية ٨١

(١) سورة غافر ، آية ٥٧

(٣) سورة الأنعام ، آية ٦٠

كما قال تعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى

الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾

ومعناه : أن الله تعالى يتوفى الأنفس عند الموت وعند النوم ، إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ويرسل النائمة إلى وقت ضربه لموتها ، فالأنفس التي يتوفاها هي التي نامت ، وما ماتت عند منامها ، وأما التي قضى عليها الموت فيمسكها ولا يردها إلى البدن ، والأنفس التي يتوفاها عند النوم يردها إلى البدن حين اليقظة ، وتبقى إلى أجل مسمى وهو وقت الموت .

إن النفس في وقت الموت ينقطع تعلقها عن ظاهر البدن وباطنه ، وأما في وقت النوم فلإنه ينقطع تعلقها به في ظاهره من بعض الوجوه ، ولا تنقطع عن باطن البدن ، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد ، إلا أن النوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه ، وهما يشتركان في كون كل منهما توفياً للنفس ، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة ، في صفات معينة ، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم ، ولذلك ختمت الآية بقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

٥ - قياس قدرته على الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها : انظر إلى الأرض الميتة عندما ترمى فيها البذر ، ثم ينزل عليها الغيث ، أو تسقى بالماء تراها قد اهتزت وأخذت زخرفها وازينت وأخرجت الزرع البهيج والفواكه اللذيذة وأنواع الرياحين والزهور الجميلة ، مع النخل الباسقات ، وحب الحصيد كذلك ، فمن جعل فيها مادة الحياة بعد الممات ، قادر على أن يخلق من تراب الأرض بشراً سوياً حياً ، وإن اختلفت الحياة وصورتها في كلا الجانبين ، فقد قاس سبحانه خلق الإنسان وإعادته مرة أخرى ، على خلق النبات وإحيائه من الموت ، وفي ذلك عبرة لمن أراد أن يتعظ أو يتدبر ، قال تعالى :

﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
 اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ
 آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ⑦ ﴾

كما قال سبحانه :

﴿ وَالْأَرْضُ
 مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ⑧
 نَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ⑨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا
 فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ⑩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ
 نَضِيدٌ ⑪ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ⑫ ﴾

(١) سورة الحج ، آية ٥ - ٧

(٢) سورة ق ، الآية : ٧ - ١١

وقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكُتَرَى الْأَرْضَ
خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي
الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

أى من الدلائل على تفرد الله بالعبادة وتوحده فى صفاته العليا ، حال الأرض حين خلوها عن المطر والنبات ، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وانتفخت ثم ظهر منها النبات أول ظهوره ، ثم تصدعت عنه ، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، والله على كل شيء قدير .

٦ - قياس الإعادة على الخلاف القائم فى البعث بطريق قياس الخلف : وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ (٣)

إن هذا الاختلاف القائم بين الخلائق ، مع اختلاف الطرق الموصلة إليه ، لا بد فيه من الوصول إلى الحقيقة ، ومعرفة الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، وذلك أمر لا بد منه فى حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، فهناك يرتفع الخلاف ، ويستبين الحق ، وتدرك جيداً أن أهل الإيمان والتوحيد هم على الحق

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٩

(٢) سورة النحل الآية ٢٨ ، ٢٩

وقد كانوا صادقين : « أن أهل الكفر والشرك كانوا على باطل ،

﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ الله أكبر .

٧ - الاستدلال باختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر ، والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يجرى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر ، لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة ، قال تعالى :

﴿ كُلِّ

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُجِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَسْعٌ الْغُورِ ﴾ (١)

كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا بَنَدُ وَالْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ

شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٢)

وهذه التكاليف الشرعية التي أمر الله عز وجل بها فمن الناس من قام بها خير قيام ، ومن الناس من لم يسأل بها أو يعطيها شيئا من الاهتمام ، وهذا وذلك لا يستويان في الجزاء أمام الملك العلام كما قال رب الأنام :

﴿ تَبٰرَكَ الَّذِي يَدۡبُرُ الْمُلۡكَ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ
الْمَوْتَ وَالْحَيٰوةَ اَسۡأَلُكُمْ اِيۡكُمْ اَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ اَعَزُّ مَقۡوَرٌ ﴾ (٣)

(٢) سورة يونس . الآية ٤

(١) سورة آل عمران . الآية ١٨٥

(٣) سورة الملك . الآية ١ - ٣

كما قال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْدُنَا تَعَالَيْتُمْ أَنْ تَخْلُقَنَا وَتَتَّبَعَنَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ إِيَّانَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

وكذلك قال : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٢)

كما اختلف الناس كذلك فيما بينهم ، وتفاوتوا تفاوتاً كبيراً في أرواقهم ، وآجالهم ، وأعمالهم ، وفي سعادتهم وشقائهم ، فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغني الثري ، ومنهم الفقير الشقي ، ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ومنهم المسيء ، إلى غير ذلك ، فليس من الحكمة ولا من العدل أو الرحمة أن يسوى بين هؤلاء أجمعين ، ومن ثم اقتضت حكمته سبحانه أن يكون البعث لتلقى الجزاء والاجر

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (٣)

ثالثاً : تنفيذ القرآن الكريم لمنكرى البعث والرد عليهم : إذ أنكر الكفار - أو كثير منهم - البعث ، وقالوا : إن الجسم مركب من مواد مجتمعة ، فإذا تفرقت تحلل الجسم ولا يمكن إعادته مرة أخرى ، وكيف يعيد الله هذه الأجزاء بعدما تفتت وصارت تراباً وعظاماً نخرة ؟ ، وكيف يجعلها خلقاً آخر ؟

وهم قد قاسوا الغائب على الشاهد ، وظنوا أنه إذا لم يكن في إمكانهم هم إعادة الحياة للميت ، فليس في مقدور الله تعالى أن يعيده مرة أخرى كذلك . وكذبوا ، فقد ذكر القرآن هذه الشبهة ورد عليها بالأدلة القاطعة لينتفع بها من

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٢) سورة القيامة ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة النجم ، الآية ٣١

شاء الله له النفع والنجاة ، قال سبحانه :

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْ نَأْتِيَنَا الْمَبْعُوثُونَ ^(٤٧)
أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ^(٤٨) قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ^(٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى
مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ^(١) ﴾

ثم يقول : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ^(٢) ﴾

كما قال سبحانه :

﴿ فَقَالَ
الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ^(٣) أَمْ ذَامِنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ ^(٤) ﴾

إلى أن يقول :

﴿ أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ^(٥) ﴾

فهذه الآيات الكريمة وغيرها تثبت بالدليل القاطع أن الإنسان له حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ، ينشأ الإنسان فيها خلقاً جديداً ، وأن قدرة الله سبحانه وتعالى أوسع بكثير مما قالوه ، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، بل إن عقولهم أنفسهم مخلوقة على نمط واحد بديع ، حيث كانت فيها قوة الفكر والتدبر ، فهي تدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى .

وفي تفسير سورة يس عند قوله تعالى :

(١) سورة الواقعة ، آية ٤٧ - ٥٠ .

(٢) سورة الواقعة ، آية ٦٢ .

(٣) سورة ق آية ٢ ، ٣ .

(٤) سورة ق ، آية ١٥ .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ
 قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ
 مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ
 نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مُنْقَذُونَ ۝ ﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ ۖ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾ (١)

قال الفخر الرازي : بدأ أولاً بإبطال استبعاد المنكرين للحشر بقوله ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ونسى خلقه من أننا خلقناه من تراب ، ومن نقطة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم الاعضاء المختلفة الصور والقوام ، وأودعناهم النطق والعقل للذين بهما استحقوا الإكرام ، فلم يستبعدوا إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، مع خلق الناطق العاقل من نقطة لم تكن محل حياة أصلاً ؟

ثم استبعدهم المعاد للفرق والتفتت ، دفع سبحانه هذا الاستبعاد من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم ، فقال ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾

أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب ، وبدأه الغريب ، وأما من استبعد الإعادة لأنه بعد العدم لم يبق الإنسان شيئاً ، فقد رد عليهم بقوله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ ۖ ﴾

فكما خلقه ولم يكن شيئاً مذكوراً ، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً .

* وأما من تفرقت أجزاؤه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وصار بعضه فى بطون السباع وبعضه فى بطون السمك ، أو أن إنساناً أكل آخر وصارت أجزاء

المأكول في أجزاء الأكل ، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الأكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للأكل أجزاء ، فقد رد سبحانه على هذه الشبهة بقوله :

﴿ وَهُوَ يَكْلِ كُلَّ شَيْءٍ عَالِمٌ ﴾

ذلك لأن في الأكل أجزاء أصلية ، وأجزاء فضلية ، وفي المأكول كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلى من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الأكل ، والأجزاء الأصلية للأكل هي ما كان له قبل الأكل ، والله يعلم الأصلى من الفضلى ، فيجمع الأجزاء الأصلية للأكل وينفخ فيه روحه ، ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول ، وينفخ فيه روحه ، وكذلك الجميع يجمع أجزاءهم المتفرقة في البقاع المتعددة ، بحكمته الشاملة ، وقدرته الكاملة .

* كذلك الإنسان يموت فتأكله الأرض ، وتختلط ذرات جسده بذرات التراب بعد أن صار الجسد تراباً كذلك ، وآخر يموت فيحرق ثم يذرى في الماء أو الهواء فكيف يعرف ، وكيف يجمع ؟

يجيب الله عز وجل على هذه الشبهة فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِيفٌ ^(١) ﴾

وفي السنة المطهرة ، «حكى النبي ﷺ حال رجل مات فأمر أولاده بحرقه وتذريته في البر والبحر ، ظناً منه أن الله لا يقدر على جمعه ، ففعلوا كما أوصى ، ولكن الله أمر البر أن يجمع ما فيه ، والبحر أن يجمع ما فيه ، ثم أوقفه الله بين يديه ، وسأله - وهو أعلم - أى عبدي : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : خشيتك يا رب وأنت أعلم ، فغفر الله تعالى له» ^(١) .

(١) سورة ق ، آية ٤

(٢) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن ، بنحوه .

* ثم عاد سبحانه وتعالى إلى تقرير دفع استبعادهم وإبطال شبههم فقال :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴾

فإن الإنسان له جسم يحس به ، وروح تسرى فيه ، وهى كحرارة تجرى فيه ، فإن استبعدتم وجود ذلك فيه فلا تستبعدوه ، فإن النار فى الشجر الأخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب ، فالله قادر على بعثكم بعد الموت ، وإن استبعدتم خلق جسم . فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه ، فإن الله خلق السموات والأرض ، ثم أشار إلى القدرة الكاملة والعلم الشامل المحيط بكل شئ ، بقوله ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

وأكد بيانه بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

حيث قالوا : لا يقدر أحد على مثل هذا ، قياساً للغائب على الشاهد ، فأظهر فساد تمثيلهم وتشبيههم ، فقال : فى الشاهد يكون الخلق بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ، ولا يقع إلا فى الأزمنة الممتدة ، والله سبحانه يخلق بكلمة « كن » فيكون فكيف تضربون له المثل بالأدنى ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، (١) ١ . هـ .

والخلاصة : أن البعث حقيقة يجب التسليم بها ، كما يجب الإيمان بها إيماناً حقاً ، لا ريب فيه ، كما قال تعالى :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٢)

وكذلك قال عز وجل :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٣)

(٢) سورة طه ، آية ٥٥

(١) تفسير الفخر الرازى «بتصرف» .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٢٥ .

فذلك من المسلمات التي يوقن بها المسلم ، والتي يشعر بها كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون أو المتبدون ، فهو شعور الجميع ، المفطور في الإنسان ، وهو كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذي دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

وكذلك ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح ، ومخاطبتها ، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجسمانية .

* وأيضاً : رؤى الناس المتعددة التي واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان ، هذه الرؤى لأموات الناس في المنام ، والحديث معهم ، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وإخبار الأموات من رآهم في منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية ، وتلك أدلة عقلية أحرثى من بعد الأدلة الشرعية التي ذكرناها .

وآخر الأدلة وأعظمها على البعث والجزاء ، والحياة الآخرة : أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله ﷺ ، إن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا يجد داعياً للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع في ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ أخبر الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر ، كما أخبر رسوله ﷺ بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذاً أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية ، وعن كل ما يجري فيها من بعث ، وحساب ، وجزاء ، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل ، إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيمًا للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيمًا للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات ، مما أخبر الله تعالى به وقرره في كل كتبه ، وعلى السنة

جميع رسله ، فالشك فيه ضرب من المرض العقلي ، والهبوط الشخصى ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

وبعد : فإن هذه الجولة السريعة فى آيات البعث فى القرآن الكريم ، قد أكدت أن الحياة الآخرة ما هى إلا من هذا النوع من الحياة ، وأن البعث إنما هو بالروح والجسد جميعاً ، وفى ذلك أبلغ رد على من ينكره ، ويلقى الشبه الواهية أمام تلك الحقائق الإلهية .

واقرا معى قول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا
مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُكُنَّا إِلَّا آلَ دَهْرٍ وَمَا لَهُمْ
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ ﴾ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُونَ
مَّا كَانُ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبُوا بَنَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٥ قُلِ اللَّهُ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنْ
أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٦ ﴾

وبجانب هذا ، فإن الاعضاء سوف تشهد على صاحبها يوم القيامة ، حيث ينطقها الله بقدرته القادرة ، قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٧ ﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ
أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ٢٨ ﴾

وقال سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ^(١)
 حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢) وَقَالُوا لَوْلَا جُودُكُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا
 اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٣) ﴾

ثم كيف يصح في العقل ألا يعاقب جسد في النار قاسمك لذاث الحياة ؟

وكيف لا يثاب جسد في الجنة شاركك البعد عن الشهوات المحرمة ؟

ومن لطائف هذا البحث ، أن بعض الفلاسفة المنكرين للبعث ، جاء لواحد من العلماء وسأله : إنك تؤمن بالبعث بعد الموت ، وتقول : إن الجسد يعاد مرة أخرى بعد أن يبلى ، فما هو الذي يترتب على هذه العقيدة ؟ إنى أرى أن البعث أو عدمه لا يترتب عليه فائدة ، فقال له العالم : إن كان هناك بعث فقد نجوت أنا، وهلكت أنت ، وإن لم يكن هناك بعث فقد نجونا جميعاً .

وأنشد آخر :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فليست بخاسر أو صح قولي فالخاسر عليكما

أ . هـ (٢)

(١) سورة فصلت ، آية ١٩ - ٢١

(٢) انظر بنوسع : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص ١٠٤ - ١٢١ ، وعقيدة المؤمن ص ٣١١ - ٣١٩

والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٦٤

الحكمة في المعاد :

إن الحكمة من المعاد الآخروى الذى هو بعث الخلائق بعد موتهم وفنائهم أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم ، بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، كما قال تعالى :

﴿ كُلُّ

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَمٌ عَالٍ الْعُرُوبِ ۝ (١)

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً فى أرزاقهم ، وأجالهم ، وأعمالهم ، وفى سعادتهم ، وشقائهم ، فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى . ومنهم العزيز ، ومنهم الدليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسىء ، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف ، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ، ولا يعيشون ، لكان ذلك منافعاً للحكمة ، مجاناً للعدل والرحمة ، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما فهما كائنان لا محالة ، فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما ، فى قوله سبحانه

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ

كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْجِزُوا قُلَّ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ

وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ (٢)

(١) سورة آل عمران . آية ١٨٥

(٢) سورة النباين ، آية ٧

وكذلك الناس يختلفون في هذه الحياة الدنيا ما بين مؤمن وكافر ، ومسلم ومشرک ، ومن يعبد الله ، ومن يعبد غيره ، ومن يتبع الرسول ﷺ ، ومن يكفر به ، ومن يعتقد أن عيسى عبد الله ورسوله ، ومن يزعم أنه إله أو ابن إله ، أو ثالث ثلاثة ، وغير ذلك ، وانكل يزعم أنه على حق وعلى صواب ، فمتى يستبين له الحق ؟ إنه يوم القيامة ، كما قال سبحانه :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن مِّمُّوتٌ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾﴾

* وجوب الإيمان باليوم الآخر :

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون ، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مذهشة ، من بعث الخلائق وحشرهم ، وحسابهم ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب ، بل هو أحد أركان ستة ، عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذا عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ ﴿٢٢﴾﴾

ولاهمية هذا المعتقد في حياة المؤمن ولآثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه
عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد
ذكره في عشرات السور منه ، وفي مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه ،
ومرة بتقريره ، وتأكيد مجيئه ، ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به

﴿ ذَالِكُمْ بِوَعْدِ اللَّهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (١)

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للمؤمنين به .

﴿ يَا آخِذِينَ بِإِيمَانِهِمُ لِلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجمله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير
هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك لقوله تعالى :

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣)

وكقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٤)

في عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فللت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة
الروح ، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس
شيئاً ، وأن من عدهما فقد عدم كل خير ، وأن من افتقدتهما فقد افتقد كل
عناصر الخير والفضيلة في نفسه وأصبح من شر البرية .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٥٩ ، وقبور ٢

(١) سورة الطلاق ، الآية ٢

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٧

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه ، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ، ولا لغيره ، وهو شر كله ، لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن إليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وبنائيع الفضيلة والكمال البشري (١).

أشراط الساعة «علاماتها»

إن لكل كائن حي كالإنسان والحيوان ، أو نام كالأشجار والنباتات ، علامات تظهر له دنو أجله وقرب ساعة هلاكه .

فالإنسان يشيب ويهرم ، ويمرض ويضعف ، ويكون ذلك علامة دنو أجله ، وقرب ساعة موته ، والحيوان فى غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف ويتأبه المرض فتسخور قواه ، وتنحل بنيته ويهلك . والنبات كالزراع مثلاً يصفر ويبس ، ثم يذوى ويسقط ويبود . هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكها وفناءها علامات تؤذن بقرب ذلك ، والكون وهو كل ، له (حتمًا) علامات تدل على قرب فناءه ، ووقت دماره وخرابه . وقد جاء الوحي الإلهي يذكر تلك العلامات ويأنها ونبهت الرسل عليها . ولفتت النظر إليها تحذيرًا وتعليمًا .

ففى القرآن الكريم يقول تعالى :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَ تَهُمْ
ذِكْرُهَا ۝ ﴾ (١)

فما هى أشراطها ؟ أو علاماتها ؟

للساعة علامات جاءت مع قرب نهاية الزمان ، وابتدأت منذ حين ، وهذه تعرف بالعلامات الصغرى ، وعلامات أخرى تأتى على مقربة من الساعة ، لها خطورتها وعظمتها مع توأليها غالبًا ، وهذه تعرف بالعلامات الكبرى .

أولاً : علامات الصغرى :

(أ) ما ظهر منها :

١ - بعثة النبي محمد ﷺ ، التي ختم له تعالى بها سائر النبوات ، فلا نبى بعده ، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين ، ولذا قال رسول الله ﷺ فى الصحيحين : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار إلى أصبعيه السبابة والوسطى ، وقرن بينهما » (١) .

٢ - انشقاق القمر ، آية له عليه الصلاة والسلام ، وقد كان شرطاً من أشراط الساعة ، لأن الله تعالى ذكره مقروناً بالإخبار باقتراب الساعة ، فقال تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ① فَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ③ ﴾ (٢)

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبي ﷺ ، حيث طلبت منه قریش آية تدل على نبوته فدعا الله فانشق القمر فلقطين على جبل أبى قبيس ، على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه » (٣) .

٣ - موت النبي ﷺ ، وقد عدها من علامات الساعة .

٤ - تحديد الرسول مدة الخلافة من بعده بثلاثين سنة ، ثم تحولها إلى ملكٍ عضوض قال ﷺ : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكاً » (٤) وقد كان

(١) حديث متفق عليه

(٢) سورة القمر ، آية ١ - ٣

(٣) حديث صحيح

(٤) رواه أحمد فى مسنده .

ذلك على يد أبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهم ، وتماها وختامها بسة أشهر وليها الحسن بن على بعد أبيه ، وعند تمام الثلاثين نزل عن الأمر لمعاوية بن أبى سفيان وقد قال ﷺ - والحسن ابن عليّ إلى جانبه على المنبر - : « ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وهكذا وقع سواء. ^(١)

وقد قال ﷺ : « إنه ستكون فيكم النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عرضاً ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة ، ثم سكت ﷺ » ^(٢) وقد كان من ذلك ما شاء الله ولم تبق إلا الخلافة .

٥ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان ، وتكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعواهما واحدة » ^(٣) والمراد بالفئتين : على ومن معه ، ومعاوية ومن معه رضى الله عنهم أجمعين ، والمقتلة العظيمة كانت بصفين .

٦ - قوله ﷺ في رواية مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكسر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل القتل » ^(٤) وهذه قتلى الحروب لا يعدون بالعشرات ولا بالمئات ، بل بالآلاف وعشرات الآلاف ومئاتها ، والملايين أيضاً ، فى حين أن قتلى حروب الإسلام الأولى التى كانت على عهد رسول الله ﷺ والتى دامت زهاء عشر سنوات ، لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب

(١) رواه البخارى

(٢) رواه أحمد ، والحافظ العراقي وقال هذا حديث صحيح

(٣) البخارى ومسلم

(٤) رواه مسلم

إحصائية وثيقة ذكرها غير واحد.

٧ - قوله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى »^(١) وقد ظهرت النار في المدينة واستمرت شهراً ، عام أربع وخمسين وستمائة من الهجرة ، في يوم الجمعة خامس جمادى الآخرة . كما وصفها ﷺ ، فقد شاهد الناس على ضوئها أعناق الإبل بالبصرة وهم في أرض الحجاز .^(٢)

٨ - ذكر إخباره ﷺ بالغيوب المستقبلية حتى قيام الساعة ، متمثلة في فرقة تقع ومعاصي ترتكب ، وبلاء يحل ، وجهل يظهر ، وأمور تحدث ، وموازين تقلب ومعايير تعكس . . إلخ ومنه قوله ﷺ: « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء ، قيل: ومن الغرباء ، قال : الترائع من القبائل »^(٣)

وقوله ﷺ: « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، قيل من هي يا رسول الله ؟ قال : ما عليه أنا وأصحابي »^(٤) .

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت يا رسول الله : «إنا كنا في جاهلية وشر ف جاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم، قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن ، قلت : وما دخنه ؟ فقال : قوم يهدون بغير هديي يُعرف منهم ويُتكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله . صفهم لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ،

(٢) النهاية في الفتن والملاحم ج١ ص٢٦

(٤) رواه أبو داود وغيره .

(١) رواه مسلم

(٣) رواه مسلم وغيره

قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم ، قلت : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ، قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» (١) .

وقوله ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » (٢) .

وقوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » أو « وهم على ذلك » (٣) .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إنه إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » (٤) .

وقوله ﷺ : « إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، وتشرب الخمر ، ويذهب الرجال وتبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد » (٥) .

وقوله ﷺ : « يامعشر المهاجرين : خمس خصال إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلبوا عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) رواه البخاري في المقاصد الحسنة وأبو داود في الملاحم والطبراني في الأوسط ، وسنده صحيح

(٣) رواه البخاري (٤) رواه البخاري

(٥) رواه البخاري ومسلم

أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله وسخروا بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» (١).

وقال ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » (٢).

وقوله ﷺ : « إذا اتخذ الفئء دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرمًا ، وتعلم العلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته وعق أمه ، وأدنى صديقه وأقصى أباه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمر ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسحاً وقدفاً وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع » (٣).

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما صلى صلاته ناداه رجل : متى الساعة ؟ فزجره رسول الله ﷺ وانتهره ، وقال : اسكت حتى إذا أسفر رفع طرفه إلى السماء ، فقال : تبارك رافعها ومدبرها ، ثم رمى ببصره إلى الأرض فقال : تبارك داحيها وخالقها ثم قال أين السائل عن الساعة ، فجثا الرجل على ركبتيه ، فقال أنا بأبى أنت وأمى سألتك ، فقال : « ذلك عند حيف الأئمة ، وتصديق بالنجوم وتكذيب بالقدر ، وحتى تتخذ الأمانة مغنماً ، والصدقة مغرمًا ، والفاحشة زيادة ، فعند ذلك هلك قومك » (٤).

(٢) رواه مسلم

(١) رواه ابن ماجه بسند صحيح

(٣) رواه الترمذى ، وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

(٤) رواه البزار وقال لا نعرفه إلا من هذا الوجه

وقوله ﷺ : « في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، فقال رجل من المسلمين : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمر » (١) .

وقوله ﷺ : « بادروا بالموت ، إمرة السفهاء ، وكثرة الشرط ، وبيع الحكم ، واستخفاف الذمم ، وقطيعة الرحم ، ووجود فئة يتخذون القرآن مزامير يقدمونه للناس يلهونهم به وإن كانوا أقل منهم فقهاً » (٢) .

وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد » (٣) .

وعن أسامة بن زيد قال : أشرف النبي ﷺ على أطم من أطام المدينة ، فقال : « هل ترون ما أرى ؟ قالوا : لا ، قال : فإنني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر » (٤) .

كما قال ﷺ : « يتقارب الزمان ، وينقص العلم ، ويبقى الشح ، وتظهر الفتن ويكثر الهرج ، قالوا : يا رسول الله إيماناً هو ؟ قال : القتل القتل » (٥) .

وقوله ﷺ : « لا يأتي على الناس زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم » (٦) .

وقوله ﷺ : « ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي ، من يشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأً أو معاداً فليعذ به » (٧) .

(١) رواه الترمذی وقال حديث غريب

(٢) رواه الامام أحمد وتفرد به

(٣) رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه

(٤) رواه البخارى ومسلم

(٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٦) رواه البخارى وكذلك الترمذی

(٧) رواه البخارى ، كتاب الفتن

وقوله ﷺ : « لا تفوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى مكانه » (١) .

وقوله ﷺ : « منعت العراق درهمها وقفيظها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأت وعدتم من حيث بدأت وعدتم من حيث بدأت » (٢) .

وقوله ﷺ : « لشوبان : كيف أنت - ياثوبان - إذا تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها ؟ فقال : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أمن قلة بنا ؟ قال : لا بل أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى فى قلوبكم الوهن ، قال : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : « حبكم الدنيا وكرهيتكم القتال » (٣) .

ومن علامات الساعة أيضاً : « حين لا يأمن الرجل جليسه » (٤) وكذلك : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان » (٥) وأيضاً : « إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له إنك ظالم ، فقد تودع منهم » (٦)

وكذلك : « حين يفيض المال فيكم حتى إن الرجل ليعطى عشرة آلاف ، يظل يسخطها » (٧)

وقوله ﷺ : « إن بين يدي الساعة كذابين ، منهم صاحب اليمامة ، وصاحب

(١) رواه البخارى

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه الامام احمد

(٤) رواه ابو داود

(٥) جزء من حديث فى الصحيحين

(٦) رواه احمد

(٧) رواه احمد ومسلم بنحوه

صنعاء العبسي ، ومنهم صاحب حمير ، ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة ^(١) .
وكذلك قال : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كل يزعم أنه رسول الله » ^(٢) وفي رواية : « وإنه سيكون في أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم الأنبياء لاني بعدى » ^(٣) .
وقوله ﷺ : « إن في أمتى لنبيفاً وسبعين داعياً كلهم داع إلى النار لو أشاء لانباتكم بأسمائهم وقبائلهم » ^(٤) .
وقال ﷺ : « إن أمام الدجال سنين خداعة ، يكذب فيها الصادق ، ويصدق فيها الكاذب فيخون فيها الأمين ويؤتمن فيها الخائن ، ويتكلم فيها الروبيضة ، قيل وما الروبيضة ؟ قال : الفويسق يتكلم في أمر العامة » ^(٥) .
وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يكون أحظى الناس بالدنيا لكع بن لكع » ^(٦) .
اللكع « اللثيم » وأن تفقد الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً البخاري .
وقوله ﷺ لمن سأله عن الساعة ، فقال : إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف إضاعتها؟ قال ﷺ : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » ^(٧) .
وأيضاً : « لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة أراذلها » ^(٨) .
وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان (تتزع بركته) ، فتكون السنة كالشهر

(١) تفرد به أحمد

(٢) رواه الإمام البخاري

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه أحمد والطبراني ، بإسناد لا بأس به

(٥) رواه الامام أحمد بإسناد جيد

(٦) رواه الامام أحمد بإسناد جيد قوى ، وكذا الترمذي بإسناد حسن

(٧) رواه البخاري

(٨) رواه الإمام أحمد ، وقيل سهل أن هذا الإسناد على شرط مسند

والجمعة كالיום ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كاحتراق السعفة ^(١) والسعفة: الخوصة أو الجريدة من النخل .

وقال ﷺ : « إن من علامات الساعة أن تعذب » تغيب « العقول وتنقص الأحلام » ^(٢)

وقوله ﷺ : « إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة ، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق ، وظهور الجهل » ^(٣) .

وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريعته من أهل الأرض فيبقى فيها عجاجة » رعا « لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً » ^(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل » ^(٥) .

وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما نعالهم الشعر ، وحتى تقاتلوا الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف ، وكان وجوههم المجان المطرقة وتحمدون خير الناس أشدهم كراهة لهذا الأمر حتى يدخل فيه ، والناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ، وليأتين على أحدكم زمان لأن يرانى أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله » ^(٦) .

(١) رواه أحمد ، على شرط مسلم

(٢) رواه الطبراني

(٣) رواه أحمد

(٤) رواه أحمد

(٥) رواه أبو داود

(٦) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي

ذلف الأنوف: قصرها وصغرها . المجان: جمع مجن وهو الترس والمطرقة: من طرق .

هذا وترك قد قاتلهم الصحابة فهزموهم وغنموهم وسبوا نساءهم وأبناءهم ، ويحتمل وقوع ذلك مرة ثانية بين يدي الساعة .

وقوله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يتدافع أهل المسجد للإمامة فلا يجدوا إماماً يصلى بهم » (١) .

وقال ﷺ : « كيف بكم وزمان أو شك أن يأتي يغربل الناس فيه غربلة ، والناس قد مرجت عهودهم واختلفوا فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه . قالوا : كيف بنا يا رسول الله ؟ قال : تأخذون بما تعرفون ، وتدعون ما تنكرون ، تقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم » (٢) .

ويقول ﷺ : « سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال ، ينزلون بها على أبواب المساجد ، نساؤهم كاسيات عاريات ، على رؤوسهن البخت العجاف . العنوهن فإنهن ملعونات » (٣) .

ويقول ﷺ : « ليكون قوم من أمتي يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » (٤) .

ويقول ﷺ : « إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق ، فليس لهم عند الله إلا النار » (٥) .

ويقول ﷺ : « يأتي زمان على الناس لا يبالي المرء فيه ماذا دخل جوفه » (٦) .

يقول ﷺ : « يأتي زمان على الناس من لم يأكل الربا أصيب بشره أو دخانه » (٧) .

وقال ﷺ : « سيأتي على الناس زمان لا يبالي المرء فيه أمن حل أخذ المال أم من حرام » (٨) .

(٢) رواه أبو داود

(٣) رواه أحمد والطبراني في الثلاثة ، ورجال أحمد رجال الصحيح

(٥) رواه البخاري

(٧) رواه الطبراني

(١) رواه أبو داود

(٤) رواه البخاري

(٦) رواه الطبراني

(٨) رواه البخاري

(ب) علامات صغرى ، لم تظهر بعد ومنها ما قد ظهر أيضاً :

* قوله ﷺ : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » (١) .
وقد أخذت هذه العلامة فى الظهور ، ووقع لعدد كثير من الناس ما حمله هذا الخبر النبوى الصادق .

* وقوله ﷺ : « ستفتحون من بعدى رومية والقسطنطينية ، فستل ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً : فقال ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً ، يعنى القسطنطينية » (٢)
هذا وقد فتحت القسطنطينية على يد « محمد الفاتح » سنة ١٤٥٣ م ، وقد بقي فتح رومية التى هى روما الفاتيكان ، وقد ذكر أن « القسطنطينية » ستفتح مرة ثانية * وقوله ﷺ : « ست من أشراط الساعة : موتى ، وفتح بيت المقدس ، وموت يأخذ فى الناس كقصاص الغنم وفتنة يدخل حريمها بيت كل مسلم ، وأن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها وأن يغدر الروم فيسيرون بشمانين بنداً ، تحت كل بند « لواء » اثنا عشر ألفاً » (٣) .

وقد تحقق منه قوله ﷺ : موتى ، كما تحقق فتح بيت المقدس ، لأول مرة على يد « عمر بن الخطاب » وبقي أن يفتح مرة ثانية ، كما تحقق الموت بالطاعون ، والفتنة فى كل بيت عن طريق الاعلام كذلك أن يعطى الرجل ألف دينار فيسخطها ، وبقي غدر الروم مع العرب ، وقد أخذت طريقها فى الظهور ، بظهور بوادرها ومقدماتها .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه الإمام أحمد والدارمى والحاكم ، وهو حسن الإسناد ، رويحه الحاكم

(٣) رواه الإمام أحمد

* وقوله ﷺ: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف»^(١) وهي حروب يكون للاعلام فيها دور كبير، وقد ظهر ذلك في حرب الخليج وغيرها وقد كان منها ما شاء الله، وبقي فيها ما هو أشد.

وفي رواية قال ﷺ: «إنه ستكون فتنة وستصيب العرب، قتلها في النار، وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف»^(٢) بدت واضحة في حرب الخليج والله أعلم.

* وقوله ﷺ: «لن تقوم الساعة حتى تصير أرض الحجاز مروجاً وأنهاراً»^(٣)

وقد تحقق منه الجزء الأول، فأرض الحجاز الآن - وقد كانت واديا غير ذي زرع- صارت بها مروج، أي مراعي وزروع وثمار وبقيت جزئية «الأنهار» التي تجري فيها لم تتحقق بعد، وهي في طريقها، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

* وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتل الناس عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلني أكون أنا الذي أنجز»^(٤). وهذه لم تظهر بعد.

* وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان، يسوق الناس بعصاه»^(٥).

وهذه العلامة لم تظهر بعد أيضاً.

* وقوله ﷺ: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا، وسيخرجون منه أفواجا»^(٦)

وهو وإن كان على ظاهره لم يتحقق بعد، لكن من ينظر إلى حال الكثير من

(٢) رواه أبو داود وأحمد

(٤) رواه مسلم

(٦) رواه أحمد

(١) رواه أبو داود

(٣) رواه مسلم وأحمد والحاكم

(٥) رواه البخاري ومسلم

المسلمين وقد ارتكبوا الشرك ، ووقعوا فى الكفر ، وفعلوا كل خصال النفاق ومظاهر الردة ، يرى أنه قد تحقق ، ولكن ربما هناك ما هو أشد من ذلك ، فيما يجد من الزمان أو بصورة مباشرة .

كقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذى الخلفة » (١)

وذو الخلفة : صنم كانت تعبد دوس فى الجاهلية بقبالة .

وهذه العلامة يرى بعض العلماء أنها قد ظهرت فى أرض الجزيرة العربية ، قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إذ عبدت الأشجار والأحجار وانتشر ذلك فى شتى بلاد العالم الإسلامى فذبحت الذبائح . وأوقدت الشموع ونذرت التذورات للمزارات والأضرحة والقبور ، بصورة عجيبة وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما يمكن أن تكون هذه العلامة لم تتحقق بحرفيتها بعد وإن ذلك سيكون .

كما قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلى ما زوى منها ، وإنى أعطيت الكثرين الأحمر والأبيض الذهب والفضة وإنى سألت ربى أن لا يهلكوا بسنة بعامة ، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم » كناية عن الإذلال والمهانة « وإن ربى عز وجل قال : يا محمد إنى إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمك أن لا أهلكهم بسنة عامة ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال : من بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً ، وإنما أخاف على أمتى الأئمة المضلين ، وإذا وضع فى أمتى السيف لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة ، ولا تقوم الساعة حتى تلحق

(١) رواه البخارى ومسلم

قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلَ مِنْ أُمَّتِي الْإِوثَانِ ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ ، كُلُّ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (١) .

* وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ الْفِتْنَ فَأَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الْأَحْلَاسِ (٢) ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ ؟ قَالَ : هِيَ حَرْبٌ وَهَرَبٌ (٣) ، ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَاءِ (٤) دَخَلَهَا (٥) أَوْ دَخَنَهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي ، وَلَيْسَ مِنِّي إِنَّمَا أَوْلِيَايَ الْمُتَّقُونَ ، ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسَ عَلَى رَجُلٍ كُورِكَ عَلَى ضُلْعٍ ، ثُمَّ فِتْنَةُ الدِّهْمَاءِ (٦) ، لَا تَدْعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمْتَهُ حَتَّى إِذَا قِيلَ انْقَضَتْ عَادَتُ يَصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَعَمْسِي كَافِرًا حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطِينَ (٧) فُسْطَاطُ إِيْمَانٍ لَا نِفَاقَ فِيهِ ، وَفُسْطَاطُ نِفَاقٍ لَا إِيْمَانَ فِيهِ ، فَإِذَا كَانَ ذَاكُم فَانْتَظَرُوا الدِّجَالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ (٨) .

* وَقَالَ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَحِجَّ الْبَيْتُ (٩) .

* وَقَوْلُهُ « يَخْرِبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّوَيْفَتَيْنِ مِنَ الْحَبْشَةِ ، وَيُسَلِّبُهَا حَلِيهَا وَيَجْرِدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا ، وَلَكَّانِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أَصِيلًا أَفِيدْعًا يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمَسَاحِيهِ وَمَعُولُهُ (١٠) .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد

(٢) المجلس : الذي يلي ظهر البعير تحت القتب ، ملازمة

(٣) بالفتح ، أى سلب المال والأهل

(٤) السراء : النعمة التي تسر الناس من وفرة المال والعافية

(٥) الدخل : الغش والعيب والفساد

(٦) الفسطة : الجماعة من الناس

(٧) رواه البخاري

(٨) تصغير دهماء ، وهى الداهية .

(٩) رواه أبو داود

(١٠) رواه أحمد بإسناد جيد قوى

ولكن هذه العلامة لا تكون إلا فى نهاية الزمان ، بعد أن يحج عيسى عليه السلام بيت الله الحرام .

* وقوله ﷺ : « لن تقوم الساعة حتى يخرج الرجل من عند أهله فيخبره شراك نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده »^(١) .

* وقوله ﷺ : « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول : من صعد قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صعد فلان وفلان وفلان »^(٢) .

* وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى غطر السماء مطراً ، لا تكن فيه بيوت المدر ، ولا تكن منه بيوت الشعر »^(٣) ولعل هذه العلامة بعد هلاك يأجوج ومأجوج ، كما ذكر فى الحديث عنهم .

* وقال ﷺ : « لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالى يقال له جهجاه »^(٤)

* وقوله ﷺ : « ليلغن هذا الأمر » أى الإسلام « ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله وذلاً يذل الله به الكفر وأهله »^(٥) .

* وقوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيختبئ اليهود خلف الشجر والحجر فينطق الشجر والحجر فيقول : يا مسلم ، يا عبد الله ، تعال ورأى يهودى فاقتله إلا شجر الغرقد فإنه من غرس اليهود »^(٦) .

(١) رواه الإمام أحمد

(٢) رواه أحمد فى مسنده

(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

(٤) رواه مسلم وأحمد

(٥) رواه أحمد والطبرانى والحاكم ، والحديث حسن صحيح على شرط مسلم

(٦) رواه مسلم وأحمد

ولعل هذه العلامة تتأخر بعض الشيء ، حتى يخرج آخر اليهود مع الدجال ، فتكون تلك العلامة وبها تكون نهاية اليهود فى الأرض .

* وقوله ﷺ : « تصالحون الروم صلحاً آمناً ، وتقهرون أنتم وهم عدواً من ورائهم ، فتسلمون وتغنمون ، ثم تنزلون بمرج ذى تلؤل فيقوم الرجل من الروم فيرفع الصليب ، ويقول الاغلب الصليب ، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله ، فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم فيجمعون لكم فيأتونكم فى ثمانين غاية ، مع كل غاية عشرة آلاف» (١) .

وفى رواية البخارى : « فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، كل غاية اثنا عشر ألفاً »
 * وفى الحديث أيضاً : « هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل فنادى عبدالله ابن مسعود قائلاً : جاءت الساعة وكان عبد الله متكئاً فجلس ، فقال : إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة ، قال : ثم قال بيده هكذا - أى أشار بها لى - ونحاهما نحو الشام ، وقال : عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام ، قلت : « الروم تعنى ؟ قال : نعم ويكون عند ذاكم القتال ردة شديدة قال : فيشترط المسلمون شرطه للموت لا ترجع إلا غالبه فيقتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ، وتنفى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطه للموت لا ترجع إلا غالبه ، فيقتلون ثم يبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ، وتنفى الشرطة ، ثم يشترط المسلمون شرطه للموت لا ترجع إلا غالبه فيقتلون حتى يحجز بينهم الليل فيبقى هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب ، وتنفى الشرطة ، فإذا كان اليوم الرابع نهد « نهض وتصدى » إليهم بقية أهل الإسلام ، فيجعل الله الدائرة عليهم فيقتلون مقتلة إما قال : لا ندرى مثلها ، وإما قال : لا يرى مثلها ، حتى إن الطائر ليرى بجنابتهم فما يخلفهم حتى

(١) رواه ابو داود وابن ماجه ، وبنحوه فى البخارى

يخر ميتًا ، فيعاد بنو الأرب كانوا مائة فلا يجدونه بقى منهم إلا الرجل الواحد فبأي غنيمة يفرح ، أو أي ميراث يقاسم . قال : فيبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك قال فجاءهم الصريخ « المستجد المستصرخ » أن الدجال قد خلفهم فى ذراريهم فيرفضون ما فى أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة ، قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم أسماءهم وأسماؤ آبائهم وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ »^(١) .

(١) رواه الإمام أحمد ، وتفرد بإخراجه مسلم .

فصل ومن العلامات التي لم تظهر بعد ، ظهور المهدي ،

من هو المهدي ؟

هو أحد الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، يكون في آخر الزمان ، وآخر الأئمة الاثني عشر ، وليس هو بالمتنظر الذي تزعم الروافض وترجى ظهوره من سرداب في سامرا ، فإن ذاك ما لا حقيقه له ولا عين ولا أثر ، وليس هو الذي تزعمه الشيعة ، وليس بالذي يزعم لنفسه أنه المهدي^(١) .

والمهدي : اسمه «محمد بن عبد الله» من ولد فاطمة ، من آل البيت ، يحكم الناس سنين عدداً يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ، وفي عهده يكثر الخير ويفيض المال . هذا وأحاديث المهدي - التي أمكن الوقوف عليها - خمسون حديثاً ، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر أو غير المنجبر . وهي بكثرتها تفيد "راتر المعنوي" ، وحديثنا هنا عن المهدي ينحصر في الصحيح^(٢) .
ومن ذلك :

* قوله ﷺ : «المهدي مني ، أجلى الجبهة أقرى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يملك سبع سنين»^(٣) .
* وقال ﷺ : «يخرج في آخر أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج

(١) نهاية الفتن والملاحم لابن كثير ج ١ ص ٤٩ بتصرف

(٢) المهدي المتنظر لأبي الفضل عبدالله بن محمد بن الصديق الغماري ص ٥ بتصرف

(٣) أخرجه أبو داود والحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه

الأرض نباتها ، ويعطى المال صحاحاً ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة ، يعيش سبعاً أو ثمانياً يعنى حججاً « (١) .

* وقال ﷺ : « لا تقرم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي ، أفنى ، يملا الأرض عدلاً كما ملئت قبله ظلماً ، يملك سبع سنين » (٢) .

* وقال ﷺ : « يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده » (٣) .

* وقال : « يخرج رجل من أمتي يقول بستی ينزل الله عز وجل له القطر من السماء وتخرج الأرض بركتها وتملا الأرض منه قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يعمل على هذه الأمة سبع سنين وينزل بيت المقدس » (٤) .

* وقال صلوات الله وسلامه عليه : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم - قال زائدة - لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي - زاد في حديث فطر - يملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » (٥) .

وفي رواية « لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي » (٦) .

وفي رواية « يخرج رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي ويُخلقه تُخلق فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » (٧) .

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، وأقره الحافظ الذهبي في التلخيص

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي سعيد الخدري

(٣) رواه مسلم في صحيحه

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم والأوسط ، ورجاله ثقات

(٥) رواه أبو داود وخرجه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن صحيح

(٦) رواه أبو داود والترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح

(٧) رواه ابن حبان

* وقال ﷺ: «المهدي من عترتي ، من ولد فاطمة ^(١) وفي رواية «المهدي من ولد فاطمة» ^(٢) .

* وعن أم سلمة قالت : سمعت النبي ﷺ : « يذكر المهدي فقال : نعم ، موثق ، وهو من بني فاطمة » ^(٣) .

* قال ﷺ: « يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة ، فيخرجونه وهو كاره ، فيبايعونه بين الركن والمقام ، ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه بين الركن والمقام ، ثم ينشأ رجل من قریش ، أخواله كلب ، فيبعث إليهم بعثاً فيظهرون عليهم ، وذلك بعث كلب ، والخبيثة لمن لم يشهد غنيمة كلب ، فيقسم المال ، ويعمل في الناس بسنة نبينهم ﷺ ، ويلقى الإسلام بجرانه إلى الأرض ، فيلبث سبع سنين ، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » ^(٤) .

* وقال ﷺ: « يكون في آخر امتي خليفة يحثي المال حثواً ، لا يعده عدداً ، قال - يعنى جابر بن عبد الله - قلت لابی نصره وأبى العلاء : أتريان أنه «عمر بن عبد العزيز» ؟ فقالا : لا » ^(٥) .

وفي رواية « يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده » ^(٦) .

* وقال ﷺ: « ينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي : تعال صل بنا ،

(١) أخرجه أبو داود

(٢) أخرجه ابن ماجه

(٣) أخرجه الحاكم وسكت عليه ، والذهبي ، وإسناده صحيح

(٤) رواه أبو داود ورجاله رجال الصحيحين ، وابن حبان في صحيحه بإسناد صحيح ، والطبراني بنحوه ورجاله رجال الصحيح

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله

(٦) أخرجه مسلم أيضاً ، والبخاري بإسناد صحيح

فيقول : ألا وأن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمه الله لهذه الأمة ^(١) وفي رواية « لا تزال طائفة من أمتي تقاتل على الحق ، حتى ينزل عيسى بن مريم عند طلوع الفجر ببيت المقدس ، ينزل على المهدي ، فيقال : تقدم يانبي السله فصل بنا ، فيقول : هذه الأمة أمراء بعضهم على بعض » ^(٢) .

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت : عبث رسول الله ﷺ في منامه ، فقلنا : يارسول الله صنعت في منامك شيئاً لم تكن تفعله ، فقال : « العجب أن أناساً من أمتي يؤمون البيت لرجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم ، فقلنا : يارسول الله ، إن الطريق قد يجمع الناس ، قال : نعم ، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل ، يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى ، يعثهم الله على نياتهم » ^(٣) .

* وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « أبشركم بالمهدي يبعث على اختلاف من الناس وازلازل ، فيملا الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض يقسم المال صحاحاً ، قال له رجل : ما صحاحاً ؟ قال : بالنوية بين الناس ويملا الله قلوب أمة محمد ﷺ غناءً ، ويسعهم عدله حتى يأمر منادياً فينادي فيقول : من له في مال حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلا رجل واحد ، فيقول : أنا فيقول : انت السدان ، يعنى الخازن ، فقل له : إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً فيقول له : احث حتى إذا جعله في حجره واتزره ، ندم ، فيقول : كنت أجشع أمة محمد ﷺ أو عجز عني ما وسعهم قال : فيرده ، فلا يقبل منه ، فيقال له : إنا لا نأخذ شيئاً أعطناه ، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير في العيش بعده ، أو

(١) أخرجه أبو نعيم في أخبار المهدي وغيره

(٢) أخرجه أبو عمرو الداني في سننه .

(٣) رواه البخاري ومسلم - واللفظ له . وخرج أبو بهلى نحوه بإسناد صحيح .

قال : ثم لا خير في الحياة بعده» (١) .

* وقال علي بن أبي طالب - وقد نظر إلى ابنه الحسن ، فقال : « إن ابني هذا سيد ، كما سماه رسول الله ﷺ وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ﷺ يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق ، يملا الأرض عدلاً» (٢) .

* وعن عبد الله قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ اغرورقت عيناه وتغير لونه ، قال : فقلت ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه ، فقال : «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون بعدى بلاءً وتشريداً وتطريداً ، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخبز فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً ، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج» (٣) .

* كما قال ﷺ : « يقتل عند كنزكم ثلاثة ، كلهم ابن خليفة لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقاتلونكم قتالاً لم يقاتله قوم ، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه ، قال : فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي» (٤) .

* وعن أبي سعيد ، قال رجل : والله ما يأتي علينا أمير إلا وهو شر من الماضي ، قال أبو سعيد ، فقلت : لولا شيء سمعته من رسول الله ﷺ لقلت مثل ما يقول ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن من أمرائكم أميراً يحشو المال

(١) أخرجه أحمد بأسانيد صحيحة ، وأبو يعلى بإسناد صحيح أيضاً ، كما قاله الحافظ الهيثمي ، وأبو نعيم في الأربعين التي جمعها في المهدي .

(٢) رواه أبو داود الذي أفرد كتاباً في سننه عن المهدي . وإسناده صحيح

(٣) رواه ابن ماجه

(٤) رواه ابن ماجه ، وهذا إسناد قوي صحيح ، لا يرد عليه أحد

حشواً ولا يعده ، يأتيه الرجل فيسأله فيقول خذ ، فيبسط ثوبه ، فيحشو فيه ، وبسط رسول الله ﷺ ملحفة غليظة كانت عليه يحكى صنع الرجل ثم جمع عليه أكتافها ، قال : فيأخذه ثم ينطلق ^(١) .

* هذا وقد أخرج نعيم بن حماد في كتاب الفتن بإسناد صحيح على شرط مسلم ، عن علي رضي الله عنه . قال : الفتن أربع فتنه السراء وفتنه الضراء ، وفتنة كذا وذكر معدن الذهب ، ثم يخرج رجل من عترة النبي ﷺ يصلح الله على يديه أمرهم .

* وذكر أيضاً في أخبار المهدي قوله : المهدي مولده بالمدينة ، من أهل بيت النبي ﷺ ، واسمه اسم النبي ﷺ ومهاجره بيت المقدس ، كث اللحية ، أكحل العينين ، براق الشيا ، في وجهه خال ، في كتفه علامة النبي ، يخرج براية النبي ﷺ من مرط معلمة سوداء مربعة لم تنشر منذ توفي رسول الله ﷺ ولا تنشر حتى يخرج المهدي ، يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة ، يضربون وجوه من خالفهم وأدبارهم ، يبعث وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

وفي زمانه يحج الناس ويقفون بعرفات ، وهم على غير إمام ، فينماهم نزول بمنى ، إذ أخذهم كالكلب « داء للكلب معروف » فثارت القبائل بعضهم إلى بعض ، فاقتلوا حتى تسيل العقبة دماً فيفزعون إلى خيرهم فيأتونه ، وهو ملصق وجهه إلى الكعبة يبكي ، كأنى أنظر إلى دموعي ، فيقولون : هلم إلينا فلنبايعك ، فيقول : ويحكمكم كم من عهد نقضتموه ، وكم من دم سفكتموه ، فيبايع كرهاً ، فإن أدركتموه فبائعوه ، فإنه المهدي في الأرض والمهدي في السماء وهو الذي يؤم عيسى ابن مريم عليه السلام .

يبايعه أول ما يبايعه سبعة من علماء الأمة من أفق شتى ، اجتمعوا على غير

(١) تفرد به أحمد من هذا الوجه

مبعاد لمبايعة المهدي فيبايعونه وهو كاره لذلك ، يفر منهم أكثر من مرة حتى يقولون له : إثمنا عليك ودمائنا في عنقك إن لم تمد يدك نبايعك ، فيجلس بين الركن والمقام ، فيمد يده فيبايع له ، فيلقى الله محبته في صدور الناس ، فيصير مع قوم أسدّ بالنهار ، ورهبان بالليل .

ثم تخرج رايات سود لبنى العباس ، ثم تخرج من خراسان أخرى سود ، فلانسهم سود وثيابهم بيض على مقدمتهم رجل يقال له شعيب بن صالح من قم ، يهزمون أصحاب السفيناني حتى ينزل بيت المقدس يوطىء للمهدي سلطانه ويمد إليه ثلاثمائة من الشام ، يكون بين خروجه وبين أن يسلم الأمر للمهدي اثنان وسبعون شهراً^(١).

وهناك آثار عن الصحابة والتابعين وأتباعهم ، رأينا أن نتركها استغناء عنها بما ذكرنا .

(١) أخرجه نعم بن حماد في كتاب الفتن ، بتصريف ، ولعل هذا مأخوذ من مجموع أحاديث عن المهدي ، ولا أستطيع الجزم بصحة كل ما قاله .

فموجز علامات الساعة الصغرى هي :

(أ) ما ظهر منها :

- ١ - بعثة النبي ﷺ .
- ٢ - انشقاق القمر .
- ٣ - موت النبي ﷺ .
- ٤ - الخلافة ثلاثون عامًا .
- ٥ - اقتتال فئتين من الصحابة .
- ٦ - كثرة القتل .
- ٧ - افتتاح المسجد الأقصى .
- ٨ - خروج نار من أرض الحجاز .
- ٩ - غربة الإسلام .
- ١٠ - فرقة الأمة .
- ١١ - البعد عن الهدى .
- ١٢ - الدعوة إلى الضلال .
- ١٣ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- ١٤ - جعل المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً .
- ١٥ - تجديد أمر الدين على رأس كل مائة سنة .
- ١٦ - ظهور طائفة بالحق إلى يوم الدين .
- ١٧ - رفع العلم ، أو ندرته .
- ١٨ - ظهور الجهل وفشوه .
- ١٩ - فشو الزنا وكثرته .
- ٢٠ - شرب الخمر بغير اسمه .
- ٢١ - كثرة النساء على الرجال .
- ٢٢ - قوامة النساء على الرجال .
- ٢٣ - كثرة الطاعون والأمراض .
- ٢٤ - انتشار المجاعة وشدة المؤونة .
- ٢٥ - جور السلطان .
- ٢٦ - قيادة السفه ، وزعامة الأراذل .
- ٢٧ - تولى الروبيضة الفاسق أمر الناس .
- ٢٨ - تعذيب أهل الإيمان بالسياط .
- ٢٩ - خروج النساء كاسيات عاريات .
- ٣٠ - منع زكاة الأموال .
- ٣١ - نقص المكيال والميزان .
- ٣٢ - نقض عهد الله وعهد رسوله .
- ٣٣ - تسلط العدو على المسلمين .
- ٣٤ - شدة البأس بين المسلمين .
- ٣٥ - احتلال العدو لأرضنا .
- ٣٦ - انتهاك الكفار لعرضنا .

- ٣٧ - أخذ اليهود لبعض ما فى أيدينا .
 ٣٨ - سلب بعض مقدساتنا .
 ٣٩ - إذا اتخذ الفىء « الخير » دولا .
 ٤٠ - اتخاذ الأمانة مغنما .
 ٤١ - وجعل الزكاة مغرما ودينا ثقيلا .
 ٤٢ - تعلم العلم لغير الدين .
 ٤٣ - طاعة الرجل لامراته مع عقوق أمه .
 ٤٤ - قرب الصديق مع البعد عن الأب .
 ٤٥ - كثرة الأصوات فى المساجد وارتفاعها .
 ٤٦ - إكرام الرجل مخافة شره .
 ٤٧ - كثرة المغنيات والراقصات .
 ٤٨ - انتشار الغناء والمعازف .
 ٤٩ - سب السلف الصالح .
 ٥٠ - ظهور الريح الحمراء .
 ٥١ - كثرة الزلازل .
 ٥٢ - كثرة الخسف والمسح والقذف .
 ٥٣ - التصديق بالنجوم .
 ٥٤ - التكذيب بالقدر .
 ٥٥ - كثرة الشرط .
 ٥٦ - بيع الحكم .
 ٥٧ - استخفاف الذم .
 ٥٨ - قطيعة الرحم .
- ٥٩ - اتخاذ القرآن مزامير للتلهى والتطريب .
 ٦٠ - كثرة القراء وقلة الفقهاء .
 ٦١ - زخرفة المساجد والتباهى بها .
 ٦٢ - تزين المحارب وزخرفتها .
 ٦٣ - تزين المصاحف وكثرتها .
 ٦٤ - كثرة الفتن كوقع المطر .
 ٦٥ - تقارب الزمان ومحور بركته .
 ٦٦ - كثرة الشح والبخل .
 ٦٧ - انتشار الشر وزيادته عما كان قبله .
 ٦٨ - أن يحسد الحى الميت لكثرة الفتن .
 ٦٩ - فتح العراق ، ومجىء خير منها ثم تمنعه .
 ٧٠ - فتح الشام ومجىء خير منها ثم تمنعه .
 ٧١ - فتح مصر ومجىء خير منها للحجاز ثم تمنعه .
 ٧٢ - تداعى الأمم على المسلمين .
 ٧٣ - كثرة المسلمين مع الوهن والضعف .
 ٧٤ - انتشار حب الدنيا وخوف الموت .
 ٧٥ - كراهية القتال ، وترك الجهاد .
 ٧٦ - لا يأمن الرجل جليسه .

- ٧٧ - انقلاب الأمور وانعكاس المعايير .
٩٥ - لا يوجد من يتقدم للإمامة من الجمع الكثير .
- ٧٨ - أن تلد الأمة ربتها .
٩٦ - إذا ضاعت الأمانة .
- ٧٩ - تطاول الحفاة العراة فى البنيان .
٩٧ - إذا مرجت العهود ، وخلفت العشرة الآف .
- ٨٠ - كثرة المال حتى يسخط الرجل .
٩٨ - فتح القسطنطينية .
- ٨١ - وجود من يدعى النبوة حتى الثلاثين .
٩٩ - انتشار الزراعة فى أرض الحجاز .
- ٨٢ - وجود دعاة إلى النار .
١٠٠ - بيع الدين بعرض من الدنيا .
- ٨٣ - تكذيب الصباقد وتصديق الكاذب .
١٠١ - اختلاط الحرام بالحلال .
- ٨٤ - خيانة الأمين واثمان الخائن .
١٠٢ - من لم يصب بنار الربا أصيب بدخانته وشره .
- ٨٥ - سادة الدنيا هم اللثام واللكع .
١٠٣ - استحلال الزنا والغنا والخنا .
- ٨٦ - إذا وسد الأمر إلى غير أهله .
١٠٤ - استحلال الذهب والحريير للرجال .
- ٨٧ - غياب العقول ونقص الأحلام .
١٠٥ - فصل الدين عن الدولة .
- ٨٨ - تسليم الخاصة .
١٠٦ - ظهور السيارات والقطارات والطائرات .
- ٨٩ - فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها .
١٠٧ - وجود أشباه الرجال .
- ٩٠ - كثرة شهادة الزور .
١٠٨ - أكل أموال الناس بالباطل .
- ٩١ - كتمان شهادة الحق .
١٠٩ - عودة الحياة لبدائها .
- ٩٢ - رفع الشريعة من أهل الأرض .
١١٠ - الحروب بالسيوف والخيول ، كما فى الأحاديث .
- ٩٣ - كثرة الرعاع الذين يتبعون كل ناعق .
١١١ - استيلاء الحرام على أموال الخلق .
- ٩٤ - قتال الترك .

١١٣ - طلب الدنيا بعمل الآخرة .

١١٤ - ذهاب الخشوع .

١١٢ - إمامة الصلاة .

ما لم يظهر منها بعد :

١٢ - عودة مظاهر الوثنية فى هذه الأمة

١٣ - ثم انتشار الاسلام وبلوغه كل الأرض .

١٤ - كثرة الحروب بين يدى الساعة .

١٥ - فتنة الأحلاس بالحرب والهرب .

١٦ - فتنة السراء بالنعمة ووفرة المال .

١٧ - فتنة الدهيماء التى تعم .

١٨ - كثرة الصواعق عند اقتراب الساعة .

١٩ - مقاتلة اليهود حتى ينطق الشجر والحجر .

٢٠ - عدم حج بيت الله الحرام .

٢١ - كثرة القذف بالحجارة .

٢٢ - وجود المسخ فى الناس قردة وخنازير .

٢٣ - ظهور المهدي .

١ - فتح رومية « روما » .

٢ - غدر الروم وقتالهم تحت ثمانين راية فى كل راية اثنا عشر ألفاً .

٣ - فتح بيت المقدس ، مرة ثانية .

٤ - فتح القسطنطينية مرة ثانية .

٥ - فتنة تدخل كل بيت .

٦ - فتنة تصيب العرب ، قتلها فى النار .

٧ - وجود أنهار فى أرض الحجاز .

٨ - انحسار الفرات عن جبل من ذهب وتكون عنده مقتلة عظيمة .

٩ - خروج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه .

١٠ - تخريب الكعبة على يد ذى السويقتين .

١١ - خروج الناس من الدين أفواجاً .

ثانيًا : علامات الساعة الكبرى

وهي العلامات التي تسبق زلزلة الساعة ، ويعجب لها الناس ، كما تتوالى في أغلبها وأهمها :

- ١ - خروج المسيح الدجال
 - ٢ - نزول عيسى بن مريم
 - ٣ - خروج يأجوج ومأجوج
 - ٤ - نزول دخان من السماء
 - ٥ - طلوع الشمس من مغربها
 - ٦ - خروج الدابة على الناس ضحى
 - ٧ - محو القرآن من الصدور والسطور
 - ٨ - مجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين
 - ٩ ، ١٠ ، ١١ - ثلاثة خسوف عظيمة ، بالشرق والمغرب ، وجزيرة العرب .
 - ١٢ - خروج نار من أرض المشرق تسوق الناس إلى أرض المحشر
- وقد ورد جل هذه العلامات في حديث واحد للنبي ﷺ . عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال : « لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسفًا بالمغرب وخسفًا بالشرق وخسفًا بجزيرة العرب ، ونارا تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » (١) .

(١) رواه الإمام مسلم والترمذي وأحمد

وأما علامة محو القرآن ، فقد وردت في قوله ﷺ : « ويسرى النسيان على الكتاب في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آية .. ثم يعود القرآن من حيث جاء ، وله دوى عند العرش »^(١) .

أما علامة الريح الطيبة ، فقد قال ﷺ في الحديث : « ثم تأتي ريح طيبة من تحت آباط المؤمنين فيموتون كنفس واحدة »^(٢) .

وقال أيضاً : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس »^(٣) وكذلك : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله »^(٤) وفي رواية « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله »^(٥)

وأما تفصيل القول في هذه العلامات ، فهو على النحو التالي : نقول وبالله تعالى التوفيق :

أولاً : خروج المسيح الدجال

(أ) أمور تسبق الدجال :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق »^(٦) فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فلإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون ، والله لا نخلو بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً ، فيفتجون قسطنطينية ، فيسما يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان أن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون

(٢) رواه الامام مسلم

(٤) رواه مسلم واحمد

(٦) الأعماق ودابق موضعان في بلاد سوريا قرب حلب

(١) رواه ابن ماجة بسند صحيح

(٣) رواه مسلم واحمد

(٥) رواه مسلم والترمذى واحمد

وذاك باطل ، فإذا جاءوا الشام خرج فيمنما يعدون للقتال ويسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى ابن مريم فأمهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانداب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته»^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفاً من بنى إسحاق فإذا جاوزوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم وإنما قالوا « لا إله إلا الله والله أكبر » فيسقط أحد جانبيها - قال ثور : ولا أعلمه إلا قال الذي في البحر - ثم يقولوا الثانية « لا إله إلا الله والله أكبر » فيسقط جانبها الآخر ، ثم يقولوا الثالثة « لا إله إلا الله ، والله أكبر » فيفرج لهم فيدخلون فيغنون فيمنما هم يقسمون الغنائم إذ جاءهم الصريخ ، فقال : إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون »^(٢) .

وقال ﷺ : « تغزون جزيرة البحر فيفتحها الله ، ثم فارس فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحها الله »^(٣) .

وقال ﷺ : « عمران بيت المقدس خراب يشرب ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ، قال ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه ثم قال : « إن هذا الحق مثل ما إنك هاهنا ، أو كما أنك قاعد »^(٤) .

وقام ﷺ خطيباً فتكلم عن مسيلمة ، قال : أما بعد ، ففى بيان هذا الرجل الذي قد أكثرتم فيه ، أنه كذاب من ثلاثين كذاباً يخرجون بين يدي الساعة ، وأنه ليس بلد إلا يبلغها رعب المسيح »^(٥)

(١) رواه مسلم

(٢) رواه أبو داود

(١) رواه مسلم

(٣) رواه مسلم

(٥) رواه أحمد

وقوله ﷺ كما سبق : « إن أمام الدجال سنين خداعة يُكذَّب فيها الصادق ويُصدَّق فيها الكاذب فيُخَوَّن فيها الأمين ويؤتمن الخائن ويتكلم فيها الروبيضة قيل وما الروبيضة ؟ قال : الفويسق يتكلم في أمر العامة » (١) .

(ب) من هو المسيح الدجال ؟

هو رجل من بنى آدم ، خلقه الله تعالى ليكون معنة للناس في آخر الزمان

﴿ يَضِلُّ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ يَدِي بِهِ كَثِيرٌ وَمَا يَضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢)

حتى حذر منه « نوح » عليه السلام ثم يؤذن له في الخروج بين يدي الساعة في آخر الزمان بعد فتح المسلمين مدينة الروم المسماة بقسطنطينية ، فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة منها يقال لها اليهودية وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي عليهم الأسلحة والتيجان ، وكذلك ينصره سبعون ألفاً من التتار ، وخلق من أهل خراسان ، فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ، ثم يدعى النبوة ثم يدعى الربوبية فيتبعه على ذلك الجبهة من بنى آدم والطغام من الرعاع والعوام ، ويخالفه ويرد عليه من هدى الله من عباده الصالحين وحزب الله المتقين .

ياخذ البلاد بلداً بلداً وحصناً حصناً وإقليماً إقليمياً ، ولا يبقى بلد من البلاد إلا وطئه بخيله ورجله غير مكة والمدينة ، ومدة مقامه في الأرض أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيام الناس هذه ، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف شهر ، هذا وصفته أنه رجل عظيم الخلقة ، قبيح المنظر أعور العين ، مكتوب على جبينه « كافر » .

وقد خلق الله تعالى على يديه خوارق كثيرة ، يضل بها من يشاء من خلقه ويثبت معها المؤمنون ، فيزدادون بها إيماناً مع إيمانهم ، وهدى إلى هداهم .

ويكون نزول « عيسى ابن مريم » مسيح الهدى - فى أيام المسيح الدجال - مسيح الضلالة - على المنارة الشرقية بدمشق ، فيجتمع عليه المؤمنون ، ويلتف به عباد الله المتقون ، فيسير بهم المسيح عيسى ابن مريم ، قاصداً نحو الدجال ، وقد توجه نحو بيت المقدس فيدركهم عند عقبة « أفيق » فينهزم منه الدجال ، فيلحقه عند مدينة باب لد ، فيقتله بحرته ، وهو داخل إليها ويقول إن لى فيك ضربة لن تفوتنى ، وإذا واجه الدجال ينماح « يذوب » كما يذوب الملح فى الماء فيتداركه ، فيقتله بالحرية بباب لد فتكون وفاته هناك ، لعنه الله ^(١) كما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح من غير وجه ، كما سنذكره إن شاء الله .

(ج) أول أمر الدجال :

وخرج الإمام مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت : « .. سمعت المنادى - منادى رسول الله ﷺ - ينادى الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ فكننت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال : ليلزم كل إنسان مصلاه ، ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرغبة ، ولكن لأن تميم الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال . حدثنى أنه ركب البحر فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ، ثم أرسوا إلى جزيرة فى البحر حيث تغرب الشمس فجلسوا فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقبهم شىء أهلب ، كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقالوا : وبلك ما أنت ؟ قالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل بالدير فإنه إلى خبركم

(١) نهاية الفتن والملامح لابن كثير ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٤ بتصرف

بالاشواق ، قال : فلما سميت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً ، وأشدّه وثاقاً ، مجموعة يده إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد قلنا وملك ما أنت ؟ قال : قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم « هاج » فلعب بنا الموج شهراً ثم أرفأنا « الجانا » إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا في أقربها ، فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلك كثيرة الشعر ، ما ندرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر ، فقلنا وملك ما أنت ؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالاشواق فأقبلنا إليكم سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة .

فقالت : أخبروني عن نخل ييسان ؟ فقلنا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : أسألکم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا له : نعم ، قال : أما إنه يوشك أن لا يثمر . قال : أخبروني عن بحيرة الطبرية ؟ قلنا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قالوا : هى كثيرة الماء ، قال : إن ماءها يوشك أن يذهب .

قال : أخبروني عن عين رُغَر ؟ قالوا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل فى العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها .

قال : أخبروني عن نبي الأمين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل بيثرب : قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه قال : قال لهم : قد كان ذاك ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إنه خير لهم أن يطيعوه ، وإنى مخبركم عنى ، إنى أنا المسيح ، وإنى يوشك أن يؤذن لى فى الخروج ، فأخرج فأسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاها ، كلما أردت أن أدخل

واحدة أو إحداهما استقبلني ملك بيده السيف صلتاً « صقيلاً ماضياً » يصدني عنها وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها .

قال : قال رسول الله ﷺ - وطعن بمخصرته في المنبر - هذه طيبة - يعني المدينة ، ألا هل كنت حدثكم ذلك ؟ فقال الناس : نعم ، قال : إنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ، وأوماً بيده إلى المشرق .

قالت : فحفظت هذا من رسول الله ﷺ (١) .

(د) صفة الدجال :

عن عبد الله بن عمر قال : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأتى على الله بما هو له أهل ، ثم ذكر الدجال فقال : « إني لأنذركموه ، ما من نبي إلا وقد أنذر قومه ، لقد أنذره نوح قومه ، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، تعلموا أنه أعور وإن الله ليس بأعور » (٢)

كما قال ﷺ عنه « إنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه من كره عمله ، أو يقرؤه كل مؤمن ، وقال : تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت » (٣)

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهرائي الناس فقال : « إن الله ليس بأعور ، إلا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كان عينه عنة طافية » (٤)

وقال ﷺ : « ما من نبي إلا قد أنذر أمته الأعور الكذاب ، ألا إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر » (٥) .

وقال ﷺ : « الدجال ممسوح العين ، مكتوب بين عينيه كافر ، ثم تهجاها :

(٢) رواه مسلم

(٤) رواه مسلم

(١) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه

(٣) رواه مسلم وأحمد

(٥) رواه البخاري ومسلم

كافر ، يقرؤها كل مسلم ،^(١) .

وقال ﷺ : « لما أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأى العين ماء أبيض والآخر رأى العين نار تاجع فإما أدركم أحدكم فليأت الذي رأى ناراً ، وليغمض ثم ليطأطأ رأسه فيشرب فإنه ماء بارد ، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب »^(٢) .

وقال ﷺ : « ألا أخبركم عن الدجال حديثاً ما حدثه نبي قومه ، إنه أعور ، وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار فالتى يقول إنها الجنة هي النار وأنى أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه »^(٣) .

(هـ) خروج الدجال :

قال ﷺ : « يخرج الدجال في خفة من الندين وإدبار من العلم ، وله أربعون ليلة يسبحها في الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ، ثم سائر أيامه كأيامكم هذه ، وله حمار يركبه عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً فيقول للناس أنا ربكم ، وهو أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كَفَرٌ بهجاء يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب ، يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة ، حرهما الله عليه ، وقامت الملائكة بأبوابهما ومعه جبال من خبز ، والناس في جهد إلا من اتبعه ، ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول له الجنة ونهر يقول له النار فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهي النار ومن أدخل الذي يسميه النار فهي الجنة ، قال : وسمعت معه شياطين تكلم الناس ، ومعه فتنة عظيمة ، يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفساً ثم يحييها

(٢) رواه مسلم عن حذيفة

(١) رواه مسلم

(٣) رواه مسلم

فيما يرى الناس ، ويقول للناس : هل يفعل مثل هذا إلا الرب ؟ قال : فيفد المسلمون إلى جبل الدخان بالشام فيأتيهم فيحاصروهم فيشدد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً ، ثم ينزل عيسى ابن مريم فينا من السحر ، فيقول : يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الحبيث ، فيقولون : هذا رجل حى فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم فتقام الصلاة فيقال له : تقدم يا روح الله فيقول : ليتقدم إمامكم ليصلي بكم فإذا صلوا صلاة الصبح خرجوا إليه قال : فحين يراه الكذاب ، ينمات « يذوب » كما ينمات الملح في الماء فيمشى إليه فيقتله ، حتى إن الشجرة والحجر ينادى يا روح الله هذا يهودى ، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله ^(١).

وعن أبى أمامة الباهلى قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه ، فكان من قوله أن قال : « إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال ، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر من الدجال ، وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا بين أظهركم فانا حجيج لكل مسلم ، وإن يخرج من بعدى فكل حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم ، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيبعث يميناً وشمالاً ، يعباد الله أيها الناس فاثبتوا وإنى سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبي قبلى ، إنه يبدأ فيقول : أنا نبي ولا نبي بعدى ، ثم يثنى فيقول : أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا . وإنه أعور ، وإن ربكم عز وجل ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب ، وإن من فتنته أن معه جنة وناراً ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم ، وإن من فتنته أن يقول لأعرابى أرايت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أنى ربك ؟ فيقول له : نعم فيتمثل له شيطانان فى صورة أبيه وأمه فيقولان : يا بنى اتبعه فإنه

(١) رواه أحمد وتفرد به .

ربك . وإن من فتته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها ينشرها بالمشار ثم يلقيها شقتين ، ثم يقول انظروا إلى عبدى فأنى أبتعه الآن ، ثم يزعم أن له رباً غيرى ، فيبعثه الله ، فيقول له الخبيث من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، وأنت عدو الله الدجال ، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك منى اليوم .

ثم قال ﷺ : ذاك الرجل أرفع أمتى درجة فى الجنة .

قال : ومن فتته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت . وإن من فتته أن يمر بالحق فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت ، وإن من فتته أن يمر بالحق فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ، حتى تروح عليهم مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمدّه خواصر ، وأدره ضروراً ، وإنه لا يبقى من الأرض شيئاً إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلّة حتى ينزل عند الطريب الأحمر عند منقطع السبخة ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه فينقى الخبث منها كما ينقى الكير خبث الحديد ، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص .

فقال أم شريك ابنة أبى العسكر : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل ، وجلهم ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح فبينما إمامهم قد تقدم فصلّى الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم ، فرجع ذلك الإمام يمشى القهقرى ، ليتقدم بهم عيسى يصلّى ، فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ، فيقول له : تقدم فصل فإنها لك أقيمت ، فيصلّى بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى : أقيموا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، وينطلق هارباً ، ويقول عيسى : إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها ، فيدركه عند

باب الدار الشرقى فيقتله ، فيهزم الله اليهود فلا يبقى شيء بها خلق الله يتوارى به يهودى إلا أنطق الله الشيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة - إلا الغرقة فإنها من شجرهم لا تنطق - إلا قال : يا عبد الله المسلم ، هذا يهودى فتعال فاقتله . . . الحديث بتمامه (١) .

وقال ﷺ : « يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفاً من اليهود عليهم التيجان » (٢)

وقال ﷺ : « إن الدجال يخرج فى أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة » (٣)

وقال ﷺ : « ينزل الدجال فى هذه السبخة فيكون أكثر من يخرج إليه من النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى زوجه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه فيسلط الله المسلمين عليه ، فيقتلونه ويقتلون شيعته حتى إن اليهودى ليختبئ تحت الشجرة والحجر فيقول الحجر والشجرة للمسلمين : هذا يهودى تحتى فاقتله » (٤) .

(و) لماذا لم يذكر الدجال صراحة في القرآن الكريم ؟

ولعل سائلاً يسأل : ما الحكمة فى أن الدجال - مع كثرة شره وفجوره ، وانتشار أمره وشدة خطره وعظيم فتنته ودعواه الربوبية ، وهو فى ذلك ظاهر الكذب والافتراء وقد حذر منه جميع الأنبياء - لم يذكر فى القرآن ويحذر منه ويصرح باسمه وينوه بكذبه وعناده ؟

(١) رواه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب فتنه الدجال وخروج عيسى . رقم ٤٠٧٧ .

(٢) رواه أحمد

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه

(٤) رواه أحمد

والجواب من وجوه :

أحدها : أنه قد أشير إلى ذكره في قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ
لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا ۗ ﴾ (١)

جاء في تفسيرها ما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : الدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها » (٢)

الثانى : أن عيسى ابن مريم ينزل من السماء الدنيا فيقتل الدجال ، كما تقدم وكما سيأتى وقد ذكر في القرآن نزوله في قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ
مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (٣)

وقد قررنا في التفسير أن الضمير فى قوله « قبل موته » عائد على عيسى ، أى سينزل إلى الأرض ويؤمن به أهل الكتاب الذين اختلفوا فيه اختلافاً متبايناً ، فمن مدعى الإلهية كالنصارى ، ومن قائل فيه قولاً عظيماً وهو أنه ولد ربة وهم اليهود ، فإذا نزل قبل يوم القيامة تحقق كل من الفريقين كذب نفسه فيما يدعيه فيه من الافتراء .

وعلى هذا فيكون ذكر نزول عيسى ابن مريم ، إشارة إلى ذكر المسيح الدجال

(١) سورة الأنعام ، آية ١٥٨

(٢) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح

(٣) سورة النساء ، آية ١٥٩

مسيح الضلال ، وهو ضد مسيح الهدى ، ومن عادة العرب أنها تكتفى بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر ، كما هو مقرر فى موضعه .

الثالث : أنه لم يذكر بصريح اسمه فى القرآن احتقاراً له حيث يدعى الإلهية ، وهو ليس ينافس حالة جلال الرب وعظمته وكبريائه وتنزيهه عن النقص ، فكان أمره عند الرب أحقر من أن يذكر ، وأصغر وأقصر من أن يحكى عن أمر دعواه ويحذر ، ولكن انتصر الرسل بجناب الرب عز وجل فكشفوا لأمهم عن أمره ، وحذروهم مما معه من الفتن المضلة والخوارق المضمحلة ، فاكتفى بإخبار الأنبياء وتواتر ذلك عن نبيد ولد آدم إمام الأتقياء ، عن أن يذكر أمره الحقير بالنسبة إلى جلال الله فى القرآن العظيم ، ووكل بيان أمره إلى كل نبي كريم .

فإن قلت : فقد ذكر فرعون فى القرآن ، وقد ادعى ما ادعاه من الكذب والبهتان حيث قال :

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (١)

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢)

والجواب : أن أمر فرعون قد انقضى وتبين كذبه لكل مؤمن وعاقل ، وهذا أمر سيأتى وكائن فيما يستقبل فتنة واختباراً للعباد فترك ذكره فى القرآن احتقاراً له وامتحاناً به ، إذ الأمر فى كذبه أظهر من أن ينبه عليه ويحذر منه - وقد يترك الشيء لوضوحه ، فترك الله ذكره والنص عليه لما يعلم تعالى من عباده المؤمنين أن مثل هذا لا يهديهم ولا يزيدهم إلا إيماناً وتسليماً لله ورسوله وتصديقاً بالحق ورداً للباطل (٣) .

(١) سورة النازعات ، آية ٢٤

(٢) سورة القصص ، آية ٣٨

(٣) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٩ ينصرف

(ز) ذكر ما يعصم من الدجال :

١ - الاستعاذة المخلصة بالله تعصم من فتنة الدجال : كما جاء في الأحاديث الصحاح من غير وجه أن الرسول ﷺ كان يتعوذ من فتنة الدجال في الصلاة ، وأنه أمر أمته بذلك أيضاً فقال ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن فتنة القبر ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (١) .

٢ - حفظ عشر آيات من آخر سورة الكهف حفظاً عملياً يعصم من فتنة الدجال . كما قال ﷺ : « من حفظ عشر آيات من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » (٢) .

ذكر في بعض الروايات « أنها من أول سورة الكهف » (٣) وذكر في بعضها « أنها من خواتيم سورة الكهف » (٤) .

٣ - سكن المدينة ومكة المشرفين تعصم من فتنة الدجال : كما قال ﷺ : « على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » (٥) وقد ثبت في الصحيح « أنه لا يدخل مكة ولا المدينة تمنعه الملائكة » (٦) لأنهما حرمان أمان منه (٧) .

ثانياً : نزول عيسى ابن مريم

(أ) ما الدليل على نزول عيسى ابن مريم ؟

أولاً : قول الله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قُلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

(١) رواه البخارى ومسلم

(٢) رواه ابو داود

(٤) رواه ابو داود

(٦) رواه البخارى

(٣) رواه مسلم والترمذى

(٥) رواه البخارى ومسلم

(٧) نهاية الفتن والملاحم ج ١ ص ١٦٩ - ١٧٢ بتصرف

صَلُّوهُ وَلَٰكِنْ شِئْنَهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لِفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

قال ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس قال : قبل موت عيسى ابن مريم وهذا إسناد صحيح .

ثانيًا : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا صُرِبَ بَنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (١٥٧) وَقَالُوا أَلِلهِ تَخَيَّرَ أَمْ هُوَ مَضَرُّوهُ لَكَ إِلَّا أَحَدٌ لَا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْعَوْنَ كَذَلِكَ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ فَلَا تُمْنَرْنَ بِهَا وَأُنْبِئُوكَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٦١﴾

وقد جاء في تفسير « وإنه لعلم للساعة » أنه عيسى يكون علامة من علامات الساعة بتزوله قبل موته وفي قراءة « وإنه لعلم للساعة » ولا دلالة لهذا المعنى إلا بتزول عيسى عليه السلام .

ثالثًا : ما رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خير من الدنيا وما فيها .

(١) سورة النساء ، آية ١٥٧ - ١٥٩

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٥٧ - ٦١

ثم يقول أبو هريرة : « واقروا إن شئتم
 ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ
 مَوْتِهِمْ وَوَعْدَ الْقَائِمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١) .

وفى رواية قال ﷺ : « يوشك أن يكون فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل الدجال ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، وتكون السجدة الواحدة لرب العالمين خيراً من الدنيا وما فيها » ، قال أبو هريرة : « واقروا إن شئتم

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ ﴾

موت عيسى ابن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات (٢) .
 رابعاً : روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل فيكم عيسى ابن مريم وإمامكم منكم » (٣) .

خامساً : قال ﷺ : « الأنبياء إخوة علات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه نازل ، فلماذا رأيتموه فاعرفوه ، إنه رجل مربع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران كان رأسه يقطر ماء وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الأمم كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمانة على الأرض ، حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » (٤) .

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٢) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٣) رواه ابن مردويه

(٤) رواه أحمد وأبو داود بنحوه بإسناد جيد قوى

وقال ﷺ: «ليمكنن عيسى ابن مريم بالروحاء فيقومن منها بالحج أو بالعمرة أو نتيهما جميعاً» (١).

وقال ﷺ: «ينزل ابن مريم إماماً عادلاً ، وحكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويرجع السلم ، ويتخذ السيوف مناجل ، ويذهب جمعة كل ذات جمعة ، وينزل من السماء رزقها ، وتخرج من الأرض بركتها ، حتى يلعب الصبي بالثعبان ولا يضره ، وترعى الغنم والذئب ولا يضرها ، ويرعى الأسد والبقرة ولا يضرها» (٢).

(ب) هل مات عيسى عليه السلام أو رفع حياً إلى السماء ؟
قال أبو مالك :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾

ذلك عند نزول عيسى ابن مريم وإنه الآن حى عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعين . رواه ابن جرير .

وروى ابن أبى حاتم عنه أن رجلاً سأل الحسن عن قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾

فقال قبل موت عيسى ، إن الله رفع إليه عيسى ، وهو باعته قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر .

وهكذا قال قتادة بن دعامة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد ، وهو ثابت فى الصحيحين عن أبى هريرة .

(١) رواه مسلم وأحمد

(٢) تفرد به أحمد وإسناده جيد قوى صالح

والمقصود من السياق الإخبار بحياته الآن في السماء وليس كما يزعمه أهل الكتاب الجهلة أنهم صلبوه بل رفعه الله إليه ، ثم ينزل من السماء قبل يوم القيامة ، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة مما سبق وما سيأتى أيضاً .

وقد روى عن ابن عباس وغيره أنه أعاد الضمير في قوله « قبل موته » على أهل الكتاب ، وذلك لو صح لكان منافياً لهذا ، ولكن الصحيح من المعنى والإسناد ما ذكرناه وقد قررناه بما فيه كفاية ، والله الحمد والمنة ^(١) .



(١) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ج ١ ص ١٨٣ بتصرف .

(ج) متى ينزل وكيف وأين ؟

أما متى ينزل ؟ فبعد خروج الدجال

وكيف ينزل ؟ على أجنحة ملكين في ثوبين مصبوغين

وأين ينزل ؟ عند المنارة البيضاء شرقي دمشق

واليك الدليل حديث لرسول الله ﷺ تحدث فيه عن الدجال ونزول عيسى ، وخروج يأجوج ومأجوج عن النواس بن سميان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع « أى حقر من شأنه وعظم من أمر فتنه » حتى ظنناه فى طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا ، فقال ما شأنكم ؟ قلنا يارسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال :

« غير الدجال أخوفنى عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيح نفسه والله خليفتى على كل امرئ مسلم ، إنه شاب قطط « شرعه مجعد » عينه طافية ، إني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج فى خلة بين الشام والعراق ، فعائث يمينا وعائث شمالا ياعباد الله فاثبتوا ، قلنا يارسول الله وما لبثه فى الأرض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يارسول الله : فذلك اليوم الذى كسنة أتكفنا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، أقدروا له قدره ، قلنا : يارسول الله ، وما إسرعه فى الأرض ؟ قال : كالغيث استبدرت الریح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأصبغه ضروباً وأمدّه خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون قوله فينصرف عنهم فيصبحون بمحلين ليس بأيديهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة

فيقول أخرجى كنوزك فستبعه كنوزها كيغاسيب النحل « جماعات النحل » ، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين « قطعتين » رمية الغرض ، ثم يدعو فيقبل يتהלل وجهه وهو يضحك ، فينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق في مهرودتين « ثوبين مصبوغين » واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، ولا يحل « لا يمكن » لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لُد « قرب المقدس » فيقتله ، ثم يأتى عيسى ابن مريم قوماً قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويحدثهم عن درجاتهم فى الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لى لا يدان « لا قدرة » لأحد بقتالهم ، فحرز « ضم » عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أولئهم على بحيرة الطبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحضّر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله إليهم الغنف « دود يكون فى أنوف الإبل والغنم » فى رقابهم فيصبحون فرسى « قتلى » كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملاء زهمهم « نثر رائحتهم الكريهة » وتنتهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتطرحهم حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه « لا يمتنع منه » بيت مدر ولا وبر فيغسل الله الأرض حتى يتركها كالزلاقة « المرأة » ، ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة « الجماعة » من الرمانة ويستظلون بقحفها « مقعر قشرة الرمانة » ويبارك فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام « الجماعة الكثيرة » من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس

واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت أباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر « يرتكبون الفاحشة على ملا من الناس بلا استحياء فعل الحمر » فعليهم تقوم الساعة » (١) .

وفى الحديث أيضاً عن ابن مسعود فى اجتماع الأنبياء يعنى « محمد وإبراهيم وموسى وعيسى » عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وتذاكرهم أمر الساعة وردهم إلى عيسى ، وقوله : « أما حينها فلا يعلم به إلا الله ، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج ومعه قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال فيهلكه الله إذا رآنى حتى إن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتى كافراً ، فتعال فاقتله ، قال : فيهلكهم الله ، ويرجع الناس إلى أوطانهم ، قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم ، لا يمرون على شىء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، قال : ثم يرجع الناس يشكونهم ، فادعو الله عليهم فيهلكهم الله ويميتهم حتى تمتلئ الأرض من نتن ريحهم ، ويترى الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ، ففيما عهد إلى ربي أن ذاك إذا كان كذلك ، فإن الساعة كالحامل المتى لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً » (٢) .

(١) رواه مسلم وابن ماجه

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه بنحوه

ثالثاً : خروج يأجوج ومأجوج

(أ) ما الدليل على خروج يأجوج ومأجوج ؟

قال تعالى في قصة ذي القرنين :

﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا ۝١٧﴾

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَحَدَّ مِنْهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝١٨ قَالُوا يَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قَهْلُ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝١٩ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَبْرٌ فَأَعْبَوْنِي بِقَوْلٍ أَجْعَلُ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٢٠ ءَأَتُونِي زُرًّا لِّحَدِيدٍ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ
قِطْرًا ۝٢١ فَمَا اسْطَلَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٢٢
قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝٢٣ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِئَتْ أَعْيُنُهُمْ جَمْعًا ۝٢٤﴾

وقد ذكر في التفسير في قصة ذى القرنين وخبر بنائه للسد من حديد ونحاس بين جبلين فصار ردماً واحداً ، وقال : هذا رحمة من ربى أن يحجز به بين هؤلاء القوم المفسدين فى الأرض وبين الناس ، فإذا جاء وعد ربى أى الوقت الذى قدر انهدامه فيه جعله دكاً أى مساوياً للأرض وكان وعد ربى حقاً أى وهذا شيء لا بد من كونه ، وتركنا بعضهم يموج فى بعض ، يعنى بذلك يوم انهدامه حين يخرجون على الناس فيمرحون فيهم وينسلون ، أى يسرعون المشى من كل حذب ، ثم يكون النفخ فى الصور للفتن قريباً من ذلك الوقت ، كما قال فى الآية الأخرى^(١)

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِحَتْ يَابُجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۖ ﴾^(٢) وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَكَ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۖ ﴾^(٣)

ومن السنة ثبت فى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش : « أن رسول الله ﷺ نام عندها ثم استيقظ محمراً وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بين أصبعين وفى رواية : وعقد سبعين أو تسعين ، قالت : قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث »^(٣)

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن يأجوج ومأجوج ليخفرون السد كل يوم ، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كاشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله

(١) تفسير ابن كثير ج ٣.

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

يعمّتهم على الناس حفروا ، حتى إذا كانوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : اغدوا فستحفرون غداً إن شاء الله ويستثنى « يقول إن شاء الله » فيعودون إليه وهو كهيته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون « يجففون الماء » ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيبعث الله عليهم نفعاً « نوع من الدود » فى آفاتهم فيقتلهم بها ، قال رسول الله ﷺ والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً « تسمن وتمتلئ » من لحومهم ودمائهم « (١) »

كما قال ﷺ : « تفتح يا جوج وما جوج فيخرجون كما قال الله تعالى :

﴿ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾

فيخش « ينطلق خائفاً » الناس ، وينحازون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، فيضربون ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان هاهنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أخذ فى حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض ، قد فرغنا منهم ، بقى أهل السماء ، قال ثم يهز أحدهم حريته ثم يرمى بها إلى السماء فترجع إليهم مخضبة دماء للبلاء والفتنة فيبئناهم على ذلك إذ بعث الله عليهم داء فى أعناقهم كنعف الجراد الذى يخرج فى أعناقه فيصيحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشرى لنا نفسه « يبيعها » فينظر ما فعل هذا العدو ؟ قال : فينجد « يبرز » رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها « حملها » على أنه مقتول ، فينزّل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى : يامعشر المسلمين ألا أبشروا إن الله قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم ، فما

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه من غير وجه

يكون لها مرعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات
أصابته^(١).

وقال ﷺ : « سيوقد الناس من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وتروسم سبع
سنين »^(٢).

(١) رواه أحمد وابن ماجه بإسناد جيد

(٢) رواه ابن ماجه وغيره

رابعاً : نزول الدخان من السماء :

الذى يكون قبل يوم القيامة .

قال تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا

بِأَمْرِ رَبِّكَ الْمُبِينَ ۝١١ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٢
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْقَدْرَ الْكَبِيرَ عِنْدَ رَبِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي كَذَّبُوا عَنْهُ
رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ بَجْنُونٍ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُو
الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا
مُنْفِعُونَ ﴿ ١١ ﴾

وكما قال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ، وذكر الدخان »

« الحديث » (٢)

وقال رسول الله ﷺ : « إن ربكم أنذركم ثلاثاً : الدخان يأخذ المؤمن

كالزكمة ، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ،

والثالثة الدجال » (٣) .

وعن علي رضي الله عنه قال : « لم تمض آية الدخان بعد ، يأخذ المؤمن كهية

الزكام ، وتنفخ الكافر حتى ينفد » هذا وقد وردت آثار عن الصحابة والتابعين

(١) سورة الدخان الآية ١٠ - ١٦ .

(٢) سبق ذكره وتخريجه .

(٣) رواه الطبراني بإسناد جيد .

تتوافق مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي تدل دلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن ، كما قال تعالى :

﴿ فَأَرْتَفِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴾

أى بين واضح يراه كل أحد ، وليس كما رأى ابن مسعود أنه الجوع والجهد الذى أصاب قريشاً وأهل مكة بعد دعاء النبي ﷺ عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، وفى رواية ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فىرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .
فليس الخيال كاللدخان المبين الواضح .

وقوله تعالى : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾

أى يتغشاهم ويعممهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أى يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ (١)

أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَا كَشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أى يقول

الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم (٢) .

(١) سورة الطور ، الآية ١٣ ، ١٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٣٨ - ١٤٠ بتصرف .

خامساً : طلوع الشمس من المغرب :

« لا تنفع توبة التائب بعد طلوع الشمس من مغربها »

قال تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ
رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ
لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ (١)

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ : « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع

نفساً إيمانها قال : طلوع الشمس من مغربها » (٢)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع
الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً
إيمانها لم تكن آمنت من قبل » (٣)

وقال ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها
الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ثم قرأ هذه الآية » (٤)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً
إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً : طلوع الشمس من مغربها
والدخان ودابة الأرض » (٥)

(٢) رواه الترمذی واحمد .

(٤) رواه البخاری ومسلم .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٨

(٣) رواه البخاری وبقية الجماعة إلا الترمذی .

(٥) رواه أحمد وكذا مسلم .

وثبت في الصحيحين عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا ، قال إنها تنتهي فتسجد تحت العرش ثم تستأذن فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت وذلك حين لا ينفع نفسها إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » (١)

وقال ﷺ : « إن أول الآيات طلوع الشمس وخروج الدابة ضحى ، فإيتهما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها قريباً » (٢)

قال عبد الله بن عمر : وأظن أولاهما خروجاً : طلوع الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع ، حتى إذا أذن الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل وأتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، وعرفت أنه وإن أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت : رب ما أبعد المشرق من لى بالناس ؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع ، فيقال لها : ارجعي من مكانك فاطلعي فطلعت على الناس من مغربها ، ثم تلا عبد الله هذه الآية : ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ (٣)

وقوله في الحديث : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس ... » الحديث . فالمراد بالآيات هنا الآيات التي ليست مألوفة ، وهي مخالفة للعادات المستقرة ، فالدابة التي تكلم الناس ، وتُعَيَّنُ الكافر منهم من المؤمن ، وطلوع الشمس من مغربها متقدم على الدابة ، وذلك محتمل ومناسب والله أعلم (٤)

(٢) رواه مسلم وأحمد

(٣) النهاية في الفتن والملاحم ج ١ ص ٢١٨ بتصرف

(١) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه أحمد في مسنده

هذا، ولا يزال في المسلمين من يقوم الليل عابداً حتى تطلع الشمس من مغربها!
كما ورد ذلك في الأحاديث ، ومن ذلك :

عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك عرفها المتفلون ، يقوم أحدهم فيقرأ حزنه ، ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزنه ثم ينام فيبينما هم كذلك ، صاح الناس بعضهم في بعض ، فقالوا : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت حتى صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها ، قال فحيث لا ينفع نفساً إيمانها » (١) .

وعن حذيفة قال : سألت النبي ﷺ ما آية طلوع الشمس من مغربها قال : « تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فيتنبه الذين كانوا يصلون فيها ، يعملون كما كانوا يعملون قبلها ، والنجوم لا ترى قد باتت مكانها ، يرقدون ثم يقومون فيصلون ، ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ، ثم يرقدون ثم يقومون يتناول الليل فيفزع الناس ، ولا يصبحون فيبينما هم يستظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ولا ينفعهم إيمانهم » (٢) .

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال ذات يوم لجلسائه : أرايتم قول الله :

﴿ نَغْرِبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ ﴾ (٣)

ماذا يعنى بها . قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنها إذا غربت سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم كانت تحب العرش ، فإذا حضرها طلوعها سجدت له وسبحته وعظمته ، ثم استأذنت ، فإذا كان اليوم الذى تحبس فيه سجدت له

(١) رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره .

(٢) رواه ابن مردويه .

(٣) سورة الكهف .

وسبحته وعظمته ، ثم استأذنته فيقال لها : تأنى فتحبس قدر ليلتين ، قال : ويفزع المتهجدون وينادى الرجل تلك الليلة جاره يا فلان ما شأننا الليلة ؟ لقد نمت حتى شبعت ، وصليت حتى أعيت ؟ ثم يقال لها : اطلعى من حيث غربت ، فذلك يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، ^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن الهجرة خصلتان : إحداهما أن تهجر الشر ، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من الغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل » ^(٢) .

وعن صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله فتح باباً قبل المغرب ، عرضه سبعون أو أربعون ذراعاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس » ^(٣) .

فهذه الأحاديث المتواترة مع الآية الكريمة دليل على أن من أحدث إيماناً أو توبة بعد طلوع الشمس من مغربها لا يقبل منه وإنما كان كذلك - والله أعلم - لأن ذلك من أكبر أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ودنوها ، فعومل ذلك الوقت معاملة يوم القيامة ^(٤) .

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور

(٢) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد قوى ، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن ماجه .

(٤) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٢ بتصريف .

سادساً : خروج الدابة من الأرض تكلم الناس :

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

قال ابن كثير : « هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض ، قيل من مكة ، قيل من غيرها ، فتكلم الناس على ذلك ، كما قال ابن عباس والحسن وقتادة ، ويروى عن علي رضي الله عنه : تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة ، وقال عطاء الخرساني : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، ويروى هذا عن علي واختاره ابن جرير ، وفي هذا القول نظر لا يخفى ، والله أعلم .

وقال ابن عباس في رواية تجرحهم ، وعنه رواية قال : كلاً تفعل ، يعني هذا وهذا ، وهو قول حسن ولا منافاة وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان » (٢) .

« ففى حديث مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « بادروا بالأعمال الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وأمر العامة ، وخويصة أحدكم » (٣) والخويصة تصغير خاصة

والمراد بخويصة أحدكم الموت الخاص لكل إنسان لأنه يخص من وقع به .

(١) سورة النمل ، الآية ٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ بتصرف .

(٣) رواه مسلم .

أما أمر العامة فالمراد به قيام الساعة لأنه يشمل الأحياء جميعاً فلا يترك فيهم مخلوقاً .

* وروى أبو داود عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي شريحة وأبي جرير فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود ، وحديث طلحة أتم وأحسن ، قال ذكر رسول الله ﷺ الدابة فقال : « لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زمناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية يعني مكة .

قال رسول الله ﷺ : « ثم ينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها ، المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي ترغو « تصوت وتضج » بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ومعاً ، وبقيت عصابة المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها مثل الكوكب الدرى ، وولت في الأرض ، لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ل يستعوذ فتأنيه من خلفه فتقول : يا فلان الآن تصلى ؟ فيقبل عليها فتسمه في وجهه ، ثم تنطلق ، ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر اقضنى حتى ، وحتى إن الكافر ليقول يا مؤمن اقضنى حتى » (١) .

سابعاً : صدق القرآن من الأرض :

روى ابن ماجه عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « يدرس الإسلام كما يدرس » يذهب أثره « وشى الثوب » أعلام الثوب « حتى ما يدرى صيام ولا صلاة ولا نكاح ولا صدقة ، ويسرى النسيان على الكتاب فى ليلة فلا يبقى فى الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة « لا إله إلا الله » فنحن نقولها » رواه ابن ماجه ، وزاد الحاكم : قال صلة بن زفر لحذيفة : ما تغنى عنهم وهم لا يدرون ما صيام ولا صدقة ..

- فأعرض عنه حذيفة ثم ردها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة - ثم أقبل عليه فى الثالثة ، فقال ياصلة : تنجيهم من النار « ثلاثاً » (١).

وهذا دال على أن العلم يرفع من الناس فى آخر الزمان حتى إن القرآن يسرى عليه النسيان فى المصاحف والصدور ، ويبقى الناس بلا علم ، وإنما الشيخ الكبير والعجوز المسنة يخبران بأنهم أدركوا الناس وهم يقولون : « لا إله إلا الله » فهم يقولونها على وجه التقرب إلى الله عز وجل ، فهى نافعة لهم وإن لم يكن عندهم من العمل الصالح والعلم النافع غيرها (٢).

(١) رواه ابن ماجه والحاكم .

(٢) النهاية فى الفن والملاحم لابن كثير ج ١ ص ٤١ بتصرف .

ثامناً : مجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين :

* أخرج الإمام مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ :
 « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً
 فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عسرة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس
 سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى
 على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته . حتى لو أن
 أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ، قال : سمعته من رسول
 الله ﷺ قال : فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون
 معروفاً ولا ينكرون منكراً فيتمثلهم - يستولى عليهم - الشيطان فيقول : ألا
 تستجيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دار
 رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يبقى أحد إلا أصغى ليتها
 «صفحة عنقه» ورفع ليتها ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله
 «يجصصه» ، قال فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله
 مطر كأنه الطل أو الظل - شك من نيعمان الراوى - فينبت منه أجساد الناس ثم
 ينفخ فيه مرة أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى
 ربكم « وقفوهم إنهم مسئولون » ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال : من كم ؟
 فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون ، قال : وذلك يوم يجعل الولدان
 شياً ويوم يكشف عن ساق « كناية عن الشدة » (١).

وفى الحديث عن يأجوج ومأجوج السابق وفيه « فيينما هم على ذلك إذ بعث
 الله ريحاً طيبة تحت آبائهم فيقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس

يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة « (١) .

* وعن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهَدْيِ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

أن ذلك تام . فقال : « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحاً طيبة يتوفى بها كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم « (٢)

العلامة التاسعة والعاشرة والحادية عشر :

ثلاثة خسوف :

١ - خسف بالشرق .

٢ - خسف بالمغرب .

٣ - خسف بجزيرة العرب .

وهى أعظم الخسوف ، كما جاء ذلك فى حديث حذيفة بن أسيد الذى سبق ذكره .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

آخر العلامات الكبرى هو أول اشرط الساعة وقيامها ، ومقدمات الحشر :

نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

كما جاء فى الحديث عن أنس أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله ﷺ : ما أول اشرط الساعة ؟ فقال : « نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » (١)

وفى رواية : نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشرهم تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا » (٢) .

ثم عليهم تقوم الساعة ، كما قال ﷺ : « تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلوط « يجصص » حوضه فما يصدر حتى تقوم » (٣) .

(١) رواه البخارى

(٢) رواه أحمد ومسلم وأهل السنن

(٣) رواه البخارى ومسلم

بداية الانقلاب الحقيقي ، بزوال الدنيا وإقبال الآخرة

إذا أذن الله عز وجل بانقراض الكون ، وانتهاء هذه الحياة الأولى ، أمر ملكاً يدعى «إسرافيل» أن ينفخ في الصور نفخة واحدة للفناء ، فيكون ذلك أول شيء يطرق أسماع أهل الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة ، فإذا سمع الناس تلك النفخة فزعوا ، فينظرون ، فلا يبقى أحد من أهل الأرض إلا أصغى ليتها ورفع ليتها - أى رفع صفحة عنقه وأمال الأخرى - يستمع هذا الأمر العظيم ، الذى قد هال الناس وأزعجهم عما كانوا فيه من أمر الدنيا ، وشغلهم بها ، وفى وقصر هذا الأمر العظيم قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَقَرَّبَ مَنْ
فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ شَاءِ اللَّهِ وَكُلُّ تَوَّءٍ دَاخِرِينَ ۝ (١) ﴾

وتطول نفخة الفزع هذه ، فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة ، فتتحل بها كل الروابط التى كانت تربط بين أجزاء الكون ، فترتج الأرض رجاً عنيفاً ، وتترنزل زلزالاً مروعاً ، وتندك مع جبالها دكاً ، فتصير هباءً منبثاً ، وتصاب السماء بانفطار عظيم ، فتتناثر الكواكب ، وتنكدر الشمس ، ويذهب ضوءها ، وتنصهر الأحرام السماوية بجميع مجراتها ، فإذا هى كالحناس المذاب تماماً ، بل ونسجر البحار إذا أضمرت نيراناً ، وإذا العالم كله قد صار خراباً وبخاراً ، فما حال الإنسان المسكين أمام ذلك الهول العظيم ، إنه لا شيء ، إنه يطير ، ويجرى هنا وهناك كالفراش المبتوث ، بلا روية ولا تفكير ، ولكن سرعان ما يتلاشى ويذول .

إسمع قول الله تعالى يصور لنا تلك الأحداث العظام ، والأهوال الجسام :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ (١) يَوْمَ

تَرَوْنَهَا نَذَلَ كُلَّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١﴾

ويقول :

﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ
يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ ﴾ (٢)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأَخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ٣ ﴾

وقال :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١ لَيْسَ لَوْعِهَا كَذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ٣
إِذَا زُجِرَتِ الْأَرْضُ زُجْجًا ٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ٦ ﴾ (٤)

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥ وَإِذَا الْبِحَارُ
سُيِّرَتْ ٦ ﴾ (٥)

(١) سورة الحج ، آية ١ ، ٢

(٢) سورة القارعة آية ١ - ٥

(٤) سورة الواقعة آية ١ - ٦

(٣) سورة الزلزلة آية ١ - ٣

(٥) سورة التكوين آية ١ - ٦

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ ﴾ (١)

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③
وَأَلْفَتْ مَا فِيهَا وَنَخَلَتْ ④ ﴾ (٢)

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ① وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِجِينَ ② وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيماً ③ يُبْصِرُونَ ثُمَّ يُوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ
يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ④ وَصَلَحَتِ امْرَأَتُهُ بِأَخِيهِ ⑤
وَفَصِيلَتُهُ إِلَىٰ أُنْتَبَاهِهِ ⑥ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑦ ﴾ (٣)
كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا
نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ① وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةً وَاحِدَةً ② فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ③ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ
يَوْمَئِذٍ وَّاهِيَةٌ ④ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا يُحْمَلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ⑤ يَوْمَئِذٍ تُقَرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ⑥ ﴾ (٤)

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْنِتُونَ أَفْوَاجاً ① وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ
فَكَانَتْ أَبْوَاباً ② وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ③ ﴾ (٥)

(٢) سورة الانشقاق آية ١ - ٤

(٤) سورة الحاقة ، آية ١٣ - ١٨

(١) سورة الانفطار ، آية ١ - ٤

(٣) سورة المارج آية ٨ - ١٤

(٥) سورة النبا ، آية ١٨ - ٢٠

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾^(١)
 تَبْعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ فَلَوْ بِيَوْمٍ ذُوَ حِجْفَةٍ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ﴿١١﴾

- وتطول تلك النفخة ، بأمر الله تعالى ، حتى يصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله كما قال تعالى :

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ
 مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾^(٢)

فإذا تساءلت : ما هو الصور؟ فنجيبك إنما هو القرن أو البوق أو الناقور .
 قال الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي النَّاقُورِ﴾^(٣)

قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » .

قال أصحاب محمد : يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا »^(٤) . وأما عن عظمه ، فكما روى « إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض ، خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصاً إلى العرش يبصره ، ينتظر متى يؤمر ؟ قال : قلت يا رسول الله ما الصور ؟ قال : قرن ، قال : كيف هو ؟ قال : عظيم ، قال : الذى بعثنى بالحق إن عظم دائرة فيه لعرض السموات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل

(١) سورة النازعات ، آية ٦ - ٩

(٢) سورة الزمر ، آية ٦٨

(٣) سورة المدثر ، آية ٨

(٤) أخرجه الترمذي وأحمد بسند صحيح

السموات والأرض ، إلا من شاء الله ، ويأمره تعالى فيمدها ويطيّلها ولا يفتّر ، وهى التى يقول الله فيها

﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِخْرَةٌ وَاحِدَةٌ مَّا لَهُمِنْ فَوَاقٍ ﴾ (١)

فسير الجبال سير السحاب فتكون سراباً ، وترنج الأرض بأهلها رجاً ، فتكون كالسفينة فى البحر ، تضربها الأمواج ، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش ، ترجه الرياح ، ألا وهو الذى يقول الله تعالى فيه :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ ① نَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ② فُلُوبٌ يَوْمَ يَذِرُهَا رِجْفٌ ﴾

فتميد الأرض بأهلها ، وتذهل المراضع ، وتضع كل الحوامل ، وتشيب الولدان ، ويطير الناس هارين من الفزع ، فتلقاهم الملائكة فتضرب وجوههم فيرجعون ، ثم يولون مدبرين ، ما لهم من الله من عاصم ، ينادى بعضهم بعضاً ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ

يَوْمَ تُولُونُ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ③ ﴾ (٢)

فبينما هم على ذلك ، إذ تصدعت الأرض بصدعين ، من قطر إلى قطر ، قرأوا أمراً عظيماً ، لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليهم ، نظروا فى السماء فإذا هى كالملهل ، ثم انشقت السماء ، فانشرت نجومها ، وخسفت شمسها وقمرها ، فإذا تساءلت : من الذين استثناهم الله تعالى : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ .

فهم الأموات : إذ الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك ، إذ الفزع يصل إلى الأحياء .

(١) سورة صر ، آية ١٥ .

(٢) سورة غافر ، آية ٣٢ ، ٣٣ .

والشهداء : لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فوقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وأمنهم منه ، لأنه عذاب الله ، يبعثه على شرار خلقه ، فيمكثون في ذلك العذاب ما شاء الله ، حتى يأمر إسرافيل بنفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله من الملائكة .

كما جاء في الخبر . أن الله تعالى يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم خمدوا ، جاء ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : يا رب مات أهل السموات والأرض إلا من شئت ، فيقول الله ، وهو أعلم بمن بقى ، فمن بقى ؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقي جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله ، ليمت جبريل وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يا رب يموت جبريل وميكائيل ؟ فيقول اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى ، فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار عز وجل ، فيقول : يا رب قد مات جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا وحملة العرش ، فيقول الله ، فليمت حملة عرشى ، فيموتون ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار ، فيقول : يا رب قد مات حملة عرشك ، فيقول وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يا رب بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، كان آخرها كما كان أولاً .

طوى السموات والأرض كطى السجل للكتب ، ثم دحاها ثم لفها ثلاث مرات .

وذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا

بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا النَّاسَ تَارَافِعِينَ ﴿١﴾

وقوله :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِمْ وَالْأَرْضُ

جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢)

ثم يقول أنا الجبار ثلاثا : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم هتف بصوته : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد فيقول لنفسه : لله الواحد القهار ، وذلك قوله تعالى :

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٣)

ثم يبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فيسطحها ويسطحها ، ويمدها من الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ، وذلك قوله تعالى :

﴿يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ (٤)

ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم في مثل ما كانوا فيه في الأولى ، من كان في بطنها كان في بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، وذلك قوله تعالى :

﴿فَأَنصَاهِي زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (٥) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾

ثم يأمر الله تعالى السماء أن تمطر فتتمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت ، فتنبت كنبات البقل ، مما تبقى من الأجساد ، إذ يفنى كل شيء إلا عَجَبَ الذنب ، ومنه ينبتون ، حتى إذا

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠٤

(٢) سورة الزمر ، آية ٦٧

(٤) سورة إبراهيم ، آية ٤٨

(٣) سورة غافر آية ١٦

(٥) سورة النازعات ، آية ١٣ ، ١٤

تكاملت أجسادهم ، فكانت كما كانت ، قال الله : ليحيى جبريل وميكائيل ، فيحيان ، ثم يدعو الله بالأرواح ، فيؤتى بها ؛ تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، والأخرى ظلمة ، فيقبضها جميعاً ، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل ، قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول الله : وعزتى وجلالى ، ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ، فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى فى الأجساد مشى السم فى اللدغ ، ثم تنشق الأرض عنهم ، فيخرجون منها سراعاً إلى ربهم ينسلون . وذلك قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَىٰ شَيْءٍ وَثْكَرٍ ۖ خُشْعًا
أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۖ مُّهْطِعِينَ
إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (٢)

وقوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ ۖ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ
تَرَهِمُهُمْ ذَلَّةٌ ذَاكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة الزمر ، آية ٦٨

(٢) سورة القمر ، آية ٦-٨

(٣) سورة المعارج ، آية ٤٣ ، ٤٤

وقوله جل وعلا :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾

فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنَّا إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾

هذا وأول من تنشق عنه الأرض هو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، إذ يقول ﷺ :
« أنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر » (١) .

وبانتهاه الكلام عما بين النفختين « الصعق والقيام » لعلك تتساءل : كم كان بينهما ؟ فإن النبي ﷺ يجيب على هذا السؤال ، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بين النفختين أربعون » قالوا يا أبا هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : آيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : آيت ، قالوا أربعون سنة ، قال : آيت .. قال : ثم ينزل من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة (٢) فعدم جزم أبي هريرة - راوى الحديث - شك منه ، غير أنه ورد في رواية أخرى مفسراً ، بلفظ « أربعون سنة » قاله النووي في شرحه على مسلم .

وإذا كانت السماء ستمطر أربعين يوماً ، فيستبعد أن تكون هذه المدة أربعين يوماً ، والراجع أنها أربعون سنة ، ولكن لا يدري ، أهى بأيامنا هذه أم بأيام الله تعالى ؟ .. والله تعالى أعلم .

(١) سورة يس ، آية ٥١ - ٥٣

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه البخاري

يوم البعث ، والوقوف على أرض المحشر

مضى بنا الكلام إلى نفخة البعث ، وخروج الناس من قبورهم ، سراعاً يسئلون إلى ربهم ، وهم إذ يخرجون من القبور فإنهم يحشرون إلى ساحة واحدة تدعى عرصات يوم القيامة ، وذلك لفصل القضاء والحكم بينهم ، ومجازاتهم فيحشرون حفاة ، عراة ، غلفاً أو غرلاً ، أى غير مختونين ، وذلك كما فى الآية الكريمة :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (١)

وكما قال :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٢)

ولقول النبى ﷺ - فى الحديث الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها - « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، قلت : يا رسول الله : النساء والرجال جميعاً ، ينظر بعضهم إلى بعض ، قال ﷺ : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » (٣)

وفى رواية : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، فقالت عائشة يا رسول الله : فكيف بالعورات ؟ فقال : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٤)

(٢) سورة الأنبياء . آية ١٠٤

(٤) رواه الإمام أحمد وخرجه فى الصحيحين

(١) سورة الانعام ، آية ٩٤

(٣) رواه البخارى ومسلم

ولكن هذا لا يمنع من أن يكسى بعضهم كما فى الحديث عن جابر رضى الله عنه قال : « إن المؤذنين والمبلين يخرجون يوم القيامة ، يؤذن المؤذن ، ويلبى الملبى ، وأول من يكسى من حلل الجنة إبراهيم ثم محمد ثم النبىون ثم المؤذنون » وذكر تمامه ^(١) .

وفى الحديث أيضاً : « أول من يكسى إبراهيم ، يقول الله ، اكسو خليلي ، فيؤتى بربطتين - الثوب اللين الرقيق - بيضاوين فيلبسهما ، ثم يقعد مستقبل العرش ، ثم أوتى بكسوتى فألبسها ، فأقوم عن يمينه قياماً لا يقومه أحد غيرى ، يغطنى فيه الأولون والآخرون » ^(٢) .

• هذا ويحشر الناس أصنافاً ثلاثة : من يمشى ، ومن يركب ، ومن يزحف قال ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم ، قالوا يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حذب وشوك » ^(٣) وفى القرآن الكريم :

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى
وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا وَأُولَئِكَ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ
سَعِيرًا ﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا
عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ^(١)

وقال تعالى :

(١) رواه أبو نعيم ، وذكره القرطبي فى التذكرة

(٢) سورة الإسراء ، آية ٩٧ ، ٩٨

(١) ذكره القرطبي

(٢) رواه البخارى ومسلم

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ

وَقَدْأً ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ۝﴾ (١)

وقال ﷺ : « يحشر المتكبرون في صور من الذر يوم القيامة ، يعلمهم كل شيء من الصغار » (٢)

ثم ماذا ؟ يقف الناس على أرض المحشر ، في يوم كان مقدره خمسين ألف سنة ، يخففه الله عز وجل على من يشاء حتى يصل إلى مقدار ركعتين يركعهما المسلم في دنياه ، كما في الحديث « والذي نفسى بيده إنه ليخف على المؤمن ، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا » (٣) ، يقفون موقفاً واحداً ، صفّاً واحداً ، لا ينظر إليهم مقدار سبعين عاماً ، ولا يقضي بينهم ، فيكون حتى ينقطع عنهم الدمع ، ثم يكون دماً ، ويعرقون حتى يبلغ ذلك منهم مبلغاً ، وذلك كما في الحديث « إن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة ، فتكون منهم على مسافة ميل ، فعند ذلك يعرقون بحسب الأعمال » (٤) وفي رواية « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين » قال سليم : لا أدرى أى الميلين ؟ أم الميل الذى تكحل به العين ؟ قال : فتغمرهم الشمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه العرق إلى عقيقه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه ، قال : « يلجمه إلجاماً » (٥) .

هذا - وفي تلك الاثناء العvisية ، نرى أناساً منعمين ، مستظلين بظل الله يوم القيامة كما في الصحيح عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم

(١) سورة مريم ، آية ٨٥ ، ٨٦

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي ، بسند حسن

(٣) رواه أحمد في مسنده .

(٤) رواه مسلم والترمذي

(٥) رواه البخارى ومسلم وأحمد

الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، وفي رواية : إلا ظل عرشه : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، واثنان تحابا في الله ، اجتماعا على ذلك ، وتفرقا على ذلك ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه (١) .

وهذا الوقت العصيب يسمع الناس هذا النداء - كما جاء في الحديث : «ينادى الله عز وجل على آدم فيقول : يا آدم : ابعث بعث النار ، قال : يارب : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، قال : فأبلس الصحابة ، ما ترى لأحدهم سن ضاحكة ، فلما رأى ذلك قال : اعلموا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ، إنكم لمع خليقتين ، ما كانتا في شيء قط إلا كثرته ، يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بني آدم ومن بني إبليس ، قال : فسرى عنهم ، ثم قال اعلموا وأبشروا ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير ، والرقعة في ذراع الدابة (٢) » ومع هذا كله نرى جهنم وقد برزت ، وزمجرت ، وتغيظت وزفرت ، وأرسلت بشررها كأنه القصر في العظم ، والجمال الصفر في التتابع ، وخرج منها عنق له ثلاثة رؤوس يقول : وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبمن أشرك مع الله إلها آخر ، وبمن لم يؤمن بيوم الحساب .

كما قال تعالى :

﴿ أَنْظِرْ لِقَائِ

إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ۝ أَنْظِرْ لِقَائِ إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَا

(١) رواه البخاري

(٢) رواه الترمذي والنسائي بسند صحيح

ظَلِيلٌ وَلَا يَغْنِي مِنَ اللَّهِ ۖ إِنَّا نَرَىٰ يَشْرِكُ الْفَصْرَ ۖ كَأَنَّهُ جَمَلٌ
صَفْرٌ ۖ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١﴾

ف هناك نجو الأمم على الركب ، كما قال تعالى :

﴿ وَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ
أُمَّةٍ نُّدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

ويشيب الولدان ، كما قال عز وجل :

﴿ فَكَيْفَ تَنفَقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ (٣)

ولما يطول موقفهم ، ويعظم كربهم ، يقول بعضهم لبعض ، ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تستشفعون إلى ربكم ، فيبحثون عن الشفعاء . فيأتون آدم عليه السلام ، ونوحًا عليه السلام ، وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ، فيعتذرون ، ويقولون : نفسى نفسى ، إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبل مثله ، ولن يغضب بعد مثله ، حتى يتنها إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين ، محمد ﷺ ، الذى يقول : أنا لها ، أنا لها ، فيأتى ربه فيخبر ساجدًا تحت العرش ، ويلهمه ربه تعالى محامد يحمده بها ، فلا يزال كذلك حتى يقول له الله تعالى : يا محمد : إرفع رأسك ، وسل تعطى ، واشفع تشفع ، فيرفع رأسه ، ويسأل ربه تعالى الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود

﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٤)

(٢) سورة الحانية . آية ٢٨

(٤) سورة الإسراء . آية ٧٩

(١) سورة المرسلات ، آية ٢٩ - ٣٤

(٣) سورة المزمل ، آية ١٧

فتكون الشفاعة العظمى بفصل القضاء أولاً^(١)

وهو المقام الذى يقومه رسول الله ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

ثم تكون شفاعته ﷺ لأمته ، وهو يقول : يا رب أمتى ، فيقال له : يا محمد ادخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب حتى يقال له : أخرج من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان^(٢)

ويجرى بعد ذلك القضاء مجراه .

فبعد أن يسأل محمد ﷺ ربه الشفاعة ، يقول : يا رب وعدتني الشفاعة ، فشفعني فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : شفعتك ، أنا آتيكم ، فأقضى بينكم .

وقد جاء فى الخبر : أن النبی ﷺ بعد ذلك ، يعود فيقف مع الناس ، ينتظرون فصل القضاء ، فإذا بالناس يسمعون حساً شديداً من السماء ، فإذا هم ملائكة السماء الدنيا وعددهم مثل من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وسألهم الناس : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى فى ظلل من الغمام والملائكة ، ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسموات إلى حجزهم ، والعرش على مناكبهم ، ولهم رجل من تسيحهم يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يبيت الخلائق ولا يموت .

(١) راجع أحاديث الشفاعة بتمامها فى فصل الشفاعة فى الجزء الأول

(٢) رواه البخارى ومسلم بتمامه .

وذلك قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ①
وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ②
وَجِئَ بِهَؤُلَاءِ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ
يُتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ③ ﴾

وقوله سبحانه :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ
وَالْمَلَائِكَةُ وَفُضِي الْأَمْرُ لِلَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ④ ﴾

كما قال :

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ زَهْرًا وَوُضِعَ
الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ⑤ ﴾ وَوُفِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ⑥ ﴾

كما قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ
نَشْغِقُ السَّمَاءَ بِالْغَمِيمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا ⑦
الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ⑧ ﴾

ثم يضع الله عز وجل كرسیه حيث شاء من أرضه - يعنى بذلك كرسی فصل القضاء ، وهو بخلاف الكرسي المذكور فى حديث النبى ﷺ : « ما السموات

(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٠

(٤) سورة الفرقان ، آية ٢٥ ، ٢٦

(١) سورة الفجر ، آية ٢١ - ٢٣

(٣) سورة الزمر ، آية ٦٩ ، ٧٠

السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن وما بينهن ، وما الكرسي ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وما الكرسي في العرش إلا كتلك الحلقة بتلك الفلاة ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل (١) .

ثم يهتف بصوته فيقول : (يا معشر الجن والإنس ، إني قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا إلي ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم ، تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) (٢) .

ثم يبدأ ربنا فصل القضاء بين خلقه إلا الثقلين - الإنس والجن - فيقضى بين الوحوش والبهائم ، حتى إنه ليقصص للجماة من القرناء ، فإذا فرغ الله من ذلك ، فلم تبق تبعة عند واحدة لاخرى ، قال الله لها : كونى تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : يا ليتنى كنت تراباً ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِلُ
صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ
فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۚ ﴿٣٨﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا فَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ
الرَّعْبُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۚ ﴿٣٩﴾ ﴾

ثم يقضى الله بين العباد ، فيكون أول ما يقضى فيه الدماء ، فيأتى كل قتيل فى سبيل الله ، ويأمر الله من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يا رب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول الله تعالى - وهو أعلم - فيم قتلته ؟ فيقول : قتلته يا رب لتكون العزة لك ، فيقول الله : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور السموات ، ثم تسبقه الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من كان يقتل على غير

(١) رواه ابن جبان فى صحيحه

(٢) بمعناه فى مسلم

ذلك ، ويأمر من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول يا رب فيم قتلنى هذا؟ فيقول الله - وهو أعلم - فيم قتلته ؟ فيقول : يا رب قتلته لتكون العزة لى . فيقول الله : تعست ، ثم ما تبقى نفس قتلها قاتل إلا قتل بها ، ولا مظلمة إلا أخذ بها ، وكان فى مشيئة الله إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه ، ثم يقضى الله بين من بقى من خلقه ، حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء أن يخلص اللبن من الماء

﴿ لَا ظَلَمَ الْهَوَمَ ﴾^(١)

فإذا فرغ الله من ذلك ، نادى مناد يسمع الخلائق كلهم ، فقال : ليلحق كل قوم بآلهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبقى أحد عبد من دون الله شيئاً إلا مثلت له الهيئة بين يديه ، فيجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزيز ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ، فيتبع هذا اليهود ويتبع هذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار .
وذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَارِدُونَ ۝^(١٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَ اللَّهِ مَا وَرَدُوا وَهَا كُلُّ فِيهَا
خَالِدُونَ ۝^(١٩) لَهُمْ فِيهَا زُفُورٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾^(٢)

فلما قال المشركون : إذن عزيز سيدخل النار ، وعيسى سيدخل النار - فرد الله عليهم بقوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ

سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝^(١٨) لَا يَسْمَعُونَ
حَيْثُ سَاءُوا وَهُمْ فِي مَا أَسْنَتْنَا أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝^(١٩) لَا يَحْزَنُهُمْ

الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَنَلُّهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ
تُوعِدُونَ ﴿١﴾

فيخرج هؤلاء إلى النار ، وهم يقدمهم الملائكة وأنتهم مثل فرعون

﴿ بِقَدَمِ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ ﴿٢﴾

واعتقد أن هؤلاء هم الذين لا يحاسبون ولا يسألون ولا يقام لهم وزن ، كما
قال تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَاءِهِمْ فَحَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۖ ذَٰلِكَ جَزَاءُ هُمُ
جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ ﴿٣﴾

وقال عنهم :

﴿ قِيَوْمٌ لَا يَسْتَلْعَن ذُنُوبَهُمْ إِلَّا جَهَنَّمَ ﴾ ﴿٤﴾

* ثم ماذا ، ثم يبقى خلق كثير ، هم المؤمنون ، وفيهم المنافقون ، والعصاة
والمرتدون ونحوهم فيقال : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بالهتكم ، وما كنتم
تعبدون ، فيقولون : والله ما لنا إلا الله ، ما كنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم
الله ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس : ذهب
الناس فالحقوا بالهتكم وما كنتم تعبدون ، فيقولون : والله ما لنا إلا الله ، وما
كنا نعبد غيره ، فيكشف عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمتهم ما يعرفون به أنه
ربهم ، فيخرون سجداً على وجوههم ، ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله

(٢) سورة هود ، آية ٩٨
(٤) سورة الرحمن ، آية ٣٩

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠١ - ١٠٣
(٣) سورة الكهف ، ١٠٥ - ١٠٦

أصلا بهم كصياصي البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون رؤوسهم .
وذلك قول الله تعالى :

﴿ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى
السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ٤٦ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُفُهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ
كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَامُونَ ٤٧ ﴾

* ثم يفصل الله عز وجل بين المؤمنين - الذين صار لهم نور عظيم - وبين
المنافقين ، الذين أظلم عليهم ، فليس لهم من الضياء إلا كالشمعة الخافتة على
إبهام أحدهم

﴿ كَلَّمَآ أَنصَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ٤٨ ﴾

فإذا بهم ينادون أهل الإيمان أصحاب النور .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٤٩ ﴾

بماذا ينادونهم

﴿ يَوْمَ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسِي مِنْ نُورِكُمْ
قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَوْ بَآءَ
بَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ٥٠ ﴾

(١) سورة القلم ، آية ٤٢ ، ٤٣

(٢) سورة البقرة ، آية ٢٠

(٣) سورة الحديد ، آية ١٢

مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَئِنْ كُنْتُمْ فَتَنَةً أَنْتُمْ كَذِبٌ وَمَنْ يَكْفُرْ بِمَا وَدَّعَىٰكُمْ تَكْفُرُوا
الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورِ قَالُوا وَاللَّهِ لَنَرَنَّكَ
بَيْنَكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا يَمُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَتُكْفَرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
الْمَصِيرُ ﴿١﴾

* ثم يعرض الناس على ربهم

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الصُّورُ أَنْ يَخْفَىٰ مِنْكُمْ الْغُيُوبُ﴾ (٢)

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال «يا معلميكم كهي ملحدا جلا بلا جليكم كهي يوم يوم
القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان منظر ينظرون أيمنه فلا يلا يرى إلى إلا قدام قدام من عمل عمله ،
وينظر أشام منه فلا يرى إلا ما قدام وينظرون بين يديهم فلا يلا يرى إلى إلا القلوب تلقاء
وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة» (٣)

وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال قال رسول الله ﷺ «ليسر ليلن جلا جلا بحسب
يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يسر ليلن الله اليسر ليلن قل قاله الله تعالى :

﴿فَلَمَّا سَوَّىٰ كِتَابُ يُسُفِّهُنَّ يَسُفِّهُنَّ يَسُفِّهُنَّ يَسُفِّهُنَّ يَسُفِّهُنَّ﴾ (٤)

فصل : إنما ذلك العرض ليس ليلن لحمة فتن قلن الحساب يوم القيامة ملة إلا
عندي (٥)

هكذا هو الأول من يعرضون على الله تعالى إلى الأنبياء .

قلن تعالى :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ إِلَى الرَّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنَّمَا الْغُيُوبُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ السَّمِيعِ﴾

(٢) سورة الحديد الآية ٢٨

(١) سورة الحديد الآية ١٣٣-١٣٥

(٤) سورة الحديد الآية ٨٠-٨١

(٣) رواه البخاري ومسلم

(٥) رواه البخاري ومسلم

عَلَّمَ الْغُيُوبَ ﴿١﴾

وقال تعالى :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

﴿ ١ ﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعَلَمِ رَبِّهِمَا مَا كُنَّا عَائِبِينَ ﴾ ﴿٢﴾

كما يشملهم - مع غيرهم - قول الله تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٧﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٣﴾

وكما يعرض الانبياء على الله تعرض الملائكة وكذلك الأمم ، ثم تشهد أمة النبي محمد ﷺ للأنبياء ، وعلى الأمم ، وقد جاء في الخبر « إذا جمع الله عباده يوم القيامة ، كان أول ما يدعى إسرافيل ، فيقول له ربه : ما فعلت في عهدي ؟ هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم قد بلغت ، فيخلى عن إسرافيل ، ويقال لجبريل : هل بلغت عهدي ؟ فيقول : نعم قد بلغت الرسل : فيقول الله عز وجل لهم : هل بلغكم جبريل عهدي ؟ فيقولون : نعم ، فيخلى عن جبريل ، ويقال للرسل : ما فعلتم بعهدي ؟ فيقولون : بلغنا أمنا ، فتدعى الأمم ، فيقال لهم : هل بلغكم الرسل عهدي ؟ فيقولون : بلغناهم ، فمنهم المكذب ومنهم المصدق ، وإن لنا عليهم شهداء يشهدون أن قد بلغنا مع شهادتك ، فيقول : من يشهد لكم ؟ فيقولون : أمة محمد ، فتدعى أمة محمد ، فيقول الله تعالى لهم : أتشهدون أن رسلي هؤلاء قد بلغوا عهدي إلى من أرسلوا إليهم ؟ فيقولون : نعم يا ربنا شهدنا أن قد بلغوا ، فتقول تلك الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرب : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولا ،

(١) سورة المائدة آية ٩ - ١٠

(٢) سورة الأعراف ، آية ٦ ، ٧

(٣) سورة الحجر ، آية ٩٢

وانزلت إلينا عهدك وكتابك ، وقصصت علينا أنهم قد بلغوا ، فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول الرب : صدقوا ، فذلك قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝ (١) ﴾

قال ابن أرقم : فبلغني أنه يشهد أمة أحمد إلا من كان في قلبه إحنة (٢) .
وقال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح يوم القيامة ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه ، فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أأتانا من نذير ، وما أأتانا من أحد ، قال : فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمة ، وذلك قوله

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝ (١) ﴾

قال : والوسط : العدل ، قال رسول الله ﷺ : « فتدعون ، فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم » (٣) .

وقال ﷺ : « يجيء النبي يوم القيامة ، ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمة ، فيدعى محمد ، فيقال له : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقول : نعم ، ثم تدعى أمة محمد ﷺ فيقال لهم : هل بلغ هذا أمته ؟ فيقولون : نعم ، فيقال

(١) سورة البقرة ، آية ١٤٣

(٢) رواه ابن أبي الدنيا

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي

لهم: ومن أعلمكم فيقولون: جاءنا محمد نبياً، وأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، قال: فذلك قوله:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

قال: يقول: عدلاً، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً^(١).

وقد ذكر النبي ﷺ «تشریف إبراهيم عليه السلام يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وأنه أول الخلائق يكسى يوم القيامة»^(٢).

وذكر موسى عليه السلام، وذكر شرفه وجلالته يوم القيامة، وكثرة أتباعه وانتشار أمته.

هذا، ومن الأنبياء الذين سيعرضون على الله عز وجل، ويتكلم الرب عز وجل معهم يوم القيامة «عيسى عليه السلام» قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ

قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَتَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه

(٢) رواه السيوطي والبيهقي

قَالَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ
صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾

وهذا السؤال من الله تعالى ليعسى ابن مريم ، مع علمه تعالى أنه لم يقل شيئاً
من ذلك ، إنما هو على سبيل التقرير والتوبيخ لمن اعتقد فيه ذلك من ضلال
النصارى وجهلة أهل الكتاب ، فبرأ إلى الله تعالى من هذه المقالة .

كما تتبرأ الملائكة ممن اعتقد فيهم شيئاً من الإلهية ، حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا
مُبْحَلَك أَنْتَ وَلِيَّتَانِمْ دُونَهُمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِجُنِّ أَكْثَرِهِمْ
يَوْمَ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وكذلك يتبرأ الشركاء من المشركين ، قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ
نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ
وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا
بِئْسَ تَأْوِيلُكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا
كُلَّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ

(١) سورة المائدة ، آية ١١٦ - ١١٩

(٢) سورة سبا ، آية ٤٠ ، ٤١

مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١﴾

وأما مقام الرسول محمد ﷺ عند الله يوم القيامة ، فلا يدانيه مقام ، ولا يساويه أحد ، إذ يحصل له من التشريفات ما يغطيه كل الخلائق من العالمين ، من الأولين والآخرين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، وقد تقدم ما ورد في المقام المحمود من الأحاديث والآثار ، وأنه أول من يسجد بين يدي الله يوم القيامة ، وأول من يشفع فيشفع ، وأول من يكسى بعد الخليل ، إذ يكسى الخليل رطبتين بيضاوين ، ويكسى محمد ﷺ حلتين خضراوين ، ويجلس الخليل بين يدي العرش ، ومحمد ﷺ عن يمين العرش ، فيقول : يارب إن هذا - ويشير إلى جبريل - أخبرني عنك أنك أرسلته إلي ، فيقول الله عز وجل : صدق جبريل ﴿٢﴾ .

ثم يكون كلام الله تعالى مع الناس ومخاطبته لهم ، وتذكيرهم بنعمه عليهم ، ويعمم عصيتهم له ، كما ثبت في الصحيحين ، أن رسول الله ﷺ قال : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فيلقى الرجل ، فيقول له : ألم أكرمك ؟ ألم أزوجك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟ وأذكرك ترأس وتربع ؟ » فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فاليوم أنساك كما نسيتني ﴿٣﴾ ، وهذا فيه صراحة عظيمة في تكلم الله تعالى ومخاطبته لعبده الكافر ، وهو لا يتنافى مع قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٤﴾

(٢) رواه ابن أبي الدنيا

(٤) سورة آل عمران ، آية ٧٧

(١) سورة يونس ، ٢٨ - ٣

(٣) رواه البخاري ومسلم

فالمراد من هذا أنه لا يكلمهم ولا ينظر إليهم كلاماً ونظراً يرحمهم به ، كما أنهم عن ربهم يومئذ محجوبون بقوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّجُوبُونَ ﴾ (١)

وفى الصحيحين أيضاً ، أن رسول الله ﷺ قال : « يدنى الله العبد يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ، ثم يقرره بذنوبه ، فيقول : عملت فى يوم كذا ، كذا وكذا ؟ وفى يوم كذا ، كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يا رب ، حتى إذا ظن أنه قد هلك ، قال الله تعالى : إني سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » (٢) وهناك آخر ، يكذب بين يدي الله تعالى ، كما روى مسلم وغيره ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ، وقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يا رب ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : يقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى ، قال : فيقول الله : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهدوا ، قال : فيختم الله على فيه ، ويقول لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل » (٣)

وذلك قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ

وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤)

ويقول عز وجل :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ

(٢) رواه البخارى ومسلم

(٤) سورة يس ، آية ٦٥

(١) سورة المطففين ، آية ١٥

(٣) رواه مسلم

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ هُوَ الَّذِي يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ
أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٧﴾

وكذلك قال سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا الْيَلُودُ هُمْ لَمْ شَهِدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَفَّتْ
النَّارُ الَّتِي أَنْطَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعِينُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا
يُجَلِّدُكُمْ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾
وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾
فَإِنْ بَصِيرُوا فَإِنَّهُ نَارٌ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(١) سورة النور . آية ٢٤ . ٢٥

(٢) سورة فصلت . آية ٢ - ٢٤

أخذ الصحف أو الكتب

ثم يمضى الناس فى عرضات يوم القيامة لمراحل الحساب ، فيستظرون تطاير الصحف كما قال تعالى :

﴿ وَكُلُّ الْإِنْسَانِ الزَّمَنَةُ طَلِيدٌ فِي عُنُقِهِ وَنُخْجٌ لَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
كَذَّبَا يَلْفَهُ مَنْشُورًا ١٣ ﴾ أَفَرَأَيْتَ كَذِبَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْهَوَمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ ﴾

ورحم الله الحسن البصرى إذ قال : لقد أنصفك يا ابن آدم من جعلك حسيب نفسك . فتطاير الصحف ، فيعطى الناس كتبهم ، إما بأيمانهم أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم كما قال تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَهَلْ لَّيْفِهِ ٦ ﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرَيْبٍ
٧ فَسَوْفَ يَحْشَابُ حِسَابًا يَسِيرًا ٨ وَتَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا
٩ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا
١١ وَصَلَّىٰ سَعِيرًا ١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن
لَّنْ يَحْجُورَ ١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ١٥ ﴾

(١) سورة الإسراء : آية ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الإنشقاق ، آية ٦ - ١٥

وقال تعالى :

﴿ هَوْمِيذٍ نَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا
 مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ
 أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيهِ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢
 قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤
 وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ
 مَا حِسَابِيهِ ۝٢٦ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاصِيَةُ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۝٢٨
 هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ۝٢٩ خُدُوهُ فَعُلُوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ ۝٣١
 ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ
 الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَا يَأْكُلُهُ
 إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧﴾ (١)

والكل سيقرا كتابه - سواء اكان اميا ام متعلما - وسيجد فيه كل شئ

﴿ هَيَبُوا الْاِنْسَانَ هَوْمِيذٍ بِمَا قَدَّمَ وَاَخَّرَ ۝٣٨﴾ (٢)

وكما قال تعالى :

﴿ وَوَضَعَ

الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوْنِلَتُنَا

(١) سورة الحاقة آية ١٨ - ٣٧

(٢) سورة القيامة آية ١٣

مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَحَدُوا
مَاعْمَلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١﴾

فيسعد المؤمن بعمله الصالح ، ويبيض وجهه وهو يقرأ حسناته ، ويسوء الكافر
والفاجر عمله الطالح ، ويسود وجهه وهو يقرأ سيئاته ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ
فَأَمَّا الَّذِينَ تَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢)

وصدق من قال :

مثل وقوفك يوم العرض عرياناً	مستوحشاً قلق الأحشاء حيراناً
واقراً كتابك يا عبدي على مهلٍ	فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته	إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملانكتي	وامضوا بعد عصي للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا	والمؤمنون لدار الخلد سكانا

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٦ ، ١٠٧

مِيزَانُ الْأَعْمَالِ

قال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ
الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
أُتِينَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١)

ثم يتقدم الناس لميزان أعمالهم ، وهم عند الميزان صنفان

﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٣)

كما قال ربنا أيضاً :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤) وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا
بِئْسَ بِنَانًا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥)

فيا سعادة من ثقلت موازينه ، وبيا شقاوة من خفت موازينه . قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ① فَهُوَ فِي

(١) سورة الانبياء آية ٤٧

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٢٠ ، ١٣

(٣) سورة الاعراف آية ٨ ، ٩

عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ
① وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ② نَارُ حَامِيَةٍ ③ ﴿١١﴾

أى يهوى على أم رأسه فى نار جهنم ، والعياذ بالله .

قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب ، كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغى أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لنفس الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ، فيكون الجزاء بحسبهما . قال : وقوله « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال ، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، والله سبحانه وتعالى أعلم « ونقل أيضاً : أن الميزان له كفتان عظيمتان ، لو وضعت السموات والأرض فى واحدة لوسعتهما ، فأما كفة الحسنات فنور ، وأما كفة السيئات فظلمة ، وهو منصوب بين يدى العرش ، وعن يمينه الجنة ، وكفة النور من ناحيتها - وعن يساره جهنم - وكفة الظلمة من ناحيتها .

واختلف فى الشيء الموزون ، هل هى الأعمال - وهى لا جرم لها - فكيف توزن ؟ قال ابن عباس : إن الله يخلق الأعراض أجساماً ، فتوزن ، قيل : وقد يوزن العامل نفسه .

والصحيح أنه توزن كتب الأعمال ④

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « أنقل شيء يوضع فى الميزان خلق حسن » ⑤
وقد ورد : أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة ، أرسل إلى عمر ، فقال : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا

(١) سورة الفارقة ، آية ٧ - ١١

(٢) قاله القرطبي فى التذكرة (٢٧٢ - ٢٧٣) بتصرف

(٣) رواه أحمد والترمذى

وثقله عليهم ، وحق لميزان إذا وضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً . وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل فى الدنيا ، وخفته عليهم ، وحق لميزان إذا وضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً « (١)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « يحاسب الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ، ثم تلا قول الله تعالى :

﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٧ ﴾ وَمَنْ خَفَّتْ

مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿

ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة خردل أو يرجع « (٢) وهناك من تستوى حسناتهم بسيئاتهم كأهل الأعراف ، فيحشون عن حسنة ، فلا يجدونها

﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِيزَانَهُ ٢٨ وَأَمَّا وَابْنُ ٢٩ ﴾

وَصَاحِبُهُ وَيَنِيهِ ٣٠ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ (٣)

فينتظرون رحمة الله عز وجل ، وشفاعة النبي ﷺ .

فوجب الإيمان بما أخبر به الله عز وجل ورسوله ﷺ من أن أعمال العباد توزن يوم القيامة بميزان الحق والعدل ، الذى يزن بالخردلة ، وأنه ميزان حقيقى ، وله كفتان .

(١) رواه ابن أبى الدنيا

(٢) رواه ابن أبى الدنيا

(٣) سورة عبس آية ٣٤ - ٣٧

ورحم الله ابن القيم إذ قال فى الشافية الكافية :

أفما تصدق أن أعمال العباد تخط يوم العرض فى الميزان
وكذلك تشغل تارة وتخف أخرى ذاك فى القرآن ذو تبيان
وله لسان كفتان تقيمه والكفتان إليه ناظرتان
ماذاك أمراً مغنويًا بل هو المحسوس حقًا عند ذى الإيمان
وقال آخر:

تذكر يوم تأتى الله فردًا وقد نصبت موازين القضاء
وهتكت الستور عن المعاصي وجاء الذنب فكشف الغطاء

مبحث حول «الحوض»

لقد وردت أحاديث مشهورة ومتعددة من طرق ماثورة كثيرة متضافرة ، عن الحوض المحمدي « نسال الله عز وجل أن يسقينا منه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً » .

ومن ذلك ، ما رواه أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ ذكر الحوض ، فقال أبي ابن كعب : يا رسول الله ما الحوض ؟ فقال : «والذى نفسى بيده إن شرا به أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وآنيته أكثر عدداً من النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبداً ، ولا يصرف عنه إنسان فيروى أبداً » (١)

وقال ﷺ «إن قدر حوضى كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » (٢)

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، فرفع رسول الله ﷺ رأسه مبتسماً ، فقالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ . إنه أنزلت على أنفأ سورة ، فقرأ : «بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر . . . حتى ختمها ، ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب ، إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » (٣)

وفى لفظ مسلم «هو نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير ، هو حوضى ترد عليه

(١) رواه الطبراني

(٢) رواه البخارى ومسلم

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي

أمتى يوم القيامة » وقال ﷺ « أنا فرط لكم على الحوض ، وإن بعد ما بين طرفيه كما بين صنعاء وأيلة ، كأن الأباريق فيها النجوم » ^(١) والفرط هو الذى يتقدم القوم إلى الماء ، يهين الدلاء والرشاء ، والرسول ﷺ فرط أمته وسابقهم ومتقدمهم إلى الحوض .

وفي الحديث أيضاً « الحوض مسيرة شهر ، وزواياه سواء يعنى عرضه مثل طوله ، وكيزانه «أكوابه» مثل نجوم السماء ، أطيّب ريحاً من المسك ، وأشدّ بياضاً من اللبن ، من شرب منه لم يظمأ بعده أبداً » ^(٢)

وهذا الحوض يشرب منه أتباع النبي ﷺ ، المتمسكون بستته ، ويحرم منه أهل الأهواء والبدع ، ومن غيروا وبدلوا ، ونكصوا على أعقابهم ، وارتدوا عن دينهم كما فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « بيننا أنا قائم إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم ، خرج رجل من بينى وبينهم ، فقال لهم : هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ، قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم ، خرج رجل بينى وبينهم ، فقال هلم ، قلت : إلى أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ، قال : إنهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل حمل النعم » ^(٣) أى المتروك من الإبل ليلاً ونهاراً بدون راع .

وكيف يعرفهم ﷺ ؟ قال ﷺ : « إن حوضى أبعد من أيلة إلى عدن ، هو أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإنى لأصد الناس عنه ، كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا : يارسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون على غرأ محجلين من أثر الوضوء » ^(٤)

(٢) رواه أحمد فى مسنده

(٤) رواه مسلم

(١) رواه مسلم وأبو يعلى

(٣) رواه البخارى

أحاديث أخرى عن الحوض

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما نزلت «إنا أعطيناك الكوثر» قال لنا رسول الله ﷺ : هو نهر في الجنة ، حافته من ذهب ، يجري على الدر والياقوت ، تربته أطيب ريحاً من المسك ، وطعمه أحلى من العسل ، وماؤه أشد بياضاً من الثلج ، (١)

وقال ﷺ «حوضى مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً» (٢)

وقال ﷺ : «أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن رجال منكم ، ثم يحتجزون دونى ، فأقول : يارب أصحابى ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» (٣)

وعن عثمان بن مظعون ، عن النبی ﷺ أنه قال : «يا عثمان : لا ترغب عن ستى : فإنه من رغب عن ستى ثم مات قبل أن يتوب ، ضربت الملائكة وجهه عن حوضى يوم القيامة» (٤)

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف ، فصعد على المنبر ، فقال : «إني فرط لكم على الحوض ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضى الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» (٥)

وعن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله : ما آتية الحوض ؟ قال : «والذى نفسى بيده لآتيه أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة لا

(١) رواه أبو داود والبيهقى والترمذى وقال حسن صحيح

(٢) رواه البخارى

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) رواه البخارى ومسلم بنحوه

(٥) رواه الترمذى

المصحية، من آية الجنة ، يشخب (يسيل) فيه ميزابان من الجنة ، من شرب منه لم يظلم ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمان إلى أيلة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ،^(١)

وعن أسماء بنت أبي بكر ، قالت ، قال النبي ﷺ : «إني على الخوض ، حتى أنظر من يرد على منكم ، وسيؤخذ أناس دوني ، فأقول : يارب . مني ومن أمتي، فيقال : هل شعرت بما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»^(٢) فكان ابن أبي مليكة يقول : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا . أو نفتن عن ديننا .

فيتلخص من مجموع هذه الأحاديث المتواترة صفة هذا الخوض العظيم ، والمورد الكريم ، من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذي هو أشد بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحاً من المسك ، وهو في غاية الإشباع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر ، وإنه ينبت في حال من المسك ، ورضراض من اللؤلؤ ، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء ، لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه .

وهذا الخوض يحرم من الشرب منه أهل الأهواء والبدع ، والردة والعياذ بالله .
وعما سبق يتبين أن الخوض قبل الصراط ، لأن الذين يمنعون من الخوض لا يمكن أن يكونوا قد اجتازوا الصراط لأن الذي جاوز الصراط لا يكون إلا ناجياً مسلماً ، فمثل هذا لا يحجب عن الخوض ، فالخوض قبل الصراط ، والله أعلم ، ولكن اختلف : هل يكون الشرب من الخوض قبل الميزان أم بعده ، أم من قبل ذلك ، إذ يقوم الناس من قبورهم عطاشاً ، فكل ذلك محتمل ، لأنه لم يأت دليل قطعي بتحديد وقت ورود الناس للشرب من الخوض ، والله أعلم .

(١) رواه مسلم

(٢) رواه البخاري ومسلم

« الصراط »

ثم ينتهي الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف ، إلى الظلمة التي دون الصراط ، وهي على جسر جهنم ، كما في حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ سئل : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال : « هم في الظلمة دون الجسر » (١)

فما الصراط ؟ قال النبي ﷺ : « الصراط كحد الشعرة ، وكحد السيف ، وإن الملائكة تحجز المؤمنين والمؤمنات ، وإن جبريل عليه السلام يحجزني ، وإني لأقول : يارب سلم سلم ، فالزلازل والزلازل يومئذ كثير » (٢)

وهذا الصراط قد مد على متن جهنم ، ولا سبيل إلى الجنة إلا بالمرور على الصراط . قال تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَامًا ۖ ﴾ (٣)

وعن عبيد بن عمير أنه كان يقول : أيها الناس ، إنه جسر مجسور ، أعلاه دحض منزلة ، والملائكة على جنبات الجسر يقولون : رب سلم ، قال : وإن الصراط مثل السيف على جسر جهنم ، وإن عليه كلاليب وحسكا ، والذي نفسي بيده ، إنه ليؤخذ بالكلاب الواحد أكثر من ربيعة ومضر .

وعن سعيد بن أبي هلال ، قال : « بلغنا أن الصراط يوم القيامة وهو على الجسر يكون على بعض الناس أدق من الشعر ، وعلى بعض الناس مثل الوادي الواسع » (٤)

(٢) رواه البيهقي بسند صحيح

(٤) رواه ابن أبي الدنيا

(١) رواه مسلم

(٣) سورة مريم آية ٧١ ، ٧٢

وعن عبد الله بن مسعود ، فى تفسير قول الله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » قال : قال النبى ﷺ :

« يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم » ^(١) وعنه - رضى الله عنه - قال : « يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر كمر البرق ، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل ، ومنهم من يمر كأجاويد الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرأ ، رجل نوره على موضع إبهامى قدميه ، ثم يتكفأ به الصراط ، والصراط دحضاً منزلة ، عليه حسك كحسك القتاد ، حافته عليهما ملائكة ، معهم كلاب من نار يخطفون بها الناس » ^(٢)

وقال ﷺ فى معرض حديثه عن الشفاعة العظمى « ... فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أولكم كالبرق ، قال : قلت : بأبى وأمى ، أى شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع فى طرفه عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد الرحال تجرى بهم أعمالهم ، ونيبكم قائم على الصراط يقول : رب سلم . سلم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفى حافتي الصراط كلاب معلقة ، مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكدوس فى النار » ^(٣) وفى الحديث أيضاً : أن النبى ﷺ قال : « يضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم . وفى جهنم كلاب مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس

(١) رواه الترمذى وأحمد بإسناد صحيح

(٢) رواه الترمذى

(٣) رواه مسلم

بأعمالهم» (١) وقد قال بعض الوعاظ - فيما حكاه القرطبي ، في التذكرة :
 «توهم نفسك يا أخى إذا سرت على الصراط ، ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء
 مدلهمة ، وقد تظلى سعيها ، وعلا لهيبها ، وأنت تمشى أحياناً ، وترحف أحياناً
 أخرى ، ثم أنشد :

إذا برز العباد لذى الجلال ؟	أبت نفسى تشوب فما احتيالى
بأوزار كأمثال الجبال	وقاموا من قبورهم حيارى
فمنهم من يكب على الشمال	وقد نصب الصراط لكى يجوزوا
تلقاه العرايس بالغوالي	ومنهم من يسير لدار عدن
غفرت لك الذنوب فلا تبالى	يقول له المهيمن : يا ولى

(١) رواه مسلم

(٢) التذكرة للقرطبي

القنطرة

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

ثبت في صحيح البخارى من حديث قتادة عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «إذا خلع المؤمنون من الصراط ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن بدخول الجنة ، فلأحدهم أهدى إلى منزله في الجنة من منزله الذي كان في الدنيا» (١)

فبعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام ، وأمان من الوقوع في النار يوقفون على تلك القنطرة ، بين الجنة والنار ، لتهديبهم وتطهيرهم من كل ما كان بينهم من عداوات أو شحناء ، أو حقوق لبعضهم على بعض ثم يؤذن لهم بدخول الجنة بعد ذلك ، وقد طهرت نفوسهم ، وزكت أرواحهم ، إذ لا يحق لأحد أن يدخل الجنة وفي نفسه من أخيه شيء ، كما قال تعالى :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾ (٢)

(١) رواه البخارى

(٢) سورة الحجر آية ٤٧

مشاهد تراها يوم القيامة

قال الإمام أحمد ، عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة ، فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ، فيقول : يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد أبلغتك « (١)

قال تعالى :

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ

يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢)

وفى الصحيحين «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه الله من سبع أرضين» (٣) وما تراه ، كما جاء فى الصحيحين «من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافع» (٤) وفى رواية : «يعذبون ، يقال : أحيوا ما خلقتم » وفى الصحيح : «من تحلم بحلم لم يره ، كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين وليس بفعل» (٥) وكذلك ترى حال مانعى الزكاة كما وصفه رسول الله ﷺ

(٢) سورة آل عمران آية ١٦١

(٤) رواه البخارى ومسلم

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٥) رواه البخارى

بقوله : «ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه ، إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى به جبهته ، وجنباه ، وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وذكر بقية الحديث في مانع زكاة الغنم والإبل أنه ييطح لها بقاع قرقر ، تطؤه بأخفافها ، وأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما مرت عليه أхраها عيادت عليه أولاهها ، حتى يقضى بين العباد ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » (١)

ومما تراه من مظاهر رحمة الله تعالى يوم القيامة :

ما رواه الإمام أحمد ، عن عبدالله بن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول الله له : أتتكر من هذا شيئاً ؟ ظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول الملك : ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : أخبروه ، فيقول : يارب ، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لا تظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، قال : فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة ، « ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم » أو « ولا يثقل مع اسم الله شيء » (٢)

ومما تراه أنك ترى الظالمين مشفقين مما هو واقع بهم ، قال تعالى :

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه بسند حسن غريب ، والحاكم وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ،

ووافقه الذهبي والالباني

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ ﴿١٤﴾ مُطِيعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدَّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ
وَأَفْنَدْتُهُمَّ هَؤُلَاءِ ﴾ (١)

ومما تراه أنه «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » (٢) وقال ﷺ : «يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل في كل مكان ، يسحبون إلى سجن في جهنم يسمى «بولس» تملوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » (٣) وكذلك ترى حال أناس هم المراءون بأعمالهم ، الذين لم يتغوا بها وجه الله ، فيكونون أول من تسعر بهم النار .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، فقال : فما عملت فيها ، قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرى ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : إنك عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار » (٤) المراءون هم أول الناس

(١) سورة إبراهيم آية ٤٢ - ٤٤

(٢) رواه مسلم

(٤) رواه مسلم

(٣) رواه الترمذى ، وهو في صحيح الجامع

يقضى عليهم يوم القيامة ، المراءون الذين لم يبتغوا بأعمالهم وجه الله ، صلوا ليراهم الناس وتصدقوا ليمدحهم الناس ، وحجوا ليحصلوا لقب «الحاج فلان» وتعلموا العلم ليقال : ما أعلمه ، وقرأوا القرآن ليقال ، أقرأ الناس فلان . هؤلاء وإن خفى أمرهم على العباد ، فإنه لا يخفى على رب العباد الذى «يعلم السر وأخفى» .

وكذلك «إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء ، قال الرب تبارك وتعالى : «انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك» (١)

هذا ، والجمع بين حديث «أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة» وحديث «أول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء» بأن الأول فيما يتعلق بحقوق الرب عز وجل ، وأما الثانى فإنما هو فيما يتعلق بحقوق العباد بعضهم البعض . وسترى أناساً مفلسين يوم القيامة مع كثرة أعمالهم .

ومن هنا قال ﷺ يوماً لأصحابه : «أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن قُتيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ثم طرح في النار» (٢)

ومن الظلم عدم العدل بين الزوجات ، وقد جاء فى الحديث : «من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما ، جاء يوم القيامة وشقه مائل» (٣) ومن الظلم حرمان

(٢) رواه مسلم وابن ماجه ، وهو فى صحيح الجامع .

(١) رواه مسلم

(٣) رواه البخارى

الإناث خاصة من الميراث والتركه « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » (١) فبادر « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » (٢)

ومن مشاهد القيامة ما رواه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصنع « يغمس » في النار صبغة ، ثم قال : يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصنع صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » (٣)

وعنه أن النبي ﷺ قال : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : ما أسأل وأتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة .

ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع « بقدر » الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى رب نعم ، فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل ، فيرد إلى النار » (٤)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل

(١) رواه أحمد وابن ماجه

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه البخارى

(٤) رواه أحمد وصححه الألبانى ، فى صحيح الجامع

النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا « (١)

وتلك أعمال تنجس صاحبها من أهوال يوم القيامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » (٢) وعن عبدالرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة ، فقال : « إني رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلاً من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلاً من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتى والنيبون قعود حلقاً حلقاً كلما دنا حلقة طردوه ، فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده وأقعده بجانبى ، رأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة فهو متحير فيها ، فجاءته حجته وعمرته فاستخرجه من الظلمة وأدخله في النور ، ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم ، فقالت يا معشر المؤمنين : كلموه ، فكلموه ، ورأيت رجلاً من أمتى يتقى شرر النار ووهجها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت سترأ على وجهه وظلاً على رأسه . ورأيت رجلاً من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه

(١) رواه مسلم

(٢) رواه مسلم

بشره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من بين أيديهم وأدخله مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله تعالى فأخذ صحيفة فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك مضى ، ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط بعد كما ترعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعده ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة ، فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة « (١)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر ، قال الله عز وجل : أنا أحق بذلك منك بجاوزوا عن عبي « (٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله إجتمعاً عليه وتفرقاً عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه « (٣)

(١) رواه الترمذي

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه الجماعة

نظرة على أرض المحشر

هل خلت أرض المحشر من أهلها ؟

لقد رحل عنها الكثير . ممن ثقلت موازينهم ، ودخلوا الجنة ، أو من خفت موازينهم ودخلوا النار ، لكنها لم تخل بعد ، ذلك أن قوماً استوت موازينهم وتساوت ، فلم تثقل الحسنة ، ولا السيئات ، فأوقفوا على جبل بين الجنة والنار يقال له الأعراف ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا عليهم وهتوهم ، وطمعوا أن يدخلوا الجنة مثلهم ، وإذا أريد لهم أن ينظروا إلى أهل النار استعاذوا بالله منها ومن أهلها ، ودعوا ربهم ألا يكونوا مع القوم الظالمين .

وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَيَبْتَغُوا حِجَابًا وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ
يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يظْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

فمن حذيفة رضى الله عنه قال : أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار ، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك ، قال : قوموا ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم ، (١)

وإذا نظرت إلى أرض المحشر مرة أخرى ، ربما وجدت أناساً قصرت بهم أعمالهم عن دخول الجنة ، فهؤلاء قوم لهم سيئات ، ماتوا عليها ، ولم يتوبوا

(١) سورة الأعراف آية ٤٦ ، ٤٧

(٢) رواه الحاكم في المستدرک ، وقال : هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي

منها ، وآخرون لهم كبائر ، إستوجبت دخولهم النار ، ولكن هؤلاء وأولئك ، أراد الله عز وجل أن يدخلهم في رحمته بمشيئته

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۖ ﴾ (١)

فيأذن الله عز وجل فيهم بالشفعاء ، فيشفع النبي ﷺ ، ومن بعده ، كما قال ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة ، فهي نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » (٢)

فإذا خلت أرض المحشر من أهلها أذن الله عز وجل للشفعاء أن يخرجوا عصاة الأمة - الذين ماتوا على التوحيد - من النار .

كما جاء في الحديث : « . . . فيقول الله تعالى : اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه » ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه ، وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا . ثم يعودون ، فيقول ، اذهبوا فممن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا .

قال أبو سعيد : « فإن لم تصدقوني ، فافروا »

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا ۖ ﴾ (٣)

« فيشفع النيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبار : بقيت شفاعتي ، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا «احترقوا» . فيلقون في نهر بأفواه الجنة ، يقال له ماء الحياة ، فينبتون في حافتيه ، كما تنبت الحبة في حميل السيل »

(١) سورة النساء آية ٤٨

(٢) متفق عليه

(٣) سورة النساء آية ٤٠

ما يجرى به السيل من طين وغيره» قد رأيتموها إلى جانب الصخرة ، وإلى جانب الشجرة ، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر ، وما كان منها إلى الظل كان أبيض ، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ، فيجعل في رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ، ولا خير قدموه ، فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه» (١)

وقد جاء في أحاديث الشفاعة أيضاً : (... فأوتى فأقول : أنا لها فأنتطلق فاستأذن على ربي فيؤذن لي ، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن ، يلهمني الله ، ثم أحرله ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها فأنتطلق فأفعل ، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ، ثم أحرله ساجداً فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعطه واشفع تشفع ، فأقول : أمتى أمتى ، فيقال : انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنتطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أحرله ساجداً فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول يا رب أمتى أمتى ، فيقال لي : انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنتطلق فأفعل . ثم أرجع إلى ربي في الوابطة فأحمده بتلك المحامد ، ثم أحرله ساجداً ، فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط واشفع تشفع ، فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، قال : ليس ذاك لك - أو إليك - ولكني وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله » (٢)

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه ، وراجع أحاديث الشفاعة بتوسع

حال آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة

وفي الحديث أيضاً : « . . . حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرم الله على النار أن تاكل من ابن آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، فيقول : يارب قد قشبنى ريحها «أى آذانى وأهلكنى » وأحرقنى ذكاؤها «أى لهبها وشدة وهجها » فاصرف وجهى عن النار ، فلا يزال يدعو الله ، فيقول : لعلك إن أعطيتك أن تسألنى غيره ، فيقول : لا ، وعزتك لا أسألك غيره ، فيصرف وجهه عن النار ، ثم يقول بعد ذلك : يارب قربنى إلى باب الجنة ، فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألنى غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فلا يزال يدعو ، فيقول : لعلى إن أعطيتك ذلك تسألنى غيره ، فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، فيعطى الله ما شاء من عهد وميثاق أن لا يسأله غيره فيقربه إلى باب الجنة . فإذا رأى ما فيها سكنت ما شاء الله أن يسكت ثم قال : رب أدخلنى الجنة ثم يقول : أوليس قد زعمت أن لا تسألنى غيره ؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول : يارب لا تجعلنى أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها ، قيل : تمن من كذا ، فيتمنى ، ثم يقال له : تمن من كذا ، فيستمنى حتى تنقطع به الامانى ، فيقول : هذا لك ومثله معه .

قال أبو هريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا ، قال عطاء : و «أبو سعيد » جالس مع أبو هريرة لا يغير عليه شيئا من حديثه حتى انتهى إلى قوله : «هذا لك ومثله معه » قال أبو سعيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : هذا لك وعشرة أمثاله ؟ قال أبو هريرة : حفظت . «مثله معه » (١)

وبهذا تخلو أرض المحشر من أهلها ، وكذلك يخرج من النار من ليس يخلد فيها ، فيكون من بقي بها سيخلد فيها ، ومن أدخل الجنة سيخلد فيها ولذلك عقب تلك المشاهد كلها ، والعرضات هذه جميعاً ، تكون الكلمة الفاصلة ، إذ يؤتى بالموت على صورة كبش أملح فيذبح ، كما جاء في الحديث ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يناد مناد : يا أهل الجنة : لاموت ، ويا أهل النار : لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم » (١)

و رواية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء يوم القيامة بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا ؟ فيشربون وينظرون ، فيقولون : نعم هذا الموت ، قال ثم يقال : يا أهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيشربون وينظرون ، فيقولون : نعم هذا الموت ، قال : فيؤمر به فيذبح ، قال : ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت فيها ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

وأشار بيده إلى الدنيا » (٣)

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال - يرفعه إلى رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة أتى بالموت كالكبش الأملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح وهم ينظرون ، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار » (٤) .

(١) رواه البخاري

(٢) سورة مريم الآية ٣٩

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح

اهل الجنة ينادون على اهل النار وأهل النار ينادون على اهل الجنة

قص علينا القرآن الكريم فى بعض مشاهد يوم القيامة أن اهل الجنة ينظرون على اهل النار ، ويتم التخطاطب بينهم ، وأن اهل الجنة سيضحكون على اهل النار ، وذلك من تحقيق العدل الذي قاله الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ
 ٣٠ ﴿وَإِذَا امْرَأُؤُهُمْ هَبَّتْ غَيْرُوهَا تَبْكُونَ ٣١﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ
 ٣٢ ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ٣٣﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ
 حَافِظِينَ ٣٤ ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٥﴾
 عَلَىٰ الْأُولَٰئِكَ يَنْظُرُونَ ٣٦ ﴿هَلْ تَوَثَّىٰ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٣٧﴾ (١)

ولذلك نرى القرآن الكريم حكى لنا مشهداً فردياً ، وآخر جماعياً .

أما المشهد الفردى فهو قصة رجل مؤمن كان يحاور رجلاً ملحداً فى الدنيا ، ينكر البعث بعد الموت ، والمؤمن يدعوه إلى الإيمان ، ويأبى الكافر إلا أن يدعوه إلى الدخول معه فى كفره ، فلما فاز المؤمن بالجنة وتذكر قرينه الكافر فأراد أن يعرف أين هو ، فقال : يحكى لأهل الجنة

﴿ قَالَ

قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١ ﴿يَقُولُ أَهْ تَكْ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ٥٢﴾
 أَمْ دَامْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَمْ نَأْمِدُنُوهُمْ ٥٣ ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ

مُطْلِعُونَ ﴿٥١﴾ فَأَطَاعَ فَرَّءُهُ فِي سَوَاءِ الْبَحِيرِ ﴿٥٢﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ
كَدَتْ لَشَرْدِهِنَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضِرِينَ ﴿٥٤﴾ أَفَمَا
نَحْنُ بِمَعِينِينَ ﴿٥٥﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعْدَدٍ بِهِنَ ﴿٥٦﴾ إِنْ هَذَا
لَهُوَ الْقُوَى الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٥٨﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ
مِنْ زُلَا أَمْرٍ شَجَرَةِ الزُّقُومِ ﴿٥٩﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْبَحِيرِ ﴿٦١﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
﴿٦٢﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا قَامِرُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا
لَشَوْبَاتٍ حَمِيمٍ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْبَحِيرِ ﴿٦٥﴾

وأما المشهد الجماعي فقد بين ربنا عز وجل أن أهل الجنة ينادون على أهل النار،

فقال :

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ
مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بِهِمْ هُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

وإذا كان أهل الجنة لهم الحق في النداء على أهل النار وسؤالهم أو السخرية

منهم، فلماذا ينادى أهل النار على أهل الجنة، يقول الله تعالى :

(١) سورة الصافات آية ٥١ - ٦٨

(٢) سورة الاحزاب آية ٤٤ - ٤٥

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ
 أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ خَزَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ الَّذِينَ
 اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ
 كَمَا نَسِفُوا الْقَاءَ يَوْمَهُمْ هَٰذَا أَوْ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝﴾ (١)

نهاية المطاف ، والمستقر الأخير

«دار السلام أو دار البوار»

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار ، وأنهما حق لا ريب فيه ولا شك ، وأن الله عز وجل قد أعد الجنة للمتقين ، وأعد النار للغاوين ، فالجنة دار أولياء الله ، والنار دار أعداء الله .

وقد أخبر الله عز وجل عنهما بأسلوب الماضي «أعدت» فلا بد من اعتقاد وجودهما الآن . كما يجب الإيمان بدوامهما وبقائهما بإبقاء الله لهما ، وأنهما لا تغنيان أبداً ، ولا يفنى من فيهما ، فكل من دخلهما ينطبق عليه «خالدين فيها أبداً» ، ولكن هذا لا ينطبق على عصاة الموحدين الذين تمسهم النار بقدر جنائتهم ، ويدخلونها ، ثم يخرجون منها برحمة الله تعالى ، ثم بشفاعة الشافعين - على نحو ما أسلفنا .

وأن نعيم الجنة وعذاب النار يكون بالروح والجسد معاً ، وأنه يشتمل على مطاعم ومشارب ، وملبس يختلف ذلك بين أهل الجنة وأهل النار ، ويزيد أهل الجنة في النعيم أمر التمتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ، والزيارات الكريمة واللقاءات الحبيبة ، على نحو ما سنبين إن شاء الله .

وعند الكلام عن الجنة والنار يحار المسلم ، هل يتكلم عن الجنة أولاً ثم النار أم العكس من ذلك ، لكنني أرى أن الله عز وجل إذا تكلم عن الجنة أردف الحديث عنها بالنار أو العكس منه ، جمعاً بين الترغيب والترهيب ، ولذلك سأحاول - في كتابي هذا - أن أبتكر طريقة جديدة في الحديث عن الجنة والنار معاً ، على سبيل المقارنة والموازنة ، وليكون على طريقة القرآن الكريم الذي يقرن في الحديث بينهما في مثل قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ

يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَ مَا دَخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٨﴾

وفى مثل قوله تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٨﴾

وكذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِمَا أَلَدَّتْ لَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَفِلُوا ﴾ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾

فنقول : وبالله تعالى التوفيق :

الجنة فى الأصل : البستان من النخل أو الشجر ، وهى مأخوذة من جن إذا

(١) سورة النساء آية ١٣ . ١٤

(٢) سورة البقرة آية ٢٤ . ٢٥

(٣) سورة يونس آية ٧ - ١٠

شتر ، وسميت بذلك ، لأن نخيلها الباسقات وأشجارها المورقة تلتف أغصانها بعضها ببعض ، فتكون كالظلة تستر ما تحتها . والمقصود بالجنة هنا : الدار التي عدها الله للمتقين جزاء لهم على إيمانهم الصادق وعملهم الصالح .
وإذا كان الله تعالى يكافئ الأبرار بالنعيم ، فإنه يجازى الفجار بالجحيم ، عقاباً لهم على ما اقترفوا من كبائر الإثم والفواحش والجحيم هذه هي دار العذاب .

أسماء الجنة والنار

أولاً : أسماء الجنة :

١ - الجنة : لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (١)

٢ - المأوى : لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٢)

٣ - عدن : لقوله تعالى :

﴿ جَزَاءُ مَنْ عِنْدَ رَبِّكَ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (٣)

٤ - الفردوس : لقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَرْتَوُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤)

٥ - النعيم : لقوله تعالى :

(٢) سورة النازعات آية ٤٠ - ٤١

(٤) سورة المؤمنون آية ١٠ ، ١١

(١) سورة مريم آية ٦٣

(٣) سورة البقرة آية ٨

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ (١)

٦ - المقام الأمين : لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٢)

٧ - دار المقامة : لقوله تعالى :

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا

نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ﴾ (٣)

٨ - دار السلام : لقوله تعالى :

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ فِيهَا يَبْتَغُونَ كُنُوزًا لَا تَنْصَبُ وَلَا تَتَقَشَّرُ وَلَهُمْ فِيهَا

٩ - دار الخلد : لقوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (٥)

١٠ - دار الحيوان : لقوله تعالى :

﴿وَلِإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)

أي دار الحياة الحقيقية الباقية ..

١١ - مقعد صدق : لقوله تعالى :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ

فِي جَنَّاتٍ وَهُمْ فِي مَقْعَدٍ صَدِّقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ (٧)

(١) سورة لقمان آية ٨

(٢) سورة الانعام ، آية ١٢٧

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٤

(٤) سورة لقمان آية ٨

(٥) سورة الفاطر آية ٣٥

(٦) سورة البقرة آية ٨٠ وغيرها

(٧) سورة القمر آية ٥٤ ، ٥٥

ثانياً : أسماء النار :

١ - النار : لقوله تعالى :

﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١)

٢ - جهنم : لقوله تعالى : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُخْسِرُونَ الْقَرَارُ ﴾ (٢)

٣ - الجحيم : لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٣)

٤ - السعير : لقوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ (٤)

٥ - الحطمة : لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ② نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ③ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ ④ ﴾ (٥)

٦ - الهاوية : لقوله تعالى : ﴿ وَأَتَمَمْنَ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑤ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ⑥ ﴾

① وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ② نَارُ حَامِيَةٍ ③ ﴾ (٦)

٧ - لظى : لقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى ④ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ⑤ نَذَعُوا ⑥ ﴾

مَنْ أَدْبَرُ وَتَوَلَّى ⑦ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑧ ﴾ (٧)

٨ - سقر : لقوله تعالى :

﴿ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ⑩ لَا

تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ⑪ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ⑫ عَلَيْهَا سَعَةٌ عَشْرٌ ⑬ ﴾ (٨)

(١) سورة البقرة آية ٢٤

(٢) سورة إبراهيم آية ٢٩

(٣) سورة الملك آية ٥

(٤) سورة الفارقة آية ٨ ، ١١

(٥) سورة المدثر آية ٢٦ - ٣٠

(٦) سورة المائدة آية ٨٦

(٧) سورة الهزرة آية ٤ - ٧

(٨) سورة المعارج آية ١٥ - ١٨

٩ - دار البوار : لقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ لِنِعْمَتِ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾^(١)

أبواب الجنة ودرجاتها ، وأبواب النار ودرجاتها

للجنة ثمانية أبواب ، وثمانى درجات ، قال تعالى :

﴿ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَحَنَةٍ لَهُمْ فِي الْأَبْوَابِ ﴾ (١)

وقال : ﴿ وَالْمَلَكُ كَذِبٌ خُلُونَا عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ (٣)

وقال ﷺ : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم رفع بصره إلى السماء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » (٣) وقال ﷺ : « فى الجنة ثمانية أبواب . باب منها يسمى الريان ، لا يدخل منه إلا الصائمون » (٤) وفى حديث الشفاعة « يقول الله : يا محمد : أدخل من لا حساب عليه من أمتك الحسنة من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس فى بقية الأبواب ، والذي نفسى بيده ، إن بين المصرعين من مصاريع الجنة أو ما بين عضادتي الباب كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » (٥)

وقد قيل إن أبواب الجنة تسمى بباب التوبة ، وباب الصلاة ، وباب الصوم ، وباب الزكاة ، وباب الصدقة ، وباب الجهاد ، وباب الريان ، وباب الحج والعمرة كما فى الحديث « من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها ، وللجنة ثمانية أبواب - فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الزكاة دعى من باب الزكاة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من

(٢) سورة الرعد آية ٢٣ ، ٢٤

(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(١) سورة ص آية ٥٠

(٣) رواه مسلم وأحمد وأصحاب السنة

(٥) رواه البخارى ومسلم

باب الريان « فقال أبو بكر : يا رسول الله : ما على امرئ يدعى من أيها شاء من ضرورة ، فهل يدعى أحد منها كلها ، قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » (١)

وأما أبواب النار فهي سبعة ، ودركاتها كذلك ، قال تعالى :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ (٢)

وهي أبواب مؤصدة ، أى مطبقة ومغلقة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ (٣)

وحولها سرادق وهو سور عظيم محيط بها ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (٤)

أما دركاتنا فهي - كما ذكر - جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية وعصاة هذه الأمة فى أعلى دركاتنا ، والمنافقون فى أسفلها ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (٥)

وفى الحديث : إن للجنة ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من بعض « (٦) أى يرجى لأهل التوحيد منهم ما لا يرجى لغيرهم .

هذا ودرجات الجنة تذهب علواً ، ودركات النار تذهب سفولاً . هذا وفى جهنم أودية وجبال ، لورود الوحى بذلك ، ومنها :

الفى كما فى قوله تعالى :

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد

(٢) سورة الهمة آية ٨ ، ٩

(٣) سورة النساء آية ١٤٥

(٤) سورة الحجر آية ٤٤

(٥) سورة الكهف آية ٢٩

(٦) رواه الإمام أحمد

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ
فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ (١)

الأنام كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (٢)

الويل : كما قال تعالى : ﴿ وَيُلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ (٣)

وكذا : ﴿ وَيُلْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٤)

وقيل الويل بمعنى العذاب وضد النجاة .

ومن جبالها : «الصَّعُود» ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَأَرْهِفُهُ صُعُودًا ﴾ (٥)
وهو جبل يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ويهوي فيه كذلك ، وقيل بمعنى المشقة
من العذاب ، وكذلك قيل عن «الحموم» كما في قوله تعالى :

﴿ وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ۚ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴾ (٦)

أنه جبل في جهنم يستغيث إلى ظله أهل النار . وما روى عن جب الحزن ،
وسجن بولس ، ووادي للمم ، وكذلك وادي ههب ، فالله أعلم بصحة ذلك ،
وعافانا الله من ذلك .

(٢) سورة الفرقان آية ٦٨

(٤) سورة إبراهيم آية ٢

(٦) سورة الواقعة ، آية ٤٣ - ٤٤

(١) سورة مريم آية ٥٩

(٣) سورة المطففين آية ١

(٥) سورة المدثر آية ١٧

دخول المؤمنين الجنة ، والكافرين النار

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ
وَفْدًا ٨٥ ﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ٨٦

قال على : « والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم تر الخلائق مثلها . عليها رحائل من ذهب ، ليركبوا عليها حتى يضربوا أبواب الجنة »

كما قال تعالى :

﴿ وَسَيُقَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوا هَا فِيْهِ حَتَّىٰ أَبْوَابُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُولُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ
الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ٧٦ ﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا فَيَنسِفُ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ٧٧ ﴾ وَسَيُقَادُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى
الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا هَا فِيْهِ حَتَّىٰ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ طِبْنُمْ فَاَدْخُلُوا خَالِدِينَ ٧٨ ﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا
وَعْدَهُ وَوَوَّرْتَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ ٧٩ ﴾

ويقول ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، أول زمرة من أمتي تدخل

(١) سورة مريم آية ٨٥ ، ٨٦

(٢) سورة الزمر آية ٧١ - ٧٤

الجنة سبعون ألفاً لا حساب عليهم ، صورة كل رجل منهم على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد ضوء كوكب في السماء ، ثم هم بعد ذلك منازل » (١)

وقال ﷺ : «ل يدخلن الجنة من أمى سبعون ألفاً ، أو سبعمائة ألف - شك فى إحداهما - متماسكين ، آخذاً بعضهم ببعض ، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدر » (٢) وفى رواية «أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، فاستردت ربى عز وجل ، فزادنى مع كل واحد سبعين ألفاً » (٣)

وقال ﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يمتخطون فيها ، ولا يتغوطون فيها ، وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم من الألوة ، وريحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى من سوقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشية » (٤)

وفى رواية «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على صورة أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبسلون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم - ما يسرح به - الذهب ، وريحهم المسك ، مجامرهم الألوة - العود الذى يتبخر به - وأزواجهم الخور العين ، وأخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم ، ستون ذراعاً » (٥)

وأما عن سنهم وهيتهم ، فيقول ﷺ : «يدخل أهل الجنة جرداً - ليس على بدنهم شعر - مردأ - لا شعر على وجوههم - بيضاً ، جمعاداً - خفافاً لينين

(١) رواه أحمد

(٢) رواه أحمد بسند فيه ضعف و الترمذى بنحوه ، فى صحيح مسلم « مع كل ألف سبعون ألفاً »

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه مسلم

مجتمعين - مكحلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، على خلق آدم ، ستون ذراعاً في عرض سبع أذرع ^(١)

وفى رواية : «يدخل أهل الجنة الجنة ، على طول آدم ، ستين ذراعاً بذراع الملك ، على حسن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ، ثلاث وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد ، جرداً ، مردأ ، مكحلين » ^(٢)

وأما الكافرون وأهل النار عموماً ، ما إن تراهم من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيطاً وزفيراً

﴿ إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا ﴾ ^(٣)

ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ^(١٣) هَٰذِهِ

النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ^(١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أُنْشِئَ لَا تَبْصُرُونَ ^(١٥)

أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ^(١٦) ﴾

واليك طرف من عذابها :

(١) رواه أحمد بسند صحيح ، وكذا الترمذی

(٢) رواه ابن أبي الدنيا

(٣) سورة الفرقان آية (١٢)

(٤) سورة الطور آية ١٣ - ١٦

ذكر جهنم ، وشدة حرها ، وشدة سوادها وبُعد عمقها ، وشدة عذابها

(١) شدة حرها :

﴿ وَقَالُوا لَا

قال تعالى :

تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (١)

كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۚ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ۖ نَارُ أَحَامِيَةٍ ۚ ﴾ (٢)

وقال جل شأنه :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَالِيَةِ ۚ ۝ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۚ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ

﴿ نَصَلِّي نَارَ أَحَامِيَةٍ ۚ ۝ نُسْقِي مِنْ عَيْنٍ عَاطِيَةٍ ۚ ﴾ (٣)

وقوله

﴿ يَطْلُوفُونَ يَبْتِغَاهَا وَبَيْنَ حَيْثُورَانِ ۚ ﴾ (٤)

أى حار . قد تناهى حره و بلغ الغاية فى ذلك .

وفى الحديث عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، فقال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » (٥)

وفى رواية أحمد « ناركم هذه التى يوقدها بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية ، قال : فإنها فضلت عليها بتسعة

(٢) سورة القارة آية ٨ - ١١

(١) سورة التوبة آية ٨١

(٤) سورة الرحمن آية ٤٤

(٣) سورة الفاشية آية ١ - ٥

(٥) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد ومالك

وستين جزءاً كلهن مثل حرها» (١)

(ب) شدة سوادها : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة» (٢)

وفى رواية عن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣)

وقال : أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء فلا يضيء لهنها» (٤)

(ج) بعد عمقها :

قال رسول الله ﷺ : «لو أن حجراً قذف به في جهنم ، لهورى سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها» (٥)

وعن أبي هريرة قال : كنا عند رسول الله ﷺ يوماً : فسمعنا وجبة ، فقال ﷺ : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً والآن انتهى إلى قعرها» (٦) وعن عتبة بن غزوان ، أنه قال في خطبة : «إن الحجر يلقي من سفير جهنم ، فيهورى فيها سبعين عاماً ، لا يدرك لها

(١) رواه أحمد في مسنده

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه

(٤) رواه ابن مردويه

(٦) رواه مسلم وأحمد

(٣) سورة التحريم ، آية ٦

(٥) رواه الحافظ أبي يعلى

قعرأ ، والله لتملان . أفعجبتم ؟ وقد ذكر لنا : «إن ما بين مصراعين من أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام» (١)
(د) سعتها :

كما حدث ﷺ عن سعة جهنم ، فقال : «أتدرون ما سعة جهنم ؟ فقلنا : لا ، فقال : أجل والله ما تدرون ، إن ما بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً» (٢)

وجاء في الحديث «يجاء بجهنم يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» (٣)

(هـ) شدة عذابها : قال ﷺ : «أدنى أهل النار عذاباً يتتعلم بنعل من نار ، يغلى دماغه من حرارة نعليه» (٤)

وفي رواية : «أهون أهل النار عذاباً رجل في رجله نعلان ، يغلى منهما دماغه» (٥)

ومن هؤلاء «أبو طالب» الذي ذكر عند النبي ﷺ فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة ، فيجعل في ضحضاح يبلغ كعبه ، تغلى منه أم دماغه» (٦)

وجاء الحديث برواية أخرى : «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، يتتعلم بنعلين يغلى منهما دماغه» (٧)

وفي الحديث أيضاً : «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان ، يغلى منهما دماغه ، كما يغلى الرجل ويغلى القمقم» (٨)

(١) رواه مسلم

(٢) رواه النسائي والبيهقي والترمذي وقال : صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) رواه الترمذي والنسائي

(٤) رواه مسلم

(٥) رواه أحمد

(٦) رواه البخاري

(٧) رواه مسلم

(٨) رواه البخاري ومسلم

(و) حرها وبردها :

قال ﷺ : « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : رب أكل بعضي بعضاً ، فنفسني فأذن لها في كل عام بنفسين ، فأشد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم ، وأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم »^(١)

وفي رواية « اشتكت النار إلى ربها ، فقالت : أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنفسين ، نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشد ما يكون الحر من فيح جهنم »^(٢)

وإن الكافر ليعذب ببردها كما يعذب بحرّها ، أو أن حرها أهون عنده من زمهريرها .

ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في خطبه : « أكثروا ذكر النار ، فإن حرها شديد ، وإن قعرها بعيد ، وإن مقامها حديد »

(ز) شررها :

قال تعالى :

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ۚ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۚ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفَّرٌ ۚ وَيَلْهُو بِمِذَابٍ لِّمَكْدِبٍ ۚ ۞ ﴾^(٣)

وعن ابن مسعود قال في قوله تعالى :

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۚ ﴾

(٢) رواه أحمد

(١) رواه البخاري ومسلم

(٣) سورة المراتل آية ٢٩ - ٣٤

أما إنه ليس مثل الشجر والجبل ، ولكن مثل المدائن والحصون « (١)
وقال النبي ﷺ : «لو أن شررة بالشرق ، لوجد حرها بالمغرب » (٢)
(ح) عظم خلق أهلها :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
بِقَائِلِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُئِلًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ
جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٣)

قال ﷺ : «يعظم أهل النار في النار ، حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى
عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل
أحد» (٤)

وفي الحديث : «ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام ، للراكب
المسرع» (٥)

(ط) مقامها وأغلالها :

قال تعالى : ﴿ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا اقْطَعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ
يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ يُصْهِرُ بِهِمْ مَكَافٍ
بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۖ وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (٦)

وفي الحديث : «لو أن مقمعا من حديد من مقامع أهل النار ، وضع في

(١) رواه الطبراني

(٢) سورة النساء آية ٥٦

(٥) رواه البخاري ومسلم ، موقوفاً

(٢) رواه الطبراني

(٤) رواه أحمد والبيهقي بسند صحيح

(٦) سورة الحج آية ١٩

الأرض ، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض ^(١) وكذا روى «لو ضرب بمقمع من حديد الجبل ، لفته فعاد غباراً»

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال في أهل النار : «إن الحميم ليصب على رأس أحدهم ، فينفذ من الجمجمة ، حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلب ما في جوفه ، ثم يبرق من قدميه» ^(٢)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ ^(٣)

وقال : ﴿ إِنَّا لَنَدِينَاكُمُ الْغُلَاظَ الْجَحِيمَ ﴾ ^(٤) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ^(٥)

كما قال جل شأنه :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٦) إِذَا الْأَغْلَالُ فِي

أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ^(٧) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ^(٨)

وقال سبحانه :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ^(٩) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ^(١٠)

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ^(١١) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ

بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ^(١٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسَكِينِ ^(١٣)

وقد روى - بأسانيد جياد - عن كثير من السلف : أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر ، وتخرج من دبره ، فينظم فيها كما تنظم السمسة في الخيط ، والخرزة في السلك .

(٢) رواه أحمد

(١) رواه أحمد

(٤) سورة الزمل آية ١٢ ، ١٣

(٣) سورة الإنسان آية ٤

(٦) سورة الحاقة آية ٣٠ - ٣٤

(٥) سورة غافر آية ٧٠ - ٧٢

(ي) حياتها وعقاربها :

مادامت جهنم - أجارنا الله تعالى منها - هي دار العذاب ، وعالم الشقاء ، فالعذاب فيها أنواع متنوعة وصنوف مصنفة ، مما لم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولذلك فلا يستغرب أبداً وجود حيات فيها ناهشة ، وعقارب لادغة ، يعذب بها أهل النار ، لتكون عذاباً فوق العذاب كما قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (١)

وقد فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم ، وحيات تنهشهم ، عقارب كالبغال ، وحيات كالجمال (٢) وفي الحديث : « إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت - الإبل الخراسانية - تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة - الضخمة - تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها - ألها - أربعين سنة » (٣)

(١) سورة النحل آية ٨٨

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ص ١٦٠

(٣) رواه الحاكم ، وقال فيه صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

ذكر الجنة ، سعتها ، وطيب ريحها وقصورها ، وتفاضل أهلها

(أ) سعتها :

ما أوسع دار المتقين ، إن عرضها كعرض السموات والأرض ، كما قال ربنا عز وجل : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١)

وربما يقول قائل : هذا عرضها ، فأين طولها ؟ كما سأل هذا السؤال « هرقل » من قبل فأجابه النبي ﷺ : « سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار ، وأين النهار إذا جاء الليل » (٢)

(ب) طيب ريحها :

ما أطيب ريح الجنة ، وإن ريحها ليشم من مسيرة خمسمائة عام ، كما قال ﷺ : « وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام » (٣) وفي رواية « إن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام » (٤)

(ج) قصورها :

إن في الجنة قصوراً ليعجز الإنسان عن وصفها ، وعن التعبير عنها ، ولم لا ؟ وربنا عز وجل يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۚ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ

(١) سورة آل عمران آية ١٣٣

(٢) رواه أحمد وابن ماجه

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ

(٤) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي

سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَانَهُمْ مِنْهُمْ
شَرَابًا طَهُورًا ﴿٧١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٧٢﴾

وها هو النبي ﷺ وهو يتحدث عن آخر رجل يدخل الجنة ، فيقول : يقول « يارب » الحقنى بالناس ، فينطلق يَرْمُلُ في الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر ، من درة ، فيخر ساجداً ، فيقال له : ارفع رأسك مالك ؟ فيقول : رأيت ربي ، فيقال له : ارفع رأسك ، إنما هو منزل من منازلك ، ثم يلقي رجلاً فيتهياً للسجود له ، فيقال له : مه . فيقول : رأيت أنك ملك من الملائكة ، فيقول له : إنما أنا خازن من خزائنك ، وعبد من عبيدك ، فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر ، وهو درة مجوفة سقافها ، وأبوابها ، وأغلقها ، ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة ، كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى ، في كل جوهرة سرر ، وأزواج ، ووصائف أدنان حوراء عيناء ، عليها سبعون حلة ، يرى من ساقها من وراء حللها ، كبدها مرآته ، وكبده مرآتها ، إذا أعرض عنها إعراضة اردادت في عينيه سبعين ضعفاً ، فيقال له : أشرف . فيشرف ، فيقال له : ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك » (٢)

(د) أرضها :

ما تظن - أخى القارئ فى أرض الجنة ؟ هل هى من تراب أبيض أو أحمر ؟ وهل حصباؤها من حجارة ملونة ؟ وهل جدران مبانيها من لبن فى غاية الحسن والجمال ؟ كلا ، إنها أفضل من ذلك ، بل لا وجه للمقارنة ، يقول الصادق المصدوق ﷺ : «إنها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها «طينها» المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، ومن يدخلها ينعم

(١) سورة الإنسان آية ٢٠ - ٢٢

(٢) رواه الطبرانى والحاكم بسند صحيح ، وينحوه فى صحيح مسلم

ولايأس ، ويخلد ، ولايموت ، ولا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم ^(١) ، وقال ﷺ عن جنة عدن : « خلق الله جنة عدن بيده ، لبنه من درة بيضاء ، ولبنه من ياقوته حمراء ، ولبنه من زبرجدة خضراء ، وملاطها المسك ، وحشيشها الزعفران ، حصاؤها اللؤلؤ ، ترابها العنبر ، ثم قال لها إنطقي قالت :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

(هـ) خيامها :

فى الجنة ما تشتهيہ الأنفس وتلذ الأعين ، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون ، من كل ضروب السعادة وصنوف النعيم ، ولذلك لا يستنكر أن يكون فيها خيام ، إذ فى الخيام متع ولذلك قال ربنا عز وجل : « حور مقصورات فى الخيام » ^(٢) والسؤال هو ما شكل تلك الخيام ؟ وما نوعها ، وما مدى حسنھا وجمالھا ؟ يجيبك على هذا النبى المعصوم فيقول عليه الصلاة والسلام : « إن للمؤمن فى الجنة نخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها - فى السماء - ستون ميلاً ، وعرضها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » ^(٣)

(و) أسواقها :

وفى الجنة أسواق ، لأنها بها سرور وجبور ومتعة ، وليس بمستغرب أن تتوق نفس المؤمن فى الجنة إلى دخول سوق من الأسواق ، وخاصة الذين تعودوا الضرب فى الأسواق ، فيقول ﷺ : « إن فى الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب

(١) رواه الترمذى والدارمى وأحمد وابن حبان بسند صحيح

(٢) رواه الطبرانى وابن أبى الدنيا

(٣) سورة الرحمن آية ٧٢

(٤) رواه مسلم وكذا البخارى

ريح الشمال فتخثر في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، (١)

(ز) أنهارها :

هذا وفي الجنة أنهار ، سبحانه من خلقها ، إنها أنهار عظيمة تجري بقدرة الله عز وجل من تحت أهل الجنة ، بلا خد ولا حد ، لا يختلط لبنها بعسلها ، ولا بخمرها أو مائها ، إنها أنهار أربعة ، كما قال ربنا عز وجل : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ

الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٢)

ومع هذه الأنهار العظيمة ، نهر الكوثر ، وما أدراك ما الكوثر ؟ إن الله سبحانه وتعالى خص به نبينا محمداً ﷺ وأمه ، وهو أعظم أنهار الجنة وأحسنها ، كما وصفه ﷺ فقال «بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافته قباب الدر المجوف ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هو الكوثر الذي أعطاك ربك ، قال : فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر » (٣)

(ح) أشجارها :

ما أعظم أشجار الجنة : يقول النبي محمد ﷺ : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرءوا إن شئتم : ﴿ وَظِلِّ

تَمْدُودٌ ۝ وَمَاءٌ مَسْكُوبٌ ۝ وَكَأَيُّهَا كَثِيرَةٌ ۝ لَا تَقْطَعُ وَلَا

(١) رواه مسلم

(٢) سورة محمد آية ١٥

(٣) رواه البخاري

مَمْنُوعَةٌ ﴿٣٢﴾ وَفَرْشٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿٣١﴾

ويحدث «ابن عباس» رضى الله عنهما - عن هذا الظل ، فيقول «الظل الممدود» شجرة فى الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها ، فيخرج أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون فى ظلها فيستهى بعضهم ويذكر لهر الدنيا ، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهر كان فى الدنيا «^(٢) ويقول : نخل الجنة جزعها من زمرد خضر ، وكربها ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، والين من الزبد ، ليس فيها عجم» ^(٣)

وصدق ربنا عز وجل :

﴿وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
ظِلٌّ ظِلِيلًا﴾ ^(٤)

(ط) خيلها :

فى الجنة خيل ، يركبها أهل الجنة

يقول عبدالرحمن بن ساعدة رضى الله عنه : كنت رجلاً أحب الخيل ، فقلت :
يا رسول الله هل فى الجنة خيل ؟

فقال : إن أدخلك الله الجنة - يا عبد الرحمن - كان لك فيها فرس من

(١) رواه البخارى ومسلم ، والآيات من سورة الواقعة ٣٠ - ٣٤

(٢) رواه الحاكم وصححه ، وذكره المنذرى

(٣) رواه الترمذى وحسنه

(٤) سورة النساء آية ٥٧

الباقوت له جناحان يطير بك حيث شئت» (١)

ويقول ﷺ : «إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ، ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت ، لا تروث ولا تبول ، لها أجنحة خطوها مد البصر ، فيركبها أهل الجنة ، فتطير بهم حيث شاءوا» (٢)

(ب) وأما عن تفاوت درجاتهم ، وتفاضل ما بينهم :

فذلك أمر لا يقدره إلا الله تعالى ، وذلك يكون بحسب كمال إيمانهم ، وكثرة صالح أعمالهم .

هذا وقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام : «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم» ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين» (٣)

كما قال ﷺ : «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتهم الله فسلوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة «أى أفضلها» ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر - أو تفجر - أنهار الجنة» (٤)

وفي رواية : «الجنة - مائة درجة ، ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام» (٥) وقد روى : «إن أدنى أهل الجنة منزلة ، الذي ينظر إلى جنانه ونعيمه ، وخدمه ، وسرره ، من مسيرة ألف سنة ، وإن أكرمهم على الله من ينظر إلى

(١) رواه الطبراني ورواه ثقات

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٣) رواه أحمد

(٤) رواه ابن أبي الدنيا وسكت عنه المنذرى

(٥) رواه البخاري وأحمد

وجهه غدوة وعشية ، (١) ثم تلا هذه الآية

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّضِرَّةٌ ۖ إِلَىٰ سَائِطٍ مُّجْرَّءٍ ۚ (٢) وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّاحِحِينَ

وقد سبق الكلام عن أدنى أهل الجنة منزلة

وصدق ربنا إذ يقول :

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ

أَنْقَارُ بِهِمْ لَهُمْ غُفْرٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُفْرٌ مَّيِّتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ۖ (٣)

وكذلك قال سبحانه :

﴿ قَاوَلَتْ لِكُلِّ أَهْوَجَاءٍ أَصْعَفٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ۖ (٤)

وبين جزاء عباد الرحمن بقوله :

﴿ أُولَئِكَ يَجْرُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا

وَالَّذِينَ فِيهَا رَاحَتٌ وَسَلَامٌ ۖ (٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسَقَرًا وَمَقَامًا ۖ (٦)

وقال ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقيل لرسول الله : لمن هي ؟

قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » (٦)

ومن الحديث عن الجنة ، إلى الحديث عن النار ، ما هو طعام أهل النار وشرابهم ؟

(١) رواه أحمد بسند فيه ضعف ولكن له شاهد في الصحيحين

(٢) سورة الزمر آية ٢٠

(٣) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣

(٤) سورة الفرقان آية ٧٥ ، ٧٦

(٥) سورة سبا آية ٣٧

(٦) رواه أبو داود والترمذي والطبراني بسند حسن

طعام أهل النار وشرابهم

هل لأهل النار من طعام ؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن ياكلوا ويشربوا ؟

نعم ، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب ، إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة ، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون ، إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب ، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتْهُمْ

جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۖ ﴾ (١)

ويتمنون الموت فلا يجدونه ، ويسألونه فلا يستجاب لهم :

﴿ الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ۖ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۖ ﴾ (٢)

وكذلك : ﴿ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي

كُلَّ كَافُورٍ ۖ ﴾ (٣)

ولذلك فهم ياكلون ويشربون ، كذا يلبسون ، ويفرشون .

فما هو طعامهم ؟

١ - الزقوم :

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم ، مذاقه مر شديد المرارة ، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم ، ومن خواصه أنه يغلى في البطن غليان الماء فهو شبيه بالجير الذي إن صب عليه الماء فار وغلا ، قال تعالى - في بيانه :

﴿ أَذْذَكَ خَيْرٌ

(٢) سورة الأعلى آية ١٢ ، ١٣

(١) سورة النساء آية ٥٦

(٣) سورة فاطر آية ٣٦

نُزْلاً أَمْ شَجَرَةً الزَّقُومِ ⑪ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ⑫ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ⑬ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
⑭ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا آفَاقًا لَّئِنْ مِنْهَا الْبُطُونُ ⑮ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا
لَشَوَابِكًا حَمِيمًا ⑯

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ⑫

طَعَامُ الْأَثِيمِ ⑬ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ⑭ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ⑮

وفي الحديث عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية

﴿ أَتَقُوا اللَّهَ حَتَّى تَقَاتِمَهُ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ⑮

فقال : «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا ، لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه؟» ④

٢ - الغسلين

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قبح ، وصديد ، وعرق ، وما يخرج من فروج الزناة ، وما يسيل من لعاب شاربي الخمر ، والمغتربين ، والكذابين ، وقائلى الباطل ، وشاهدى الزور . وقد ورد ذكر الغسلين في قوله تعالى :

﴿ فَلَيْسَ لَهُ
الْيَوْمَ هَئِذَا جَحِيمٌ ① وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ ② لَا يَأْكُلُونَ
إِلَّا الْخَطِيطُونَ ③

(٢) سورة الدخان آية ٤٣ - ٤٦

(٤) رواه الترمذي وصححه

(١) سورة الصافات ، آية ٦٢ - ٦٧

(٣) سورة آل عمران آية ٢ - ١

(٥) سورة الحاقة آية ٣٥ - ٣٧

والمراد من الخاطئين هنا الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك ، كما قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَلْحَطَتْ بِهِ خُطْيَاهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١ ﴾

٣ - الضريع :

وهو نبات مر ، نتن ، به شوك ، ينشب في الحلق ، يسيغه الأكل بالحميم ، فيسب له إسهالاً فظيماً ، فلذا هو لا يسمن آكله ، ولا يغنيه من جوع ، أو لأنه يقف في الحلق لا يخرج ، ولا يستساغ كما قال تعالى :

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ١ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ٢ ﴾

وهذا الضريع أمر من الصبر ، وأشد حراً من النار ، لا يدخل البطن ، ولا يرتفع إلى الفم ، فيبقى بين ذلك ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ٣ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ٤ ﴾

٤ - الفساق :

وهو نتن بحيث لو أن دلواً أريق منه لانتن أهل الدنيا ، قال تعالى :

﴿ لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٥ إِلَّا جِيمًا وَعَسَاقًا ٦ جَرَاءً وَفَاقًا ٧ ﴾

وأظنه من الشراب ، وليس من الطعام ، والله أعلم .

(١) سورة البقرة ، آية ٨١

(٢) سورة العنكبوت ، آية ٦ ، ٧

(٣) سورة الزمل آية ١٢ ، ١٣

(٤) سورة النبا آية ٢٤ - ٢٦

وَأَمَّا شَرَايِعُهُمْ

الشراب لازم لكل ذى كبد رطبة، وأهل النار ذوو أكباد ، فلا بد لهم من ماء يشربون ، كما لابد لهم من طعام يأكلون ، إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة ، واستمرارها ، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها ، فلذا هم يأكلون ويشربون، ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش ، ولكن ليزيد فى محنتهم وطول عذابهم ، وقد سبق بيان بعض مآلهم ، وهذا بيان بعض مشاربهم .

١ - الحميم :

وهو ماء حار يجري من عين آتية ، أى أن درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً ، ومن خواصه أنه يصهر به ما فى بطونهم ، ويقطع أمعاءهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۖ

٢) نَضَلَّى نَارًا حَامِيَةً ٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ﴿١١﴾

وقال تعالى ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُ هُمْ ﴾ (٢)

کما قال :

﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي

بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۖ ﴿٦٠﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۚ ﴿٦١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا

أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٣﴾

(١) سورة الغاشية ، آية ٢ - ٥

(۲) سورة محمد آية ۱۵

(٢) سورة الحج آية ١٩ - ٢٢

٢ - ماء الصديد :

وهو ماء كدر ، يحوي كميات من الصديد ، يغص به شاربته حتى لا يكاد يسيغه ، يعاني شاربته منه آلاماً لا يعلم مداها إلا الله تعالى ، كما قال سبحانه :

﴿وَأَسْقِنَهُمْ حُلّاً وَخَبَابَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَنْجَرِعُونَ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُمْ بِمُعِيَّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾

ومع ذلك يشربه فيشوى وجهه ، ويوقع فروة رأسه ويقطع أمعائه ، ويخرج من دبره .

٣ - ماء المهل :

وهو ماء ثخين حار حتى لكانه النحاس المذاب ، بحيث إذا أدناه أحدهم من فمه ليشربه ، شوت حرارته جلدة وجهه ، كما قال تعالى :

﴿وَأَن يَسْنِغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢١﴾

٤ - ماء نهر الغوطة :

وهو ماء يتجمع مما يسيل من فروج الزواني من النساء ، كما قال النبي ﷺ : «ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله - جل وعلا - من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجري من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن » (٣)

(٢) سورة الكهف آية ٢٩

(١) سورة إبراهيم آية ١٥ - ١٧

(٣) رواه أحمد

هذا ، ونهى الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلي رواه الترمذي موقوفاً عن أبي الدرداء رضى الله عنه - حيث يقول « يلقي على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيتذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم بكلايب من الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم ، فيقولون : ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، قال : فيقولون : ادعوا مالكا : فيقولون : يا مالك ليقتض علينا ربك : قال : إنكم ماكثون » قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام ، قال : فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون :

« ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين . ربنا أخرجنا منها فلمن عدنا فإننا ظالمون » قال فيجيبهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » قال : فعند ذلك يشوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون فى الزفير ، والحسرة والويل^(١) وبعد أن ذكرنا طرفاً من طعام أهل النار وشرابهم ، ننتقل إلى الحديث عن طعام أهل الجنة وشرابهم .

(١) رواه الترمذي . باب صفة جهنم

طعام اهل الجنة وشرابهم

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى ، زعموا أن نعيم الجنة روحاني بحت ، لا شيء فيه من النعيم للجسم بالمرّة ، وهذا المعتقد خطأ محض ، وباطل لا شك في بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى ، وعن رسله عليهم السلام ، وذلك لأن الأرواح التي يراد لها النعيم لا يتم لها التمتع الحقيقي إلا إذا كانت حالة في أجسام ثلاثيها ، وتستقر فيها وتقوم بها ، ولأن الله قادر على ذلك ، كما هو في الدنيا ، كذلك في الآخرة بصورة أجل وأكرم ، ولتفضيل الآخرة على الدنيا حتمًا ، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم في الدنيا جثمانياً وروحياً ، وفي الآخرة روحياً فقط ، وإذا كان العقل يحتم ذلك فإننا ندعمه بالأدلة السمعية الدينية الشرعية التي هي أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله ﷺ

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ ^(١) والنبى عليه الصلاة والسلام

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ۝٢ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ ^(٢)

فربنا سبحانه وتعالى يخبر بما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فيقول وهو أصدق القائلين :

يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ

وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝١٨ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝١٩

أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٢٠ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ

مِنْ ذَهَبٍ وَكُؤُوبٍ وَفِيهَا مَا شِئْتُمْ مِنَ الْأَنْفُسِ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ۝٢١ وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْصَدْتُمْوهَا يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٢

(١) سورة النساء آية ٨٧

(٢) سورة النجم آية ٢ ، ٤

لَكُمْ فِيهَا قُلُوبُهُ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١﴾

وقال عز من قائل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَلُّوا أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُ الْأَشْخَافُ وَلَا تَحْرُفُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَدَّعُونَ ﴾ (٣)

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخْلَدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مِمَّا بَخَّضَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٣)

ويقول الرسول الكريم عليه الصلاة وأزكى التسليم : « أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفكرون ، ولا يبولون ولا يتغوطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » (٤) .

ويقول : « إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم صحفتان واحدة من ذهب والأخرى من فضة ، في كل واحدة لون ليس في الأخرى مثله ، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها ، يجد

(١) سورة الزخرف آية ٦٨ - ٧٣

(٢) سورة فصلت الآية ٣٠ ، ٣١

(٣) سورة الواقعة آية ١٧ - ٢١

(٤) رواه مسلم ، وفي البخارى بنحوه

لأخرها من الطيب واللذة ما يجد لأولها ، ثم يكون ذلك ربح المسك الأذفر ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون « (١)

وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (٢)

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ

مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنَايَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (٣)

وكذا قال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِتَابِيئَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ

قَوَارِيرًا ۝ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا أَنْفَادِيرًا ۝ وَسُقُونَ فِيهَا

كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝ عَيْنَا فِيهَا تُسْقَى سَلْسِيلًا ﴾ (٤)

يا عبد الله : إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه ، فيخر بين يديك مشوياً .

وقال سبحانه : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ۝ خَلْمُهُمْ سُكَّ وَفِي

ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُمْ تَنِيمٌ ۝ عَيْنَايَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٥)

هذا وما يأكله أهل الجنة ما ورد عن عبد الله بن سلام أنه سأل رسول الله ﷺ

لما قدم المدينة عن أشياء منها : « وما أول شيء يأكله أهل الجنة ؟ فقال : زيادة

كبد الحوت » (٦)

وفى رواية : « أن يهودياً سأل رسول الله ﷺ قال : فما تحفهم حين يدخلون

الجنة ؟ قال : زيادة كبد حوت » قال فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : يخر لهم

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني ، وقال المنذري رواه ثقات

(٢) سورة الإنسان آية ٥ ، ٦

(٣) سورة الحاقة ، آية ٢٤

(٤) سورة المطففين آية ٢٥ - ٢٨

(٥) سورة الإنسان آية ١٥ - ١٨

(٦) رواه البخاري

ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها ، قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين تسمى سلسيلا . قال : صدقت ^(١) .

ومن شرابهم : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ﴾ ^(٢)

قال ابن مسعود : الرحيق : الخمر ، مخموم : يجدون عاقبتها ريح المسك .
وعن ابن عباس : « ومزاجه من تسنيم » قال : هو أشرف شراب أهل الجنة ، يشربه المقربون صرفاً ويمزج لأهل اليمين .

وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة بصفات جميلة حسنة ، ليست فى خمرور الدنيا ، فذكر أنها أنهار جارية كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ ^(٣)

وكما قال تعالى : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ ^(٤)

فهذه الخمرة أنهار جارية ، مستمدة من بحار كبار هناك ، ومن عيون تنبع من تحت كسبان المسك ، وما يشاء الله عز وجل ، وليست كخمر الدنيا فى كراهة المطعم ، وسوء الفعل فى العقل ، ومغص البطن ، وصداع الرأس ، بل هى لذة للشاربين ، حسنة المنظر ، طيبة الطعم .

﴿ يُطَافُ ﴾

عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ^(٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ^(٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ
وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ^(٥)

« لا فيها غول » وهو وجع البطن « ولا هم عنها ينزفون » أى لا تذهب عقولهم .

(٢) سورة المطففين آية ٢٥

(٤) سورة محمد آية ١٥

(١) رواه مسلم

(٣) سورة الفاتحة آية ١٢

(٥) سورة الناصفات آية ٤٥ - ٤٧

وإنما المقصود من الخمر إنما هو الشدة المطربة ، وهى حالة البهجة التى يحصل بها السرور للنفس ، وهذا حاصل فى خمر الجنة ، فأما إذهاب العقل ، بحيث يبقى شاربها كالحیوان أو الجماد ، فهذا نقص ، إنما ينشأ من خمر الدنيا ، فأما خمر الجنة فلا تحدث هذا ، إنما يحصل عنها السرور والابتهاج . ولهذا قال :

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ^(١) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكُاسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ^(٢) لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ^(٣) ﴾

أى لا يورث لهم صداعاً فى رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم . وفى الجنة أكواب : وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم .
وأباريق : بخلافها من الوجهين .

﴿ وَكَأْسَادُهُمَا ^(٤) ﴾ الكأس هو القدح فيه الشراب ، «دهاقا» أى ملأى
مترعة ليس فيها نقص .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ^(٥) ﴾

أى لا يصدر عنهم فى شرايبهم شىء من اللغو ، وهو الكلام الساقط التافه ولا
تكذيب . كما قال ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ^(٦) ﴾

وكذا قال : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْوًا ^(٧) ﴾

وأيضاً ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا ^(٨) إِلَّا فِيهَا سِلْسَلَةٌ مُّسَالِمَةٌ ^(٩) ﴾

يطوف بها الخدم والغلمان :

(١) سورة الواقعة آية ١٧ - ١٩

(٢) سورة النبأ آية ٣٤

(٣) سورة النبأ آية ٣٥

(٤) سورة الطور آية ٢٣

(٥) سورة الغاشية آية ١١

(٦) سورة الواقعة آية ٢٥ ، ٢٦

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴾ (١)

من جمالهم وكثرتهم .

وقال ﷺ : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » (٢) .

وكما عرفت شيئاً عن طعام أهل الجنة وشرابهم وكذا أهل النار ، فماذا عن لباسهم وفراشهم .

(١) سورة الإنسان آية ١٩

(٢) رواه البخارى ومسلم

لباس أهل النار وفراشهم

هل لأهل النار لباس ؟ وكيف تبقى عليهم ؟ وهل لهم فراش وغطاء ؟
نعم ، إن لأهل النار لباساً وفراشاً وغطاءً ، كما ذكر ذلك القرآن الكريم .
فما هو لباسهم ؟

١ - ثياب من نار : قال تعالى :

﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ (١)

وكان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول : سبحان من خلق من النار ثيابا .

٢ - سراويل من قطران : قال تعالى :

﴿ وَنَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِلُهُمْ مِنْ

قَطْرَانَ وَيَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (٢)

وعن ابن عباس قال : فى قوله « قطران » هو النحاس المذاب .

وفى الحديث : « النائحة إذا لم تتب قبل موتها تأتى يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » (٣) قيل : وقد اختير لهم القطران لأنه خبيث الرائحة ، قبيح اللون ، شديد الاشتعال .

وما هو فراشهم وغطاءهم ؟

حكى القرآن الكريم أن لأهل النار فراشاً ، يسميه مهاداً وما هو بالمهاد ، فالمهاد شيء لين ، ولكنه سمى بذلك تهكماً ، وغطاءً يسميه « غواش » .

(١) سورة الحج آية ١٩

(٢) سورة إبراهيم آية ٤٩ ، ٥٠

(٣) رواه مسلم

قال تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ (١)

فالمهاد هو الفراش ، والغواش هي اللحف .

كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ (٢)

قال الحسن : فراشاً ومهاداً ، وقال قتادة : محبساً حصروا فيها .

وعن الحسن أنه كان إذا ذكر أهل النار قال في وصفهم : قد حذيت لهم نعال من نار ، وسراويل من قطران ، وطعامهم من نار ، وشرابهم من نار ، وفرش من نار ، ولحف من نار ، ومساكن من نار ، في شردار ، وأسوأ عذاب في الأجساد ، أكلاً أكلاً ، وصهرًا صهرًا ، وحطماً حطماً .

وقال وهب بن منبه : أما أهل النار الذين هم أهلها فهم في النار لا يهدؤون ولا ينامون ولا يموتون ، ويمشون على النار ، ويجلسون على النار ، ويشربون من صديد أهل النار ، ويأكلون من زقوم النار ، فرشهم ولحفهم نار ، وقمصهم نار وقطران ، وتغشى وجوههم النار ، وجميع أهل النار في سلاسل بأيدي الخنزرة أطرافها يجذبون مقبلين ومدبرين ، فيسيل صديدهم إلى حفر في النار ، فذلك شرابهم . قال : ثم بكى «وهب» حتى سقط مغشياً عليه ، وغلب «بكر بن خيس» عند روايته هذا الحديث البكاء حتى قام فلم يقدر أن يتكلم ، وبكى «محمد بن جعفر» بكاءً شديداً .

كما قال تعالى :

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ (٣)

فهذا لباس أهل النار وفراشهم - أعادنا الله منه - فما لباس أهل الجنة وفراشهم ؟

(١) سورة الأعراف آية ٤١

(٢) سورة الإسراء آية ٨

(٣) سورة الزمر آية ١٦

لباس أهل الجنة وفراشهم

إن نعيم أهل الجنة ليس مقصوراً على المطاعم والشارب ، بل يتعداه إلى لبس الحلل ، والتحلّى بالخلى ، والجلوس على الأرائك ، والتمتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ، والزيارات الكريمة واللقاءات الحبيبة .

١ - ما هو لباسهم :

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ۝ ﴾ (١)

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝ ﴾ (٢)

كما قال جل وعلا :

﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ

(٢) سورة الكهف آية ٣١

(١) سورة الحج آية ٢٣ ، ٢٤

(٣) سورة الإنسان آية ٢١

﴿ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ
فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (١)

وقال ﷺ : « تبلغ الحلة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (٢) وقال الحسن البصري : الحلة في الجنة على الرجال أحسن منها على النساء .
فأهل الجنة مسورون بالذهب والفضة مكللون بالدر ، وعليهم أكاليل در ، وياقوت ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب ، جرد ، مكحلون .

وقال ﷺ : « من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٣) .

٢ - ما هي أسرتهم وفرشهم ؟

يقول الله تعالى :

﴿ وَالسَّائِقُونَ السَّائِقُونَ ﴾

﴿ ١٠ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿ ١١ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ ﴿ ١٢ ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى ﴾ ﴿ ١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ ١٤ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ ﴿ ١٥ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾

كما قال سبحانه :

﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ ﴿ ١٧ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ ﴿ ١٨ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا نَذِيلًا ﴾ ﴿ ١٩ ﴾

وكذا قال ربنا :

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾

(٢) رواه البخاري ومسلم

(٤) سورة الواقعة آية ١٠ - ١٦

(٦) سورة الرحمن آية ٥٤

(١) سورة فاطر آية ٢٣

(٣) رواه أحمد ، وبنحوه في مسلم

(٣) سورة الإنسان آية ١٢ - ١٤

قال ابن مسعود : بطائنها من إستبرق ، فكيف بظواهرها . أو قال : إذا كانت
البطائن من إستبرق فما بالك بالظواهر ؟

وكذلك بين ربنا حال هذه الأسرة ، كما أنها موضونة ومبطنة ، كذلك هي
« مرفوعة » ﴿ فِيهَا سُرُّ مَرْفُوعَةٌ ﴾ (١)

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۖ وَزَكَاةٌ مَّبْنُوتَةٌ ﴾ (٢)

والنمارق هي الوسائد والمساند مصفوفة ها هنا ، وها هنا في كل مكان في
الجنة ، والزرايى : البسط المفروشة

ومن خصائص تلك الأسرة أيضا ما ورد : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ،
فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض ، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، ويسير
سرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعا ، فيتكىء هذا ويتكىء هذا ، فيقول
أحدهم لصاحبه : أتعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كذا ، في الوضع
كذا ، فدعونا الله تعالى يغفر لنا » (٣) .

وعلى تلك الأسرة يكون التمتع بالنساء « بالخور العين »

قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (٤)

كما قال : ﴿ وَخُورٌ عَلَيْهِنَ ۖ كَأَمْثَلِ

الذَّوْلِ الْمَكْنُونِ ۚ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٥)

كذلك قال الله عز وجل :

(١) سورة الغاشية آية ١٣

(٢) سورة الغاشية آية ١٥ ، ١٦

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبخاري ، وسكت عنه المنذرى .

(٤) سورة الصافات ، آية ٤٨ ، ٤٩

(٥) سورة الواقعة آية ٢٢ - ٢٤

﴿ وَفُزِّشْ مَرْفُوعَةً ۖ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُنَّ
 أَبْكَارًا ۖ عُرُبًا أَتْرَابًا ۖ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ۖ ۝٣٦
 وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۖ ۝٣٧﴾ (١)

أى أنشأهن الله بعد الكبر والعجز والضعف فى الدنيا ، فصرن فى الجنة شباباً
 طرباً أبكاراً عرباً أى متحبات إلى يعولهن ، أتراباً فى مثل أعمارهم ، لأصحاب
 اليمين .

ويقول ﷺ : « لو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمات ما بينهما
 ريحاً ، ولا ضاعت ما بينهما ، ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » (٢) .
 كما قال ﷺ : « لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لمات الأرض ريح
 مسك ، ولذهب ضوء الشمس والقمر » (٣) .

« على كل زوجة سبعةون حلة ، يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللها ،
 كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء » (٤) ، « وإن عليهن التيجان ، وإن
 أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب » (٥) .
 وهؤلاء الحور ، كما قال العزيز الغفور :

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُنَّ وَلَا جَانٌ ۖ ۝٥٦
 قَبَائِلُ الْعَالَمِ لَمَّا تَكْذَبَانِ ۖ ۝٥٧ كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۖ ۝٥٨
 قَبَائِلُ الْعَالَمِ لَمَّا تَكْذَبَانِ ۖ ۝٥٩ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۖ ۝٦٠﴾ (٦)

(٢) رواه البخارى بنحو هذا اللفظ

(٤) رواه الطبرانى بسند صحيح

(٦) سورة الرحمن آية ٥٦ - ٦٠

(١) سورة الواقعة آية ٣٤ - ٤٠

(٣) رواه الطبرانى والبراز بإسناد حسن

(٥) رواه الترمذى وأحمد

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ ﴾

ومن كما قال الله :

حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآءُ رِكْمًا كَذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي
الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآءُ رِكْمًا كَذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآءُ رِكْمًا كَذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ
خُضِرٍ وَعَنْقَبَرِيِّ حَسَنِ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِيَهُنَّ الْآءُ رِكْمًا كَذِبَانِ ﴿٧٧﴾
بُشْرَى أَسْمُرَ رِيكٍ ذِي الْجَلَدِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١﴾

والعبرى هى عناق البسط أو أجودها وخيارها وحسانها .

وقال تعالى : ﴿ وَهَمَّ فِيهَا زَوْجٌ مُطَهَّرٌ ﴾ ﴿٢﴾

أى من الحيض والنفاس ، والبول ، والغائط والبزاق والمخاط ، لا يصدر
منهن شئ من ذلك ، وكذلك طهرت أخلاقهن وأنفاسهن وألفاظهن ولباسهن
وسجيتهن .

* ومع هذا كله تغنى الحور العين بغناء لم تسمع الخلائق بمثله .

يقول عليه السلام : « إن فى الجنة لمجتمعاً للهور العين يرفعن بأصوات لم تسمع
الخلائق بمثلها يقلن : نحن الخالدات فلا نبئد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ،
ونحن الراضيات ، فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » ﴿٣﴾

وكذلك ورد : « إن فى الجنة نهراً طول الجنة ، حافته العذارى قيام متقابلات ،
يغنين بأحسن أصوات يسمعها الخلائق ، حتى ما يرون فى الجنة مثلها ، قيل لآبى
هريرة : ما ذاك الغناء ؟ قال : إن شاء الله التسبيح والتحميد والتقدیس والثناء
على الله عز وجل »

(١) سورة الرحمن آية ٧٠ - ٧٨

(٢) سورة البقرة آية ٢٥

(٣) رواه البيهقى والترمذى وقال غريب

قال تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

* هذا ومع وجود الأسرة فى الجنة ، والفرش ، لكن أهل الجنة لا ينامون لثلاث
يشتغلوا بالنوم عن الملاذ والحياة الهنية ، وطيب العيش ، ولذلك ورد أن رسول
الله ﷺ قال : النوم أخو الموت ، وإن أهل الجنة لا ينامون « (٢) .

وبعد - أخى المسلم الكريم - كما ذكرنا هذا الذى ذكرناه عن أهل الجنة وأهل
النار ، فإننا نجمل صوراً من العذاب ، أو السوائاً من النعيم ، قد ذكرت فى القرآن
الكريم ، وفى السنة المطهرة فيما يأتى :

(١) سورة الزمر آية ٣٤

(٢) رواه الطبرانى والبيهقى

صور من عذاب أهل النار

١ - عذاب أهل النار بالتوبيخ والتقريع والتأنيب :

ما إن تستقر تلك الجماعات الهالكة ، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن القروا فيها مهاتين ، حقيرين ، ذليلين ، حتى ينزل بهم عذاب نفساني أليم ، مهين ، ذلك هو عذاب التوبيخ واللوم والتقريع ، والتأنيب الذي يخلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم ، مثل قولهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (١)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ (٢)

ويقال لهم ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٣)

﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا نَجْزِي مَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)
وكذلك ﴿ فَذُوقُوا فَلَنتُ زَيْدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (٥)

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل ، وما ذكرناه قليل من كثير .

وأما تلاومهم فحدث ولا حرج ، وكفينا أن نصنف إلى بعض الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق ، فنسمع خاشعين إلى قول رب العالمين - وهو يخبر عنهم - فيقول :

(١) سورة الملك ، آية ٨

(٢) سورة الطور ، آية ١٤

(٣) سورة النبا ، آية ٣٠

(٤) سورة الزمر ، الآية ٧١

(٥) سورة الطور ، آية ١٦

﴿ كَلَّمَادَخَلَتْ أُمَّةٌ
لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَ كُوفُهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَئِهِمْ
رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَأَنزِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ
وَلَكِنْ لَا نَعْمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

ويقول :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا اأَنْحَنُ صَدَدٌ نَكْمُ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ
بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أَدْنًا دُؤَارًا وَسُورُوا
النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٠﴾

ويقول تعالى :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ
﴿٣٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ
﴿٣٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغَيْنَ ﴿٤٠﴾ فَحَقَّ

(١) سورة الأعراف ، آية ٣٨ ، ٣٩

(٢) سورة سبا آية ٣١ - ٣٣

عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٢١﴾ فَأَعْوَيْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا عْلَوِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٣﴾

ويقول سبحانه :

﴿ هَذَا وَلَئِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَنَاقِبٍ ۖ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَ بِهَا فَيَنسَ الْبِهَادُ
﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۖ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ
﴿٥٧﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَاءَ لَهُمْ ۖ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٨﴾ قَالُوا
بَلْ أَنشَأَ لَمْ تَرْجَبَا بِكُمْ أَنُفَرُ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنسَ الْقَرَارُ ﴿٥٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا
مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦٠﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى
رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦١﴾ أَخَذَ ثَلَاثَهُمْ سِجْرًا أَمْ زَاغَتْ
عَنَّهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٢﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَافُ أَهْلَ النَّارِ ۖ ﴾ ﴿٦٣﴾

٢ - خطبة إبليس في أهل النار :

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم
إبليس خطبة من أبلغ الخطب وأفصحها وأشدّها أثراً ووقفاً في نفوس سامعيها
- أقامهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب - فقد ينصب لإبليس منبر من نار
فيرقاه فيخطب أهل النار عليه ، فيزيدهم في كربهم ، وطول حزنهم ، وشدة
إيلاسهم ، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة ، والحسرة القاتلة ، وقد
سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبلية ، فلنستمع إليها : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ
لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا

(١) سورة الصافات آية ٢٧ - ٣٣

(٢) سورة ص ، آية ٥٥ - ٦٤

كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوَّأَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنُم بِمُصْرِخِي
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

٣ - بكاء أهل النار وعويلهم :

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام ، ومقاساة الشدائد والأهوال ، ودار البوار وسكانها لا يبرحون يتجرعون الغصص ، ويتذوقون من العذاب ، حزنهم دائم ، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف ، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل ، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح ، فهم يتضاغون فيها ويصطرخون ، ويدعون بالويل والحسرة والشبور .

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف به يدعون ويقولون .

﴿ وَإِذَا الْقَوْمُ مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هَٰؤُلَاءِ ثُبُورًا ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا

غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾
فرد الملائكة عليهم : ﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُدْكِرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ

النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴾ (٣)

وفى الحديث « إن أهل النار سيكون حتى لو أجريت السفن فى دموعهم لجرت ، وإنهم ليبكون الدم ، يعنى مكان الدمع » (٤)

(٢) سورة الفرقان ، آية ١٣

(١) سورة إبراهيم آية ٢٢

(٣) سورة فاطر ، آية ٣٧

(٤) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي

ويأخذ أهل النار في النداء مع العريل

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا
يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ ﴿١٨﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ ﴿١٩﴾ ﴾

فيدعون مالكا فيقولون : ﴿ وَتَادُوا إِلِمَّا لِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَلَائِكَةٌ ﴾ (٢١)

فينادون على الله عز وجل ، فيقولون ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۖ ﴿٢٠﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا
ظَالِمُونَ ﴾

فيجيبهم الله تعالى بقوله : ﴿ قَالَ أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَسْكُمُونَ ۖ ﴾ (٢٢)

فعند ذلك ينقطعون عن الكلام ، فيزداد عليهم العذاب ، لأنه كان لهم في
الكلام متنفس ، وقد منعوا منه ، ثم يتصل عذابهم لا يفتر عنهم ساعة واحدة ولا
لحظة ﴿ كَلَّمَاحَتٍ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ ﴾ (٢٣)

وكذلك ﴿ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ

لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ مُكَذِّبُونَ ۖ ﴾ (٢٤)

٤ - ومن أشد ألوان العذاب لأهل النار :

أنهم يحرمون من رؤية الله عز وجل ، ويحجبون عنها ، كما قال تعالى :

(١) سورة غافر ، آية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ١٠٦ - ١٠٨ .

(٣) سورة السجدة ، آية ٢٠ .

(٢) سورة الزخرف ، آية ٧٧ .

(٤) سورة الإسراء ، آية ٩٧ .

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ١٦ ﴾ (١)

* وبعد أن عرفت صورة مجملة عن عذاب أهل النار ، نختم حديثنا ببعض نعيم أهل الجنة ، نسأل الله حسن الخاتمة ، ونسأله الجنة وما يقربنا إليها من قول أو عمل ، ونعوذ به من النار وما يقربنا إليها من قول أو عمل .

صور من نعيم اهل الجنة

١ - عند باب الجنة : ماذا عند باب الجنة ؟

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان ، قد خصصت إحداهما لشرباب الداخلين ، وثانيتهما لتطهيرهم ، فإذا شربوا من الأولى جرت في وجوههم نضرة النعيم ، فلا يباسون أبداً ، وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعث أشعارهم أبداً ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا ، قول الله تعالى :

﴿ وَسَقَّاهُمْ مِنْهُمْ شَرَّابًا طَهُورًا ۝ (١) ﴾

وفي الحديث ، يقول الرسول ﷺ : « وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً » (٢) .

• هذا ، وإن ملائكة الرحمن لتستقبل وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام ، وأول المستقبلين هو «رضوان» خازن الجنان ، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله ، قال تعالى :

﴿ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ (٣) ﴾

كما قال سبحانه :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خِلَابِينَ ۝ (٤) ﴾

وقال أيضاً : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ (٥) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝ (٥) ﴾

(١) سورة الإنسان آية ٢١

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وغيرهما مرفوعاً ، وعن علي موقوفاً عليه ، وهو أصح وأشهر

(٤) سورة الزمر آية ٧٣

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٣

(٥) سورة الرعد آية ٢٣ ، ٢٤

فستان شتان بين استقبال الملائكة لأهل الجنة ، واستقبالهم لأهل النار .
 * هذا وفي الوقت الذي يتلاوم فيه أهل النار ، يكون حال أهل الجنة ، كما
 قال ربنا صاحب المنة :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ (٤٥) أَتَخْلَوْهَا
 بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ۖ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ
 مُتَقَابِلِينَ ۖ (٤٧) لَا يُمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ ۖ (٤٨) ﴾ (١)

يلقى بعضهم التحية والسلام على بعض ، كما قال الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ فِي جَنَّاتٍ هَدَتْ بِهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيعَانِهِمْ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۖ (٤٩) دَعْوَاهُمْ
 فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ
 أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ (٥٠) ﴾ (٢)

فهذا سلام المؤمنين ، ومن قبله سلام الملائكة ، ولهم من قبل ذلك ومن بعد
 ذلك ، وأفضل من ذلك - السلام من ربهم السلام

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
 الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ۖ (٥١) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَابِكِ
 مُتَّكِئُونَ ۖ (٥٢) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ۖ (٥٣) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ
 رَبِّ رَحِيمٍ ۖ (٥٤) ﴾ (٣)

(١) سورة الحجر آية ٤٥ - ٤٨

(٢) سورة يونس آية ٩ ، ١٠

(٣) سورة يس آية ٥٥ - ٥٨

كما يلحق الله عز وجل الذرية بالآباء ، وكذا الآباء بالذرية ، من كان فى درجة أدنى إلى من هو فى درجة أعلى ولا يكون العكس منه ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (١)

٢ - إن الجنة فيها - بإخبار الله تعالى - ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين ، وفيها من النعيم المقيم العظيم ما لم تره عين ، أو تسمع به أذن ، أو يخطر على قلب بشر ، كما جاء ذلك فى قول الله تعالى :

﴿ يَلْعَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ لَا يُخَافُونَ عِلْيَافَةَ الْيَوْمِ ﴾

وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (١٨) الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (١٩)
أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٢٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ
مِنْ ذَهَبٍ وَالْكَوَابِ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٢١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٢)

ويقول النبى ﷺ - فيما يرويه عن رب العزة جل وعلا - : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٣) .
ومصدق ذلك فى كتاب الله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤)

٣ - هذا وثمار الجنة - نسأل الله تعالى أن يطعمنا منها بكمه وكرمه أمين - أنواع والوان : ﴿ فِيهَا مَا فَلَكَ لَهَا وَتَخْلُ وَرَمَانٌ ﴾ (٥)

(٢) سورة الزخرف آية ٦٨ - ٧٢

(١) سورة الطور آية ٢١

(٣) رواه مسلم

(٤) سورة السجدة ، آية ١٧

(٥) سورة الرحمن آية ٦٨

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَلَكَةٍ زَوْجَانِ ﴾^(١)

وهو قريب في تناول اليد والفم ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾^(٢)

وكذلك ﴿ وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴾^(٣)

وهي لا تنقطع في فصل من الفصول ، ولا تمتنع لسبب من الأسباب .

﴿ وَفَالِكَةٍ كَثِيرَةٍ ۖ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾^(٤)

كما قال تعالى : ﴿ أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾^(٥)

وصدق ربنا عز وجل : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا

مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَرَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا

وَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٦)

وقال : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾^(٧) وفوكة

مَرَايشُهُمْ^(٨) كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٩) لِنَاكَ ذَلِكِ

تَجْرِي الْمَحْسِنِينَ ﴾^(١٠)

وقال سبحانه :

(١) سورة الرحمن آية ٥٤

(٢) سورة الواقعة آية ٣٢ ، ٣٣

(٣) سورة البقرة آية ٢٥

(١) سورة الرحمن آية ٥٢

(٢) سورة الإنسان آية ١٤

(٣) سورة الرعد آية ٣٥

(٤) سورة المرسلات آية ٤١ - ٤٤

﴿وَفَلَاكِهِمْ مَا يَخْتَارُونَ﴾ (٢٠) وَلَجَرِطٍ يَمْلَأُ فِيهِمْ أَشْهُمُونَ (٢١) وَخُورٍ عِبْنٍ (٢٢) كَأَمْثَلِ
الَّذِينَ لَمْ يَكُنُوا (٢٣) جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « ليس فى الجنة من الدنيا إلا الأسماء » .

وإذا كان السدر الذى فى الدنيا وهو لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة ، وهو النبق ، وشوكه كثير ، والطلح الذى لا يراد منه فى الدنيا إلا الظل ، يكونان فى الجنة فى غاية من كثرة الثمار وحسنها ، حتى إن الثمرة الواحدة منها تنفتق عن سبعين نوعاً من الطعوم والألوان . التى يشبه بعضها بعضاً ، فما ظنك بشمار الأشجار التى تكون فى الدنيا حسنة الثمار كالشفاخ ، والنخل والعنب ، وغير ذلك ؟ وما ظنك بأنواع الرياحين والأراهير ؟ وبالجملة فإن فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نسأل الله من فضله (٢) .

٤ - وعن أعظم نعيم روحانى يتم لهم فى دار السلام ، كما جاء عن النبى ﷺ يقول : « إذا سكن أهل الجنة الجنة أتاهم ملك فيقول لهم : إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه ، فيجتمعون ، فيأمر الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام ، فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل ، ثم توضع مائدة الخلد ، قيل يا رسول الله : وما مائدة الخلد ؟ قال : زاوية من زواياها أوسع مما بين المشرق والمغرب ، فيطعمون ثم يكسون ، فيقولون : لم يبق إلا النظر إلى وجه ربنا عز وجل ، فيتنجلي لهم فيخرون سجداً ، فيقال : لستم فى دار عمل ، إنما أنتم فى دار جزاء » (٣) .

وصدق ربنا إذ يقول : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّضِرَّةٌ (٢٤) إِلَىٰ سَائِطٍ مُّنَاطَرَةٍ﴾ (٤)

(١) سورة الواقعة آية ٢٠ - ٢٤

(٢) النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير ج ٢ ص ٣١٠

(٣) رواه أبو نعيم ، وسكت عنه المنذرى

(٤) سورة القيامة آية ٢٢ ، ٢٣

ويقول ﷺ : « بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب جل جلاله ، قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ماداموا ينظرون إليه تعالى حتى يحتجب عنهم ، وتبقى فيهم بركته ونوره » (١)

وصدق ربنا عز وجل :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢)

ويقول ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً » (٣)

وكما قال ربنا عز وجل :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۖ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ۖ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۖ ﴾ (٤)

وفى الصحيح : « إنكم سترون ربكم عياناً ، كما ترون هذا القمر ، لا تمارون فى رؤيته ، فإن استطعتم فداوموا على الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » (٥)

وإن الأبرار الأخيار ليرون ربهم عز وجل وهم على أرائكهم وسررهم ، كما

(١) رواه ابن ماجه وغيره وسكت عنه المنذرى

(٢) رواه البخارى ومسلم

(٣) سورة يونس آية ٢٦

(٤) رواه البخارى وغيره

(٥) سورة المطففين آية ٢٢ - ٢٤

يرى القمر فى مثل هذه الأحوال ، يرون الله تعالى أيضاً فى المجمع الأعم
الاشمل ، وهو فى مثل أيام الجمع ، والتى تسمى بيوم المزيد . وإنما سميت بيوم
المزيد ، لأن أهل الجنة يزدادون فيها ، رؤية الله عز وجل ، فيزدادون كرامة

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (١)

كما قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢)

وعن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل
الجنة : إن لكم عند الله وعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم تثقل
موازنتنا ، وتبيض وجوهنا ، وتدخلنا الجنة ، وترحزحنا عن النار ؟ قال :
فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من
النظر إليه ولا أقر لأعينهم (٣)

وخطب « أبو موسى الأشعري » خطبة على منبر البصرة ، فقال : « إن الله
يبعث يوم القيامة ملكاً إلى أهل الجنة ، فيقول : يا أهل الجنة : هل أنجزكم الله ما
وعدكم ؟ فينظرون ويرون الحلى والحلل والأنهار والأزواج المطهرة ، فيقولون :
نعم ، قد أنجزنا ما وعدنا ، يقولون ذلك ثلاث مرات ، فيقول : قد بقى شيء :
إن الله يقول ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ ألا إن الحسنى الجنة ، والزيادة هى
النظر إلى وجه الله عز وجل (٤)

فهذه بعض صور من نعيم الجنة ، فهلا من مشمر لها ، ومستعد لدخولها ؟
يقول ﷺ : « ألا مشمر إلى الجنة ، فإن الجنة لا مثل لها ، وهى - ورب

(٢) سورة يونس آية ٢٦

(٤) موقوف

(١) سورة قى آية ٣٥

(٣) رواه مسلم وأحمد

الكعبة - نور يتلألا ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمر نضيج ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة في مقام أبد ، في دار سليمة ، وفاكهة وخضر ، وجيرة ونعمة ، في محلة عالية بهية ، قالوا يا رسول الله : نحن المشمرون لها ، قال : فقولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله (١) .

وصدق ربنا عز وجل وهو يدعونا إلى الجنة :

﴿ وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ (٢)

ويرغبنا فيها : ﴿ وَسَارِعُوْا اِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوٰتُ وَالْاَرْضُ اُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾ (٣)

كذا قال : ﴿ سَابِقُوْا اِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْاَرْضِ اُعِدَّتْ لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِۦٓ ذٰلِكَ فَضْلُ اللّٰهِ يُؤْتِيْهِ مَن يَشَآءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ ﴾ (٤)

وقال سبحانه : ﴿ اِنَّ اللّٰهَ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اَنْفُسَهُمْ وَاَمْوَالَهُمْ بِاَنْ لَّهُمْ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُوْا وَيُقْتَلُوْا وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الْتَّوْرَةِ وَالْاِنْجِيْلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ اَوْفٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ اللّٰهِ فَاَسْتَبَشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِۦٓ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ ﴾ (٥)

(١) رواه البزار وقال لا نعلم له طريقاً إلا هذا ، ورواه ابن ماجه بنحوه

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٣

(٣) سورة يونس آية ٢٥

(٤) سورة التوبة آية ١١١

(٥) سورة الحديد آية ٢١

وقال ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » (١) . فاللهم نسألك الجنة ونعوذ بك من النار .

هذا ، فما أعظم وصف الجنة ، وما أطيب ريحها ، ونورها ، وبهاءها ، وما أطيب فناءها ، وما أحسن منظرها ، ولكنها حفت بالمكاره وهى الأعمال الشاقة من فعل الخيرات وترك المحرمات ، وملذات الدنيا وشهواتها - على النقيض من النار التى حفت بالشهوات - هذا والكلام عن الجنة يمكن أن يطول ، ويطول ، فلا تتسع المجلدات لذكره ، ولكنها الإشارات التى تغنى عن العبارات ، والعبارات التى اختصرت المطولات . فنسأل الله الجنة بفضلہ وجوده وكرمه ، اللهم آمين . (٢)

فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد

(٢) راجع بتوسع :

(أ) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد للشيخ حافظ بن أحمد حكى ج ٢ ص ١٨٠ - ٢٦٥ مكتبة زهران .

(ب) النهاية فى الفتن والملاحم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى ج ١ ، ج ٢ ط دار التراث الإسلامى

(ج) عقيدة المؤمن لأبى بكر الجزائري ص ٣٣٤ - ٣٩١ ط مكتبة الكليات الأزهرية

(د) العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق ص ٢٢٧ - ٢٧٢ ط الفتح للإعلام العربى

(هـ) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم

(و) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار للحافظ أبى الفرج ابن رجب الحنبلى

(ز) التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبى ج ١ ، ج ٢

(ح) رحلة فى رحاب اليوم الآخر للشيخ عبد العظيم بن بدوى الحلفى

(ط) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية للشيخ أحمد فريد ص ٢١٤ - ٢٢٠ ط مكتبة التوعية الإسلامية

(ي) الإيمان - أركانه - حقيقته : الدكتور محمد نعيم ياسين ص ٥٨ - ٩٧ .

(ك) مشاهد القيامة فى القرآن للشيخ سيد قطب .

(ل) الجزاء - الجنة - النار نعمت صدقى ص ٦٧ - ٨٩ ط دار الإعتصام .

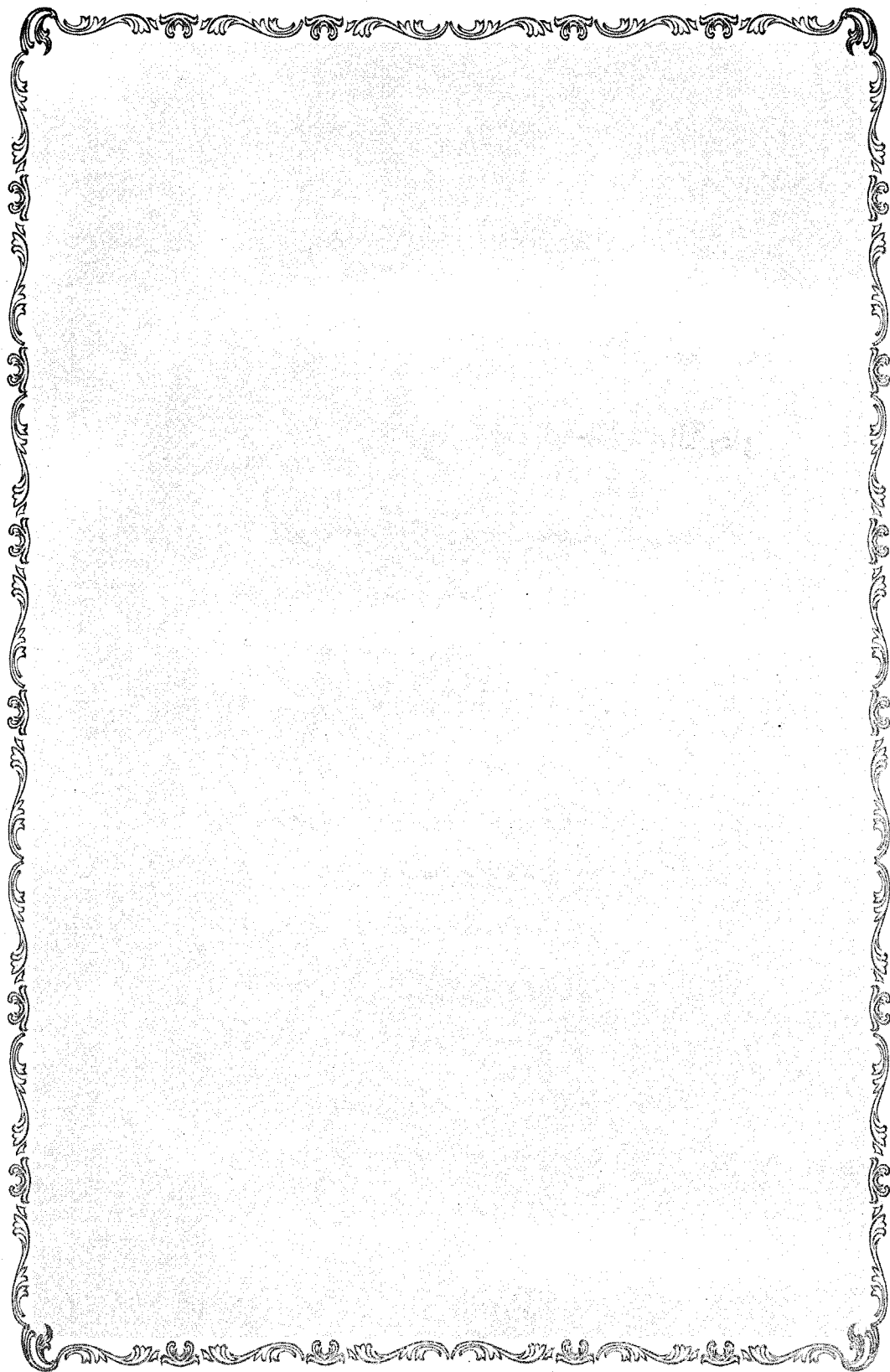
(م) أحوال القيامة كما يصورها القرآن والسنة للشيخ عبد الملك على الكلبى

(ن) القيامة رأى العين ، للشيخ محمد محمود الصواف

الباب الخامس

الإيمان بالقضاء والقدر

- * أعداء الإسلام يحاربون عقيدة القضاء والقدر
- * معنى القضاء والقدر
- * أنواع القضاء والقدر
- * نزاع الناس حول القضاء والقدر
- * مراتب القضاء والقدر
- * وجوب الإيمان بالقضاء والقدر
- * مسائل في القضاء والقدر
- * حكمة الإيمان بالقضاء والقدر
- * ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر



الركن السادس :

« من أركان الإيمان » : الإيمان بالقضاء والقدر

تمهيد حول القضاء والقدر :

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم وهزتها العيفة لأركانها المتداعية ، وخلخلتها للكيان البشري المهزوز .

منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذي أطاح بصروح الباطل ، ودك عروش الشر والكفر والفساد ما تزال العقيدة الإسلامية تستهدف للطعن الشديد ، وتعرض للنقد القاسي المرير ، من خصومها الالقاء ، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى ، ومجوس وملحدين على حد سواء ، علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذي وقع في الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية .

فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها . ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين ، ويومها فقط تسنى لهم أن يوقفوا تيارها ، ويقطعوا أسلاك أنوارها ، فتعود الظلمة إلى العالم الإنساني ، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوي الردى ، وأسقطتها في جحيم لا يطاق .

وعقيدة « القضاء والقدر » هي أحد أجزاء العقيدة التي لقيت ضربات عنيفة ، وتعرضت لطعن عنيف ، وتشكيك سخيف ، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب ، حتى إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدي مع البقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفي القدر ، والقول بالجبر ، ومذهب الاعتزال والتشيع ، ونجم الشر واستطار ، وطرق كل الأقطار ، وتعرضت الأمة الإسلامية بعقائدها ، وبلادها ، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التي زلزلت كيانه ، تهاوى تحت ضربات الحانقين ، وطعنات الناقمين .

ولما هوى ذلك النجم الذى أضاء المعمورة وغمر الحياة بالهدى والخير ، قال الذين كفروا - تشفيًا من الإسلام ، وإمعانًا في الإجرام - إن ما أصاب المسلمين من الإنهيار والسقوط ، بعد التفكك والضعف الكبير ، كان نتيجة بعض العقائد عندهم ، وخصوا بالذكر « عقيدة القضاء والقدر » ، وكان ذلك منهم إفكًا مفترىً ، وكذبًا مقلوبًا ، مشوهًا للحقيقة .

إذ الواقع هو أن الذى أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون ، لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب ، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الغير صحيح ولا المطلوب ، وذلك بما دس فيها الأعداء ، وما شوهوها به من تأويل باطل وتحريف سخيف قضى عليها ، وأماها في نفوسهم أوكاد .

وهذا من أشد ما يميل النفس أسيء وحزنًا ، إن أعداء الإسلام ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم ، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها ، فضعفوا لذلك ، وهانوا ، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون : إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التى يعيشون عليها معتقدينها ، منفعلين بها ، مستجيبين لها .

ومن المؤسف حقًا أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يعرفوا داءهم ، ولا ماكادهم به أعداؤهم ، إذ أننا نرى كثيرًا منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر ، ويحتج بها مرة على فسقه ، وتهربه من مسئولياته ، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالفه ومدير أمره ، ويمسره إلى ما خلقه له ، فينسب إليه تعالى الظلم ، ويعترض عليه في قضائه ، وأقداره وعادله أحكامه .

ومن هنا فقد رأيت أن أعنتي بهذا الجزء من عقيدة المؤمنين ، أو الركن السادس من أركان الإيمان ، مع توضيحه وتبسيطه قدر الإمكان ، عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم فى بلبلة فكر ، واضطراب نفسي ، أو مريض قلبي حول عقيدة القضاء والقدر فتقطع بلبلة أفكارهم ، ويزول اضطراب نفوسهم ، وأمراض

قلوبهم ، فيؤمنون بالقضاء والقدر ويرضون ، ويعملون بطاعة الله ورسوله ، فينجون ويسعدون ، والله الهادي إلى سواء السبيل .^(١)

أولاً : معنى القضاء والقدر :

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان ، وهو الركن السادس ، فمن كفر بقدر الله خرج من دين الله عز وجل . هذا وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر فمنهم من جعلهما شيئاً واحداً ، ومنهم من عرف القضاء تعريفاً يغاير القدر .

فقال : القضاء : إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته .

والقدر : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل .

وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر ، وتعريف القدر للقضاء ، والأمر محتمل ، ومن عرفهما تعريفاً واحداً ، فقال : هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها^(٢) .

أقول : والكلام محتمل ، لأن القضاء والقدر كلمتان مترادفتان ، وبينهما عموم وخصوص ، فإذا ذكر أحدهما دخل فيه الآخر ضمناً ، ويكون بمعناه ، وإذا اجتمعتا في نص واحد فلا شك أن يتغاير المعنى ، فيصبح القضاء هو علم الله تعالى الأزلي السابق .

والقدر وقت تحققه ووقوعه مثلاً ، والله أعلم .

« هذا وقد قال الإمام أحمد عندما سئل عن القدر : هو قدرة الرحمن »

وقال ابن القيم في قصيدته الكافية الشافية :

(١) عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ص ٤٠٣ - ٤٠٥ بتصرف .

(٢) الإيمان أركانه - حقيقته ، محمد نعيم ياسين ص ٩٨ بتصرف .

فحقيقة القدر الذي حار الوري
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد
في شأنه هو قدرة الرحمن
لما حكاه عن الرضى الربانى

والإيمان بالقدر إيمان بعلم الله القديم ، وبمشيئته النافذة ، وقدرته الشاملة « (١)
وقال النووي : إن الله تعالى قدر الأشياء في القدم ، وعلم سبحانه - أنها ستقع
في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة : فهي تقع حسب ما قدرها (٢)
وقيل : القدر هو سر الله تعالى المكتوم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ،
مكتوب في اللوح المحفوظ في الكتاب المكنون الذي لا يطلع عليه أحد ، ونحن لا
نعلم بما قدره الله لنا أو علينا ، أو بما قدره الله تعالى في مخلوقاته إلا بعد وقوعه
أو الخبر الصادق عنه (٣)

وخلاصة القول : هو علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاد من العوالم ،
والخلائق والأحداث والأشياء وتقدير ذلك الخلق ، وكتابته في الذكر الذي هو
اللوح المحفوظ ، كما هو حين يقضى بوجوده في كميته وكيفيته ، وصفته
وزمانه ، مكانه وأسبابه ، ومقدماته ، ونتائجه ، بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن
إبانه « وقته وزمانه » ولا يتقدم عما حدد له من زمان ، ولا يتبدل في كميته بزيادة
أو نقصان ، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال .

وذلك : لسعة علم الله تعالى ، وعظيم قدرته ، فما شاء الله كان وما يشأ لم
يكن ، ولربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون
علوية وسفلية على حد سواء . (٤)

(١) الإيمان أركانه حقيقته ص ٩٩ بتصرف .

(٢) العقائد الإسلامية ، سيد سابق ص ٨٣

(٣) الإيمان أركانه حقيقته ص ٩٩ بتصرف

(٤) عقيدة المؤمن ص ٤١٧ - ٤١٨ بتصرف .

ثانياً : أنواع القضاء والقدر : نوعان

النوع الأول : القدر المسلّم به أو القدر المبرم

وهو القدر المرتبط بخلق الكون والنظام الذي ربط به والسنن التي تحكم كل أجزائه وما في ذلك من الدقة والإحكام ما يثير الدهشة والعجب ، في الكون كله ، علويه وسفليه ، وسواء كان في الإنسان ، أو الحيوان أو النبات أو الجمادات ، أو ارتبط بالشمس أو القمر أو النجوم وسائر الكواكب ، على مر هذه الحياة الطويلة ، والآفاق الواسعة إنما هو مربوط بسنن لا تبدل ، وينظم لا تتغير تسير إلى غايات محددة لها ، وكل ذلك إنما السرفيه هو القدر الإلهي والتقدير الارلي ، والعلم الشمولي ، الذي هو القضاء والقدر ، والذي لا يتم إيمان العبد إلا به .

قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْبُلُهُ يَرْزُقْهُ ۝٢٠ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢١﴾ (١)

كما قال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٢٢﴾ (٢)

وكذلك ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا ۝٢٣﴾ (٣)

وقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣﴾ (٤)
سبحان ربي الأعلى

(٢) سورة القمر : آية ٤٩ .

(١) سورة الحجر آية ١٩ - ٢١ .

(٤) سورة الأعلى : آية ١ - ٣ .

(٣) سورة الفرقان : آية ٢ .

فهذا النوع من القدر سلم به العقلاء ، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى ، ولم ينكره أحد ، أو يمار فيه آخر .

ومثل هذا النوع من القدر ما كان من خلق العالم ، وما فيه من سنن ، وكل ما يجرى فيه من أحداث كالحياة والموت ، والقحط والجذب ، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها ، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها ، وذلك ككونه يولد جميلاً أو دميماً ، طويلاً أو قصيراً ، وفي زمن كذا دون غيره من الأزمنة ، وفي بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً .

وكذا تحديد رزقه ، وتقدير أجله .

وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به ، يجب الرضى به والتسليم لله تعالى فيه ، فإنه على وفق رضى الله تعالى ، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تديره للملكه وخلقه وإنه ما من حادثة تحدث فى الكون إلا ولله تعالى فيها حكمة عالية مقصودة ، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له ، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى ، ومطلق التسليم ^(١) .

النوع الثانى : القدر المختلف عليه ، أو المعلق

وهذا النوع من القدر ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون كله وما يجرى فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها ، إذ هي جارية على نظام السنن التى قال تعالى فيها : ﴿ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ^(٢) .

وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد ، حسنها وسيئها ، صالحها وفاسدها والمرتبب بقضية الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، والثواب والعقاب ، وهذا النوع هو الذي اختلف عليه ، وأثيرت حوله الشبهات ، لمن لم يحسن فهمه ،

(١) عقيدة الزمن ص ٤١٧ - ٤٢٠ بتصرف .

(٢) سورة فاطر : آية ٤٣

وأول ما ظهر القول فيه كان في حدود المائة الأولى من الهجرة ، وأول من أظهره ودعا إليه ، وقال : « غيلان الدمشقي » الذي قتله « هشام بن عبد الملك » لزندقته .

وهذا لا يتنافي ما روي من أن القول بنفي القدر كان في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم ، حتى قضوا عليه ، وأحمدوا نار فتنته إلى حين ^(١) .

وصار الناس بعد ذلك . في هذا النوع من القدر - أصنافاً وفرقاً ، منهم من ينكر ذلك القدر ، أو من يؤمن به ويفهمه فهمًا خاطئًا .

وذلك على النحو التالي :

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢١ - ٤٢٢ بتصرف .

نزاع الناس حول القضاء والقدر

أولاً: «الْقَدَرِيَّةُ»: هم أول من تكلموا في مسألة «القضاء والقدر» وأول من قال به «غيلان الدمشقي» أخذه عن سنسويه النصراني فنفاوا القدر المتعلق بأفعال العباد، وقالوا: لم تقض أزلًا، ولم تكتب في كتاب المقادير، أي اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء، وزعموا أن الله لم يعلمها قبل وجودها وقالوا قولتهم المشهورة: «لا قدر، والأمر أنف» أي نفوا القدر المتعلق بأفعال العباد، والأمر أنف أي مستأنف، لم يعلمه الله قبل وقوعه.

وقد أخبر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن هؤلاء النفر أو تلك الطائفة فقال لمن أخبره بذلك: «إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به «عبد الله بن عمر» لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفق في سبيل الله ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر».

ثم ذكر الحديث الذي سمعه من أبيه «عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل..... الحديث»^(١) وما زعمته تلك الطائفة أن العبد يخلق أفعاله بنفسه، وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ولا عمل، وأن أعمال العباد لم تقدر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها.

وقالوا: كيف يفعل الله القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه، وهذا هو أساس شبهتهم التي بنوا عليها مذهبهم في كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله.

وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهي قولهم: كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها «وأصبحوا بهذا يعرفون «بالْقَدَرِيَّةُ» أي نفاة القدر،

ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال ، وبطل بذلك التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه ، ومن هنا سمر بموجب هذه الأمة . لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم في أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه ، لا بمقتضى قدرة الله وعلمه .

وكفروا بذلك لإنكارهم القدر الذي تضافرت نصوص الكتاب والسنة في إثباته بحيث يعد منكرها كافراً ، لا مقام له بين المسلمين .

ولكن للعلم نقول : يبدو أن هذه الطائفة التي قالت بنفي القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها ، وذهب باطلها ، وانتهت نهائياً من الوجود ^(١) .

ثانياً : « الجبرية » :

وهم على العكس من القدرية نفاة القدر ، وهم طائفة من المعتزلة ، وأول من ظهر منهم « الجعد بن درهم » وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام ، وتلقاه عنه « الجهم بن صفوان » رئيس الطائفة الجهمية ، نفاة الصفات المعطلين .

وحقيقة مذهب الجبر : أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، ولا ينبغي أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ، فهي نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار ، إذ هي أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد ولا اختيار .

ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله ، وأنه لا يعاب منه فعل ، ولا يلام عليه ولو كان في غاية القبح والفساد ، ومهما ارتكب من معاصي ، أو اقترف من الذنوب وتجعله معذوراً أمام نفسه ، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحت متفعلاً لما يختار مني ففعلي كله طاعات

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٢ - ٤٢٤ بتصرف .

وأصبح كثير من الناس يتقاعسون عن العمل ، ويقعدون عن كل خير ،
ويبررون ذلك بمثل قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
جنون بك أن تسعى لرزقك ويرزق في غيابه الجنين

فالعبد لا قدرة له ولا اختيار وإنما هو مسير لا مخير ، كالريشة في مهب
الريح ، وكالشجرة تعصف بها الرياح ، فهو مجبر على كل شيء ، لا فرق بين
فعل اختياري وآخر إجباري .

تلك خلاصة المذهب الجبري ، وهو - كما ترى - أفسد وأشدّ شرّاً من سابقه
الذي هو مذهب القدرية .

والذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً
وفساداً من عقيدة نفي القدر ، فقد ظلت ظاهرة في المسلمين ، سارية فيهم وبدون
إرادة منهم لها ، ولا رغبة فيها ، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن عقيدة الجبر
هذه تلقى التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصي أو يقترب من الذنوب ، وكلما
ضل العبد ، أو سلك طريق الضلال فإنه يحتج بأن الله أراد له ذلك ، وعند الطاعة
تراه ينسب ذلك إلى نفسه وإلى فعله .

فما هذا ، أيحدر بالإنسان أن يكون عند الضلالة جبرياً ، وعند الطاعة قدرياً ؟
كلا ، لا يليق بالإنسان ذلك ، وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من
المسلمين عن العمل الجاد النافع ، فضعفوا وهانوا ، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر ،
حتى أصبحوا مضرب المثل في العجز والكسل ، والتخلف في ميادين العمل
والإنتاج .

فلنتظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل ، لا يقود أهله إلا إلى
خسران الدنيا والآخرة ، أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ، ماذا كان

يحدث للحياة كانت ؟ تنتهي وكفى !! (١)

ثالثاً : الإبليلية : وهي فرقة حيرى مترددة ، تنسب إلى إبليس

زعمت أنه مادام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَلِّحْهَا ﴾ (٢)

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » (٣)

فكيف يجوز إذا عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتماً ، ثم يؤاخذة عليها ؟

بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحاً فقالوا : مادام الله تعالى قد علم مصير العبد ، وقرره ، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام « اللوح المحفوظ » ، وأصبح العبد لامحالة صائراً إليه شاء أم أبى ، أحب أم كره ، فكيف يؤمر العبد إذا ونهى ، ويطلب بفعل الطاعات ، وترك المعاصي ، والأمر قد بت فيه ، وفرغ منه ، إنما يؤمر ونهى من لم يحدد له مصير ، وتقرر له نهاية ، فمثل هذا يؤمر ونهى ، ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونهى عنه ، وعدمها . فهذا ملخص المذهب الثالث ، وإنه يبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه ، والقول بالجبر وعدمه .

ولزمهم في مذهبيهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ، ألا وهو الاعتراض على الله تعالى ، ونسبة الظلم إليه ، وهو المنزه عن الظلم ، البعيد عن كل

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٥ - ٤٢٦ بتصرف .

(٢) سورة النساء : آية ٤٠ .

(٣) رواه مسلم .

نقص ، سبحانه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

فسبحان الله : ماذا يفعل التضليل بالناس : وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التى هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة ، المدمرة في العالم ، كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية ، الناقمين عليها ، ومن هنا فإني لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر ، كهذا المذهب الإللايسى وكمذهب التشيع ، وأكثر طرق التصوف ، الكل طليخ في مطايخ اليهود وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به ، ويهلكوا عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ^(١) .

رابعاً : « أهل السنة والجماعة »

وهم الذين آمنوا فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، لقد سلكوا في ذلك مسلكاً وسطاً ، بعيداً عن الغلو والتسيب ، والإفراط والتفريط ، فالقدرة قد جفوا ، والجبرية قد غلوا ، وهدى الله السلف الصالح لمعرفة الحق والصراط المستقيم ، ووقفهم الله تعالى للتوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله ، مريداً لها مختاراً فيها ، مهياً للثواب عليها إن كانت خيراً ، وللعقاب عليها إن كانت شراً ، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها ، مع اعتقاد عدل الله وتنزيهه عن الظلم .

وقد قام هذا المذهب على الدليل الشرعى من القرآن والسنة .

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر ، والعدل والإرادة ، والمشيئة ، والحكمة ، ولم يصعب عليهم - كما صعب على غيرهم - التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى ، وكتبه عليه وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء ، وبين كون العبد فاعلاً لفعله ، مريداً له مختاراً في فعله وفى تركه ، يحاسب به ، ويجزى

(١) عقيدة المؤمن ص ٤٢٨ - ٤٣٠ بتصرف .

عليه ، ولا بين كون الله يقضي للعبد ما شاء من قضاء ، ثم يأمره وينهاه ، ويجزيه حسب عمله الذي قدر له ، وكتبه له أو عليه .

فقالوا : إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر ، وسعادة أو شقاء ، قد قدره مربوطاً بأسبابه ، فللخير أسبابه ، وللشر أسبابه ، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له ، وحرية اختياره الذي قضى له به .

فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مكره عليها ، ولا مجبوراً على فعلها ^(١)

والإنسان يعرف الفرق بين ما يقع منه باختياره ، وبين ما يقع منه بأضطرار وإجبار ، فالإنسان ينزل من السطح بالسلم نزولاً اختيارياً يعرف أنه مختار . ولكنه يسقط هاوياً من السطح ، ويعرف أنه ليس مختاراً في ذلك .

ويعرف الفرق بين الفعلين ، وأن الثاني إجبار ، والاول اختيار ، وكل إنسان يعرف ذلك ، وكذلك الإنسان يعرف أنه إذا أصيب بمرض كسلس البول مثلاً ، فإن البول يخرج منه بغير اختياره ، وإذا كان سليماً من هذا المرض فإن البول يخرج منه باختياره ، ويعرف الفرق بين هذا وذاك ، ولا أحد ينكر الفرق بينهما .

وهكذا جميع ما يقع من العبد يعرف فيه الفرق بين ما يقع اختياراً أو بين ما يقع اضطراراً وإجباراً ، بل إن من رحمة الله عز وجل أن من الأفعال ما هو باختيار العبد ولكن لا يلحقه منه شيء كما في فعل الناسي والنائم ، والمكره ، لا اختيار له ، ولا يؤاخذ بفعله ^(٢) .

والحجة في ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله

(١) عقيدة الزمن ص ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ بتصرف

(٢) القضاء والقدر لابن القيم ص ٨ ، ٩ بتصرف

بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله ربه الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله ربه النار » ^(١) .

ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد ألا السعادة أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقى لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب .

وكذلك مبني على علم الله ، وحكمه وحكمته ، وإرادته مع عدله ورحمته ، واستحالة الظلم عليه فهو مقدر مقادير العباد ، من أعمار وأرزاق ، وسعادة وشقاء ، قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه إلا أن يشاء الله - كما هو الحال بالنسبة لسائر أجزاء الكون إذ الكل مربوط بنظام السنن محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخليفة النواة .

ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ :

« إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » ^(٢) .

وهذا الحديث الصحيح قد يفهمه البعض خطأ ، ولكن لو علم أن كل ذلك مرتبط بأسبابه ما كان ليضل أو يفهم خطأ ، فالإنسان مكتوب رزقه ولكن لا بد من

(١) رواه مالك في الموطأ ، وأبو داود في سننه والترمذي وأحمد .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

السعي عليه ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والإنسان مكتوب أجله ، ولكنه عليه أن يحافظ عليه وأن يأخذ بأسباب النجاة ، وكذلك هو مأمور بالعمل الصالح منهي عن العمل الطالح ، وعليه أن يأخذ بأسباب السعادة والبعد عن أسباب الشقاء .

وفى قوله ﷺ : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ... إلخ فهو مرتبط بأسبابه أيضاً ، إذ لا ظلم عند الله

﴿ وَمَا رَأَيْتُكَ يَظْلِمُ لِلْعَبِيدِ ﴾ ^(١) .

فالرجل يعمل العمل رياء ، وهو في الظاهر يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وليس كذلك ، ومثله الرجل يعمل بالطاعة ثم يتوي المعصية ، وكذلك من يعمل الطاعة في الظاهر ، ويخفي المعصية ، أو يرتكب المعاصي في خلوته ، وكذا الرجل يعمل صالحاً ولكنه يظلم الناس فتؤخذ حسناته ، وي طرح عليه من سيئاتهم ، والرجل يجاهد ثم يجرح فيبادر بنفسه فيتحر ونحو ذلك وأما الصنف الثاني فهو رجل عصى ثم تاب ، وكان كافراً ثم آمن ثم مات ونحو ذلك ^(٢) .

(١) سورة فصلت : آية ٤٦

(٢) انظر بتوسع كتابنا : تصحيح المفاهيم الخاطئة .

ثالثاً : مراتب القضاء والقدر - عند اهل السنة والجماعة - اربع مراتب -

المرتبة الاولى : العلم وهي ان يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن الله تعالى بكل شيء عليم ، وأنه يعلم ما في السموات والأرض جملة وتفصيلاً سواء كان ذلك من فعله أو من فعل مخلوقاته ، وأنه لا يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء .

فهو يعلم عدد أوراق الأشجار ، وحبات الرمال ، و قطرات الأمطار ، ومكايل البحار ، وأوزان الأنهار .

﴿ وَعِنْدَ مَوْتِنَا نَحْنُ الْغَيْبُ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ
وَعَلَّمَ مَا فِي الْيَمِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي
طَلْقَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

المرتبة الثانية : الكتابة وهي أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء وقد جمع الله تعالى بين هاتين المرتبتين في قوله

﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٢)

فبدأ سبحانه بالعلم ، وقال إن ذلك في كتاب أي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، كما جاء به الحديث عن رسول الله ﷺ « إن أول ما خلق الله القلم قال له اكتب ، قال رب ماذا اكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن ، فجرى في تلك

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

(٢) سورة الحج : آية ٧٠ .

الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ^(١) »

ولهذا سئل النبي ﷺ عما نعمله شيء مستقبل أم شيء قد قضي وفرغ منه ؟ قال : إنه قد قضي وفرغ منه .

وقال أيضاً حين سئل : أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب الاول ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق به » فأمرهم النبي ﷺ بالعمل - فأنت - يا أخي - اعمل وأنت ميسر لما خلقت له - ثم تلا ﷺ قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ آتَىٰ وَأَتَىٰ ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ ﴿٦﴾

فَسَبِّحْ لِلَّهِ بُرًى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ ﴿٩﴾ فَسَبِّحْ لِلْعُسْرَىٰ ۖ ﴿١٠﴾

المرتبة الثالثة : المشيئة وهي أن الله تبارك وتعالى شاء لكل موجود أو معدوم في السموات أو في الأرض ، فما وجد موجود إلا بمشيئة الله تعالى ، وما عدم معدوم إلا بمشيئة الله تعالى ، وهذا ظاهر في القرآن الكريم ، وقد أثبت الله تعالى مشيئته في فعله ومشيئته في فعل العباد ، فقال الله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ

أَنْ يَسْتَفِيضَ ۖ ﴿٢٨﴾ وَمَا شَاءَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٢٩﴾

كما قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا ۖ ﴿٤١﴾

وكذلك ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَنُوكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۖ ﴿٥٠﴾

فبين الله تعالى أن فعل الناس كائن بمشيئته ، وأما فعله تعالى فكثير ، قال

(١) رواه أبو داود والترمذي وأحمد ، وقال الترمذي حديث غريب .

(٢) رواه البخاري ومسلم والآيات من سورة الليل : آية ٥ - ١٠ .

(٣) سورة التکویر : آية ٢٨ ، ٢٩ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٣٧ .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٥٣ .

تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ (١)

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (٢)

إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى ، فلا يتم الإيمان بالقدر إلا أن نؤمن بأن مشيئة الله عامة لكل موجود أو معدوم ، فما من معدوم إلا وقد شاء الله تعالى عدمه ، وما من موجود إلا وقد شاء الله تعالى وجوده ، ولا يمكن أن يقع شيء في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله تعالى .

المرتبة الرابعة : الخلق : أى أن نؤمن بأن الله تعالى خالق كل شيء ، فما من موجود في السموات والأرض إلا الله خالقه ، حتى الموت يخلقه الله تبارك وتعالى ، وإن كان هو عدم الحياة ، يقول الله تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٣)

فكل شيء في السموات أو في الأرض فإن الله تعالى خالقه لا خالق إلا الله تبارك وتعالى .

وكلنا يعلم أن ما يقع من فعله سبحانه وتعالى بأنه مخلوق له ، فالسموات والأرض والجبال والأنهار والشمس والقمر والنجوم والرياح والإنسان والبهائم كلها مخلوقات لله ، وكذلك ما يحدث لهذه المخلوقات من صفات وتقلبات ، وأحوال كلها أيضاً مخلوقة لله عز وجل .

ولكن قد يشكل على الإنسان كيف يصح أن نقول في فعلنا وقولنا الاختياري إنه مخلوق لله عز وجل ؟

فنقول : نعم يصح أن نقول ذلك . لأن فعلنا وقولنا ناتج عن أمرين : أحدهما : القدرة ، وثانيهما : الإرادة

(٢) سورة هود : آية ١١٨

(١) سورة السجدة : آية ١٣ .

(٣) سورة الملك : آية ٢ .

فإذا كان فعل العبد ناتجاً عن إرادته وقدرته ، فإن الذي خلق هذه الإرادة وجعل قلب الإنسان قابلاً للإرادة هو الله عز وجل ، وكذلك الذي خلق فيه القدرة هو الله عز وجل ، ويخلق السبب التام الذي يتولد عنه المسبب .

نقول : إن خالق السبب التام خالق للمسبب أي أنه خالق المؤثر خالق للأثر ، فوجه كونه تعالى خالقاً لفعل العبد أن نقول : إن فعل العبد وقوله ناتج عن أمرين هما : - الإرادة والقدرة

فلولا الإرادة لم يفعل . ولولا القدرة لم يفعل ، لأنه إذا أراد وهو عاجز لم يفعل لعجزه عن الفعل ، وإذا كان قادراً ولم يرد لم يكن الفعل ، فإذا كان الفعل ناتجاً عن إرادة جازمة ، وقدرة كاملة ، فالذي خلق الإرادة الجازمة والقدرة الكاملة هو الله . وبهذه الطريقة عرفنا كيف يمكن أن نقول إن الله تعالى خالق لفعل العبد، وإلا فالعبد هو الفاعل في الحقيقة ، فهو المتطهر وهو المصلي ، وهو المزكى وهو الصائم وهو الحاج وهو المعتمر ، وهو العاصي وهو المطيع ، لكن هذه الأفعال كلها كانت ووجدت بإرادة وقدرة مخلوقتين لله عز وجل ، والأمر - والله الحمد - واضح .

وهذه المراتب الأربع المتقدمة يجب أن تثبت لله عز وجل ، وهذا لا ينافي أن يضاف الفعل إلى فاعله من ذوي الإرادة .

كما أننا نقول : النار تحرق ، والذي خلق الإحراق فيها هو الله تعالى بلا شك فليست محرقة بطبيعتها ، بل هي محرقة بكون الله تعالى جعلها محرقة ، ولهذا لم تكن النار التي ألقى فيها إبراهيم محرقة ، لأن الله قال لها :

﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١)

فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، فالنار بذاتها لا تحرق ولكن الله تعالى خلق

فيها قوة الإحراق ، وقوة الإحراق هي في مقابل فعل العباد ، كإرادة العبد وقدرته ، فبالإرادة والقدرة يكون الفعل ، وبالمادة المحرقة في النار يكون الإحراق ، فلا فرق بين هذا وهذا ، ولكن العبد لما كان له إرادة وشعور واختيار وعمل صار الفعل ينسب إليه حقيقة وحكمًا ، صار مؤاخذًا بالمخالفة معاقبًا عليها لأنه يفعل باختيار ويدع باختيار .^(١)

رابعاً : وجوب الإيمان بالقضاء والقدر

يجب على كل مسلم أن يؤمن بعقيدة القضاء والقدر إيمانًا راسخًا لا يقبل الشك ، بل إنه لا يصح إسلام امرئ ولا يقبل إيمانه إلا بيقينه الجازم بالقضاء والقدر ، لأن عقيدة القضاء والقدر ركيزة من ركائز الإيمان الست .

وذلك لأن عقيدة القضاء والقدر قد دل عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة فمن

القرآن ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(٢)

وقال تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾^(٣)

وقال سبحانه :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾^(٤)

وقال جل وعلا : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾^(٥)

(١) القضاء والقدر لابن العثيمين ص ١٩ - ٢٦ بتصرف ، وانظر / الشرات الزكية في المفائد السلفية ص ٢٢٣ - ٢٣٨ ، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول للحافظ الحكيمي ص ٢٦٨ - ٢٨٤ .

(٢) سورة القمر : آية ٤٩ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٨ .

(٤) سورة التغابن : آية ١١ .

(٥) سورة يس : آية ١٢ .

وقال عز وجل : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لَكُمْ يَلَا تُأْسَوْنَ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُونَ بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ﴾ (١)

وفي السنة : يقول ﷺ « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال النبي ﷺ : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك » (٣) .

وقال ﷺ : « إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، ثم قال : اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة » (٤) .

وقال ﷺ : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستخرج صحفتها وتنتكح ، فإن لها ما قدر لها » (٥) وقال ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » (٦) .

فالإيمان بالقدر جزء من عقيدة المؤمن ، وركن من أركان الإيمان ، وإنكاره أو التشكيك فيه ، كفر بالله ورسوله ، عياداً بك اللهم .

وقال صاحب العقيدة الطحاوية : « ... خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم

(١) سورة الحديد : آية ٢٣ .

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٤) رواه مسلم وابن ماجه .

(٥) رواه أبو داود والترمذي وأحمد وصححه الألباني .

(٦) رواه السنة

أقداراً ، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم حاملون قبل أن يخلقهم ، وأمرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيته ، ومشيته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلى عدلاً ، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، آمناً بذلك كله ، وأيقناً أن كلاً من عنده .

... وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة ، وعدد من يدخل النار جملة واحدة ، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه .

وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه ، وكل ميسر لما خلق له .
والأعمال بالخوابيتم ، والسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقى بقضاء الله .

وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فاحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ، ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مراهمه ، كما قال تعالى في كتابه

﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ ^(١)

فمن سأل لِمَ فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو مُتَوَرِّقُ قلبه من أولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في

الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود .

ونؤمن باللوحي والقلمي ، وبجميع ما فيه قد رقم ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدرُوا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلوه كائنًا ، لم يقدرُوا عليه جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه .

وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا ليس فيه ناقض ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سمواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٢)

فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا ، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا ، لقد التمس بوجهه في فحص الغيب سرًا كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا .

..... وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق ، وخلق لهما أهلاً ، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ما خلق له .

والخير والشر مقدران على العباد .

والاستطاعة التي يجب بها الفعل ، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف

(١) سورة الفرقان : آية ٣

(٢) سورة الاحزاب : آية ٣٨ .

المخلوق به ، فهي مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل ، إليها يتعلق الخطاب ، وهو كما قال تعالى :

﴿ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ^(١)

وأفعال العباد خلق الله ، وكسب العباد .

ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم ، وهو تفسير « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

نقول : لا حيلة لأحد ، ولا حركة ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله ، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله .

وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره ، غلبت مشيئته المشيئات كلها ، وغلب قضاءه الحيل كلها ، يفعل ما يشاء ، وهو غير ظالم أبداً ، تقدس عن كل سوء وحين ، وتنزه عن كل عيب وشين

﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْشَوْنَ ﴾ ^(٢) . ا هـ ^(٣)

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٣ .

(٣) انظر : متن العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي ، وكذا شرح العقيدة الطحاوية

خامساً : مسائل في القضاء والقدر .

١- مسألة : هل الإنسان مسير أم مخير ، مجبر أم مختار ؟

وتنشأ المشكلة إذا قلت أنا مثلاً : لا أدري أفلان كريم أم بخيل ؟

وذلك لأنى رأيت له بعض التصرفات كان فيها كريماً ، وبعض التصرفات الأخرى كان فيها بخيلاً ، فترددت فى المسألة أهو كريم أم بخيل ؟ لكن لو أن كل التصرفات التى أخذتها عليه « كرم » ما نشأ شق السؤال : أم هو بخيل ؟ ولو كانت كل التصرفات « بخلاً » ما نشأ : أم هو كريم ؟

على هذا النمط نشأ السؤال : الإنسان مسير أم مخير ؟ لو كان فى ظاهر الحياة . أن الإنسان يرى نفسه مجبراً على كل أعماله لما نشأت فكرة : أهو مخير ؟ ولو أنه مخير فى كل أعماله لما نشأت فكرة : أهو مسير ؟

إذا فالإنسان يجد أفعالاً كثيرة تحدث فيه بدون اختيار منه ، فيرى أنه ما دام لم يوجد له اختيار فهو مسير فيها ، وأشياء كثيرة تقع على حسب ما قدر واختار . كمن يريد أن يلبس ثوباً لونه كذا ، ويريد أن يأكل طعاماً شكله كذا ، ويريد أن يتعلم فى مدرسة كذا ، ويريد أن يعمل كذا ، فتقع الأمور كما يقرر أو قريباً مما يقرر، إذا فهناك أمور للاختيار دخل فيها ، وأمور ليس للاختيار دخل فيها ، ومن هنا نشأت المشكلة ، ولكن لا مشكلة إذا ما عرف ما هو الإنسان الذى نريد أن نعرف : مسير هو أم مخير ؟

الإنسان أولاً : هو ذلك الكائن من الكائنات الموجودة فى الأرض وليس الجنس الوحيد فيها ، بل هناك أجناس أخرى تشاركه فى الوجود .

ولكن بالاستقراء وجدنا أن الإنسان أرقى هذه الأجناس ، وكل الأجناس فى خدمته ، وأقرب الأجناس إليه من جهة الدنو والمدركة بالحس هى الحيوانات ،

وتحت الحيوانات النباتات ، وتحت النباتات الجماد ، إذا فالأجناس الموجودة : جمادات ، ونباتات وحيوان وإنسان .

الجماد له حيز يشغله ، والنبات ينمو ويتطور ، والحيوان يحس ويتحرك ، والإنسان يعقل ويفكر ، فامتاز النبات عن الجماد - الذى له جرم وحيز - بأنه ينمو ، وامتاز الحيوان عن النبات بأنه يحس ويتحرك ، وامتاز الإنسان عن الحيوان بالفكر والعقل .

وما معنى الفكر فى الإنسان . الفكر معناه المقياس الذى يختار بين البديلات (يفعل أو لا يفعل) والأمر الذى لا بديل فيه ، لا عمل لعقلك فيه ، وهنا يمكن أن تتضح معالم القضية .

فالإنسان على الرغم من كونه أعلى الأجناس . إلا أنه فيه من تلك الأجناس التى يعلو عليها ، ففيه حيوانية ، وفيه نباتية ، وفيه جمادية ، فما فى الإنسان من قدر الجمادية ، وما فيه من قدر النباتية ، وما فيه من قدر الحيوانية ، فهو مسير فيه كالجماد كالنبات وكالحيوان وإذا تصورنا أن إنساناً يستطيع أن يرفع نفسه عن الأرض إلى أعلى فسوف يسقط بعد ذلك كقطعة الحجر . لأن قانون الجماد يتحكم فيه ، وقانون الجاذبية يحكمه ويشده إلى أسفل ، وأيضاً فهو ينمو ، ولا دخل له فى ذلك النمو ، وليس له عمل فيه .

كذلك فهو يحس ويتحرك وليس له عمل فى الإحساس ولا فى الحركة ولا إدارة أجهزة جسمه . ولا دخل له فيها أبداً ، بل ولا يعرف كيف تدور الدورة الدموية ولا يعرف كيف تصنع الرئة فعلها ، ولا الجهاز الهضمى ولا الجهاز التناسلى ، ولا أى جهاز ، لا يعرف الإنسان شيئاً من هذا ، أو بمعنى آخر : هو لا إرادة له فيها ولا يصنعها ، إذا فما فيه من الحيوانية أيضاً فهو مسخر فيه كالحيوان تماماً ، ولا اختيار له فى شيء ، ومن رحمة الله أن جعلنى مسيراً فى

ذلك كله ، فلإن إدارة أجهزة جسمي كانت ستؤجل إلى أن يصير لي عقل ، فأعرف كيف أشغل أجهزة الجسم ، فمن رحمة الله أنه جعلني مسيراً ولا عمل لي في هذه المسألة البتة . لأنها تؤدي مهمتها وأنا نائم ، فإذا كان لي اختيار ، فمن يديرها لي وأنا نائم؟

إذا ما في الإنسان من جمادية ونباتية وحيوانية مسير كهذه الأجناس تماماً ولا اختيار له في شيء .

وأما جانب التخير فيه فهو فيما تميز به - والذي جعله إنساناً - وهو العقل والفكر . وهي المنطقة التي يعرض فيها الفعل على العقل ، يفعل أو لا يفعل ، فتلك هي المنطقة التي يوجد فيها الاختيار ، وهي منطقة التكليف من الله ،

ولذلك فإن فاقد هذه لا يكلف من الله ، لماذا لا يكلف المجنون ؟ لأنه فقد أداة الاختيار بين البديلات . . . والذي لم ينضج عقله بعد لم يكلف أيضاً ، لأنه لم يكن أهلاً للحكم على الأشياء . إذا فربط التكليف بالعقل وجوداً ونضجاً ، يدل على أن مهمة التكليف هي في الأمر الاختياري الذي يجد الإنسان فيه بديلاً ، يفعل ، أو لا يفعل .

ولو أن الإنسان لم يكن مخيراً ، لاستوى أن يكلف المجنون وغير ناضج العقل ، إذا مادام قصر التكليف على العاقل . والعاقل الذي نضج عقله . أي الذي بلغ سن الرشد ، فما دام التكليف منصّباً عليه ، فيكون التكليف هو في منطقة الاختيار ، ومنطقة الاختيار هذه هي التمييز ، إذا فالذي يقول : إن الإنسان على إطلاقه مسير ، يكون مخطئاً ، أو يقول : إن الإنسان على إطلاقه مخير يكون مخطئاً ، بل هو مسير ومخير ، على نحو ما بينا ^(١)

(١) القضاء والقدر للشيخ الشعراوي ص ٤٣ - ٤٧ بتصرف

٢- مسألة : هل علم الله تعالى السابق يجبر العبد على الفعل ؟

علمنا أن القضاء والقدر مبني على علم الله تعالى السابق الذي دون في اللوح المحفوظ . فهل هذا العلم يحمل معنى الإجبار ، لأنه لا يتخلف ؟
نقول : وبالله تعالى التوفيق : العلم ليس صفه جبر ، إنما العلم صفة انكشاف فقط ، تكشف الأشياء على ما هي عليه .

وأنا سأضرب مثلاً بسيطاً جداً ، لو جاءني زائر في البيت ، وعندى خادم فأرسلته يحضر مشروباً للضيف من البقال ، فلما خرج أبطأ ، فقلت لضيفي ، هل تعرف لماذا أبطأ ، قال : لا ، قلت : ولكني أعرف ، أكيد أنه لما نزل إلى الشارع التقى بولد آخر مستول عليه ، وحينما يراه خارجاً لشراء حاجته ، يأخذه ويلعب معه ، ويأخذ منه النقود ، أو تضيق منه ، وهو خائف أن يأتي .

هذا الكلام قد قلته وأنا في منزلي مع ضيفي ، وبعد ذلك جاء الولد فسألناه ما الحكاية . فقال كما قلت أنا : هل يا ترى - عندما تكلمت أنا عن الولد وما يصنعه ، وقلت إنه سيحصل منه كذا وكذا ، أكنت قد أرسلت معه قوة لترغمه على فعل ما توقعته منه ؟ أم هو في حاله ؟ إذا فكيف قلت أنا هذا الكلام عنه ؟ قلته لأنني أعرف سوابقه مع أن معرفتي لسوابقه تكون للعلم فقط ، ولكن ليس عندى قدرة ترغمه على تنفيذ ما أقول .

كذلك - ولله المثل الأعلى - علم الله سبحانه وتعالى أزلاً ما يكون من عبده المختار ، فقال : سيكون من عبدي كذا وكذا ، فهو كتب ، لا يلزم ، ولكنه كتب لأنه عالم بما يكون من العبد ، والفرق بين الصورتين ، أن العلم في البشر قد يتخلف فيه شيء ، من الجائز أنني أعرف أن هذا الولد صفته صحيحة ، وسأحكم هذه الأحكام ، ولكن يمكن أن يخرج هذه المرة . فتصدمه سيارة فينقل إلى المستشفى ، ولا يحدث شيء مما قلته .

أقول : هذا خطأ في علمي أنا ، لأنني بشر ، وعلمي قاصر .
 لكن الحق لاخطأ عنده في علمه ، لأنه علم إلهي شمولي ، إذا قالله كتب
 قديماً لأنه علم ما يكون من عبده باختياره ، فهو لا يكتب ليلزم ، لأن العلم صفة
 انكشاف وليس صفة تأثير وإجبار كالقدرة .^(١)

وهذا مثل آخر : المدرس الذي يدخل الفصل ، ويتفرس وجوه التلاميذ .
 فيقول لتلميذ : أنت ستفوق هذا العام ، ويقول للثاني : وأنت ستنجح ،
 ويقول للثالث : وأنت سترسب ، ويمضي العام الدراسي بطوله ، وكذا
 الامتحانات ، وتظهر النتيجة ، ويكون الأمر كما قال الأستاذ ، فهل كان للأستاذ
 دخل في تلك النتيجة ، أو هو أجبر واحداً منهم على ما يقول ؟ كلا ، ولكنها خبرة
 أو فراسة جعلته يقول ما قال .

ولله المثل الأعلى ، كتب حسب علمه الشمولي ، فالأمر كما علم وكتب ،
 وما وجه الغرابة في ذلك ، والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر ، التي لا
 يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال ، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبنى منزلاً أن
 يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة . ثم يأخذ في بنائه ، فيخرجه - إن كان
 ذا قدرة وعلم كافيين - صورة طبق الأصل ، فلا يختلف شيء عما قدره فيه ، ولا
 يختلف فيه شيء عما رسمه له .

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يستغرب منه ذلك ، بل يحمد عليه ،
 ويشني عليه به ، فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق العليم ، ذي القوة المتين
 ١١٩٩ (٢)

(١) الغناء والقدر للشيخ الشعراوي ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف .

(٢) عقيدة المؤمن ص ٤١٩ بتصرف .

« إن العلم الإلهي يمتاز بالإحاطة التامة والشمول الكامل لأعمال الناس على مختلف القرون :

﴿ قَالَ فَمَآبَا لُ

الْقُرُونِ الْأُولَى ۝ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي

وَلَا يَنْسَى ۝ (١)

ولكن كيف يفتق القول بحرية الإرادة والقول بأن أعمالنا لن تخرج عن دائرة العلم الإلهي المحيط الشامل ؟

والجواب سهل : قف أمام مرآة مجلوة صافية ، وأنت عابس الوجه ، ومقطب الجبين ، فماذا ترى ؟ سترى صورتك كما هي عابسة مقطبة .

أى ذنب للمرأة فى ذلك ؟ إن مهمتها أن تصف وأن تكشف وهى قد صدقت فيما أثبتت لك ، ولو كنت ضاحك الوجه لاثبتت لك على صفحتها خيالاً ضاحكاً لا شك فيه .

كذلك صفحات العلم الإلهي ومرآته لا تتصل بالأعمال اتصال تصريف وتحريك ، ولكنه اتصال انكشاف ووضوح ، فهى تتبع العمل ولا يتبعها العمل .

غاية ما يمتاز به العلم ، أنه لا يكشف الحاضر فقط ، ولكنه يكشف كذلك الماضى والمستقبل . فيرى الأشياء على ما كانت عليه ، وعلى ما ستكون عليه ، كما يراها وهى كائنة ، سواء بسواء . (٢)

(١) سورة طه آية ٥١ ، ٥٢

(٢) حكمة المسلم ص ١٠٨ بصرف

٣- مسألة : هل القضاء والقدر يتنافى مع عدل الله ؟ وهل العبد يخلق أفعاله

بنفسه ؟!

وحينما نتعرض لهذه المسألة فلا بد أن نتناولها على أساس أن لله وصفين :

الوصف الأول : أنه هو الخالق وهو الفعال لكل شيء ، هذه واحدة

والوصف الثاني : أنه عدل ، ولا ينبغي لأحد أن يأخذ صفة على حساب صفة فالذى يقول : إن الله هو الذي يفعل للإنسان كل شيء فهو يريد أن يحقق لله صفة الخلق لكل شيء ، وبعد ذلك يحله عن صفة العدل ، فما دام هو الذي فعل كل شيء ، فلماذا يعذبني حينما أعصاه ؟ فنجد مسألة العدل هذه تنتهى .

وآخر يريد أن يحقق فكرة العدل لله فنجده يجعل للإنسان فعل كل شيء .

ونحن نقول للاثنتين : لا ، فأنتما على خطأ ، فلا بد أن تأخذ كل صفة سييلها . فهو خالق كل شيء ، نعم ولكنه عدل أيضاً ، وكلمة عدل تتطلب منا أن نفهم أن الله لم يكلفنا إلا بما خلقنا صالحين لفعله ، وصالحين لعدم فعله ، فيوجه لنا الوجهة ، والأدلة صالحة أن تفعل . . أو لا تفعل .

فأنا مثلاً حينما أرجع طريقاً على طريق ، لا يقال : خلقت الفعل ، وإنما وجهت الطاقة المخلوقة لله ، بالعقل المخلوق لله ، للمادة المخلوقة لله ، فأنا ليس لى فعل ، وإنما أنا وجهت الأدوات الفاعلة فقط ، وما دمت أنا الذى وجهت ، فالفعل ليس منى ، وإنما التوجه فقط للفعل منى أنا ، فإذا الإنسان المؤمن يقول : الله يفعل كل شيء ، نعم هو يفعل كل شيء ولكنه مع ذلك عدل .

نأتى هنا ونقول : ما مهمة الرسل إذا ؟ إن مهمة الرسل هى أن ترسم منهج الله لتقول لك : افعل كذا ، أو لا تفعل كذا ، الله لا يقول لك : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، إلا إذا كان خلقك صالحاً لأن تفعل أو لا تفعل ، فعندما يقول : افعل

هذا فلا بد أن يكون قد خلقتني صالحاً لأن افعله أو لا أفعله ، ولو كان قد خلقتني صالحاً لأن أفعل فقط لما قال لى : لا تفعل . ولو كان قد خلقتني صالحاً مثلاً لثلاث أفعل ، لما قال لى : افعل ، فإذا لابد أن يكون قد خلقتني فى هذا الأمر الناضج ، الاختيار بين البدليات الأمر العقلى وأنا صالح لأن أفعل هذا ، ولأن أفعل هذا ^(١)

٤- مسألة : هل القضاء والقدر يتنافى مع الأخذ بالأسباب ؟

معلوم أن القضاء والقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب ، إذ الأخذ بالأسباب واجب ، وتركها معصية ، والاعتماد عليها شرك .

وعلى الإنسان أن يأخذ بالأسباب ، التى توصله إلى النتائج ، فهو يأخذ بالأسباب التى تنفعه ، وتنبأ به عما يضره ، ويأخذ بالأسباب التى تهديه ولا تنضله .

وإذا كان الله عز وجل قد قدر أجله فإنه يأخذ بأسباب النجاة والحياة ، وإذا كان قدر رزقه ، فهو يأخذ بأسبابه بالسعى عليه والضرب فى الأرض ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإذا كان قد قدر عمله فهو مطالب بأن يمثل ما أمر به ، ويتهى عما نهى عنه ، وإذا كان قدر أزلاً سعادته أو شقاوته فإنه يجب عليه أن يأخذ بأسباب السعادة ، ويتجنب مزالق الشقاء . وكل ميسر لما خلق له . فليس القدر إجباراً على أن نفعل ، وإنما هو إخبار عن علم الله بكسب العبد وصدوره عن تقدير منه تعالى ، وخلق له ، وعلمه سبحانه بما سيقع ، من غير تأثير فى إرادة لأن العلم صفة انكشاف لا صفة تأثير كما بيننا . هذا ما ينبغي أن نفهمه عن القدر ، وهو مقتضى فهم الرسول ﷺ وفهم أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

وفى الحديث « دخل رسول الله ﷺ يوماً على الإمام على رضى الله عنه بعد

(١) القضاء والقدر للشمرائى ص ٤٧ - ٤٩ بتصرف

صلاة العشاء ، فوجده قد بكرَّ بالنوم ، فقال له : هلا قمت من الليل ، فقال : يارسول الله : إن أنفستنا بيد الله ، إن شاء أن يبعثها بعثها ، فانصرف رسول الله ﷺ ورجع وهو يضرب على فخذه ويقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً^(١)

وسرق أحد اللصوص ، فلما حضر بين يدي عمر رضى الله عنه ، سأل : لم سرت فقال : قدر الله ذلك ، فقال عمر رضى الله عنه : اضربوه ثلاثين سوطاً ، ثم اقطعوا يده ، فقليل له : ولم ؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله^(٢) .

إن القدر لا يتخذ سبيلاً إلى التواكل ، ولا ذريعة للمعاصي ولا طريقاً إلى القول بالجبر ، وإنما يجب أن يتخذ سبيلاً إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال ، إن القدر يرفع بالقدر ، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر الظمأ بقدر الرى ، وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

ويذكر أن أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما فر من الطاعون : أتفر من قدر الله ، قال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم ؛ نفر من قدر الله إلى قدر الله^(٣)

أي يفرض قدر المرض والوباء إلى قدر الصحة والعافية ، ثم ضرب له مثلاً بالأرض الجدباء والأرض الخصبة ، وأنه إذا انتقل من الأرض الجدباء إلى الأرض الخصبة لترعى فيها إبله ، فإنه ينتقل من قدر إلى قدر .

لقد كان يمكن للرسول ﷺ وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهنون معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذى يتعلل به الفاشلون ، ولكنه جاء

(١) رواه البخاري

(٢) رسائل في العقيدة والعقائد الإسلامية ص ٨٥

(٣) رواه البخاري

يكشف عن وجه الصواب فلم يهن ولم يضعف ، واستعان بالقدر علي تحقيق رسالته الكبرى ، ملتزماً سنة الله في نصره لعباده .

فقاوم الفقر بالعمل ، وقاوم الجهل بالعلم ، وقاوم المرض بالعلاج ، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهد ، وكان يستعيز بالله من الهم والحزن ، والعجز والكسل . وما غزواته المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره . هذا هو القَدْرُ الذي ينبئ أن نعرفه عن القَدَرِ ، وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحل لنا البحث فيه ولا التنازع في شأنه ، فإن هذا من أسرار الله التي لا تحيط العقول بها ، ولا تدركها الأفكار ^(١) .

قال الخطابي : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمون ، وإنما معناه الأخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد ، وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيراً وشرها .

والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر » ^(٢)

فالله سبحانه وتعالى قدر المقادير وهياً لها أسباباً ، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد ، وقد يسر كلاً من خلقه لما خلق له في الدنيا والآخرة ، فهو مهياً له وميسر له ، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها ، كان أشد اجتهاداً في فعلها والقيام بها أعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سبباً في وجود الزرع ، والنكاح سبباً في وجود النسل ، وكذلك العمل الصالح سبباً في دخول الجنة ، والعمل السيئ سبباً في دخول النار .

(١) العقائد الإسلامية ص ٨٥ ، ٨٦

(٢) العقائد الإسلامية ص ٨٤

وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر : ما كنت بأشدّ اجتهاداً مني الآن .

وقال النبي ﷺ : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل »^(١)

وفي الحديث « أن رجلاً أتى النبي ، فقال : أرأيت رقيّ نسترقبها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : هي من قدر الله »^(٢)
يعنى أن الله تبارك وتعالى قدر الخير والشر وأسباب كل منها .^(٣)

٥- مسألة : الاحتجاج بالقدر :

معلوم أنه يحتج بالقدر في المصائب ، لا في الذنوب والمعائب .
ولكن قومًا احتجوا بالقدر في المعاصي والذنوب ، واستدلوا على ذلك بحديث « احتجاج آدم وموسى » كما في الصحيحين ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال نبي ﷺ : احتج آدم وموسى . فقال موسى . يا آدم أنت أبو البشر الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد له ملائكته ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذى كلمك الله تكليمًا ، وكتب لك التوراة ، فبكم تمجد فيها مكتوباً ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ قبل أن أخلق ، قال : بأربعين سنة ، قال فحج آدم موسى »^(٤) وقد روى بطرق أخرى

(١) سبق تخريجه

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد

(٣) الثمرات الزكية في العقائد السلفية ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ بتصرف ، ومعارج القبول ص ٢٩٧ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي

وقد ظن كثير من الناس أن آدم احتج بالقدر السابق على نفي الملام على الذنب قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه : رد هذا الحديث من لم يفهمه مع أن الحديث متفق على صحته ، وأما من قال بصحته فقد اختلفوا في فهمه أو فهم حجة آدم التي حج بها موسى فمنهم من قال : حجه لأنه أبوه ، كما يحج الرجل ابنه ، وهذا الكلام لا محصل فيه البتة .

ومنهم من قال : إنما حجه لأن الذنب كان في شريعة ، واللوم في شريعة أخرى ، وهذا من جنس ما قبله ، ومنهم من قال : إنما حجه لأنه قد تاب من الذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولا يجوز لومه ، وهذا وإن كان أقرب مما قبله ، إلا أنه لا يصح ، لأن آدم لم يذكره ، ولأن موسى يعرف ذلك .

ومنهم من قال : إنما حجه لأنه لامة في غير دار التكليف ، وهو فاسد من وجهين : عدم اعتراض آدم بقوله : لمتني في غير دار التكليف ، ولأن الله يلوم العباد في غير دار التكليف .

ففي الحقيقة كل هذا باطل لم يصح ، وفاسد لوجوه كذلك ، وأسباب مختلفة ، وأدلة قوية . ولنرجع إلى حديث احتجاج آدم وموسى : فنقول : موسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله فاجتباؤه ربه وهذاه واصطفاه ، وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته ، بل إنما لام موسى آدم على المصيبة التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والمحنة بسبب خطيئة أبيهم ، فذكر الخطيئة تنبيهًا على سبب المصيبة والمحنة التي نالت الذرية ، ولهذا قال له : « أخرجتنا ونفسك من الجنة » وفي لفظ « خيبتنا » فاحتج آدم بالقدر على المصيبة ، وقال : إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئة كانت مكتوبة بقدره قبل خلقه والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب أي أتلو مني على مصيبة قدرت على وعليكم قبل خلقى

بكذا وكذا سنة ، وهذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ^(١)
فأدم عليه السلام ما خلق ليعيش فى الجنة ، وإنما ليكون فى الأرض خليفة
يحكم بحكم الله ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. الْآيَةُ ﴾ ^(٢)

وهذا الحديث لا يدل على شيء قط مما يفكر فيه المعتزرون بالقدر ، فالحديث
ورواياته الأخرى ، يشير إلى أن موسى كان يريد تحميل آدم متاعب الإنسانية كلها ،
ويرجع شقاء أبنائه جميعاً إلى أكلته المشتومة من الشجرة ، وقد دافع آدم عن نفسه
بصدق .

فإن وجود الحياة البشرية لم يكن نتيجة طبيعية ولا عقلية لذنوب آدم .
كان من الممكن جداً أن يعاقب آدم على خطئته بأي عقاب آخر ، كالتوبيخ أو
الحرمان المؤقت أو غير ذلك ، أما ترتيب وجود العالم الزاخر بآلامه وآماله على
هذه المعصية فهذا قدر إلهى محض ، لم يدر بخلد آدم ، ولا يجوز أن يعاتب
عليه ، ومن هنا حجج آدم موسى .

أما مسئولية آدم الخاصة عن ذنبه الذى استغفر الله منه ، فلا صلة له بهذا
الحديث .

إن خطيئة آدم ليست سبباً شرعياً ، ولا علة عقلية ، لوجود العالم وانتشار
الناس فى القارات الكبرى يشقون ويكدحون .

ولما توهم موسى ذلك عاتبه آدم وردده إلى أن ذلك القضاء المكتوب ، فلا يجوز
لأى امرئ أن يحمل الأب الأول هذه الأوزار كلها .

(١) نقلاً عن الثمرات الزكية ورسائل فى العقيدة لابن عثيمين

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

إن آدم يعلم - من غير مرأى - أنه أخطأ حين أكل من الشجرة . وقد اعترف بذلك عن صدق ، وطلب من الله المغفرة فغفر له .

أما أنه مصدر ما وقعت فيه البشرية كلها من عناء فهذا ما أنكره - وهو محق - وجعله من شئون القدر الأعلى ، واقتنع بذلك موسى كما رأيت .

ومن السخف أن نخطف نحن ثم نسوق كلمة آدم عذراً لنا على خطئنا .

إن الصورة التى يرسمها الجبريون للعالم لا ترمز إلا إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن .^(١)

إن آدم لم يظلم أولاده ، بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وإنما أهبط آدم وحواء ، ولم يكن معهما ولد . حتى يقال : إن ذنبهما تعدى إلى ولدهما ، ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد ، فلم يكن آدم قد ظلم أولاده ظلماً يستحقون به ملامه ، وكونهم صاروا فى الدنيا دون الجنة أمر كان مقدراً عليهم ، لا يستحقون به لوم آدم ، وذنب آدم كان قد تاب منه ، قال الله تعالى

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَالَ عَلَيْهِ وَهْدَىٰ ۖ ﴾^(٢)

كما قال ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ ﴾^(٣)

فلم يبق مستحقاً للذم ولا العقاب . ولو كان الاحتجاج بالقدر نافعا لمن أذنب ، لما كان آدم تاب واستغفر . وأيضاً فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعا له ، فلماذا أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض ؟!

فإن قيل : وهو قد تاب فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض ؟ قيل : التوبة قد

(١) عقيدة المسلم للقرآني ص ١١٤ ، ١١٥ بتصرف

(٢) سورة طه ، آية ١٢١ ، ١٢٢

(٣) سورة البقرة ، آية ٣٧

يكون من تمامها عمل صالح يعمله فيستلى بعد التوبة لينظر دوام طاعته ، وقال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)
 وإذا كان الله تعالى يستلى العبد من الحسنات والسيئات ، والسراء والضراء ، فالتائب أحق بالابتلاء فهبوط آدم ابتلاء له (٢)

٦- مسألة في الهداية والإضلال

قال تعالى

﴿ وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣)

كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)
 وقال جلا وعلا : ﴿ أَفَتَمَنُّ زَيْنٌ لَوْ سَوَّاهُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٥)

هذه الآيات الكريمة وما في معناها في القرآن الكريم من الآيات التي فهمها كثير من الناس فهما خاطئا ، واستغلق عليهم فهمها ، وفسرها على غير وجهها المراد ،

(١) سورة آل عمران ، آية ٨٩

(٢) الاحتجاج بالقدر ، لابن تيمية ص ١٩ - ٢٢ بتصرف

(٣) سورة النحل آية ٩٣

(٤) سورة إبراهيم ، آية ٤

(٥) سورة فاطر آية ٨

أومعناها الصحيح . ولو أدرك أن الله عز وجل موصوف بالعدل المطلق ، وأنه لا يظلم الناس شيئا ، ما كان يذهب بعيدا ، ولو فهم أن الهداية والإضلال مرتبطان بأسبابهما ما فهم الآيات فهما خاطئا ، ولو علم أن العبد إذا أكره على شيء ، فإنه لا تقع عليه عقوبة ، ما كان ينسب ما نسب إلى الله ظلما وزورا ، يزعم أن الله أضله ثم يعاقبه !!

ولو جمع هذه الآيات الكريمة ، المرتبطة بقضية الهداية والضلال ، وحمل فيها المطلق على المقيد ، لاتضح له معالم القضية ، ولما ضل السبيل .

إن الله عز وجل خلق الإنسان ، وجعل فيه صلاحية للهداية والضلال ، أو الإيمان والكفر ، فهو مخلوق صالح لأن يكون شاكرا ، ومخلوق صالح لأن يكون كفورا ، وليس مخلوقا على حالة تناقض الحالة الثانية

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (١)

والنفس صالحة لأن تكون فاجرة ، وصالحة لأن تكون تقية ، هذه مخلوقيتها

لله ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۚ

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۚ ﴾ (٢)

إذا فما دام الأمر للائتين ، وأنت صالح أن تتجه لواحدة منهما ، فكونك تميل إلى هذه الجهة أو لا تميل إلا هذه الجهة فهذا هو محل الحساب ومحل الموازنة .

ولذلك إذا رأيت آية مطلقة كقوله تعالى : ﴿ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ فلا بد أن تحمل المطلق في القرآن على مقيد ، فالهداية هنا التي هي بمعنى تذليل العقبات

(١) سورة الإنسان ، آية ٣

(٢) سورة الشمس ، آية ٧ - ١٠

والحمل على طريق الخير لمن استمع لله وآمن به ، وأقبل على منهجه ، فالمعونة تأتي من الله لصاحب ذلك ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَنْتَ

يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ۖ (١٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١)

فمن أناب إلى الله تعالى ورجع إليه وأقبل عليه ، فإنه يهديه ، ويزيده هدى .
وإذا قرأت قوله تعالى ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾

فإنما هو الذى لا يؤمن بالله ولا يستمع منه ولا يقبل على منهجه ، فكيف يهديه ، وكيف يعينه الله ، وقد اختار طريق الكفر والضلال ، ولذلك تحمل المطلق على المقيد ، فى هذه الآية ، فتجد أن قوله تعالى

﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يفسره مجموع آيات فى القرآن الكريم فى مثل قوله

تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢)

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣)

وقوله عز وجل :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا مِمَّنْ هَدَىٰ بِهِ كَثِيرًا وَمِمَّا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٤)

وكذلك فى مثل قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥)

وأيضاً فى قول الله عز وجل : ﴿ وَنَهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦)

(٢) سورة غافر آية ٧٤

(٤) سورة البقرة آية ٢٦

(٦) سورة البقرة آية ٢٥٨ والصف آية ٧ والجمعة ٥

(١) سورة الرعد آية ٢٧ ، ٢٨

(٣) سورة إبراهيم آية ٢٧

(٥) سورة البقرة ، آية ٢٦٤

وقوله جل وعلا : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١)

كذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢)

لكن أن يحملك الله تعالى على شيء ثم يحاسبك عليه ، فأين هذا من عدل الله!!؟ والدليل على المراد في توافر حرية الاختيار أن المكروه على شيء لا يعاقب عليه ، وما معنى الإكراه ، أن يحملك على ما لا تختار ، مادام يكرهك ، أى يحملك على ما لا تختار فلا يتعلق عقاب ، إذ الذى يفسد عليك الاختيار يرفع عنك العقوبة ، فمعنى ذلك أن المكلف هنا من له الاختيار ، بدليل أنه حين يأتى واحد ويكرهك على العمل فلا يكون عليك عقوبة .

فمعنى هذا أن الذى خلقك ، وخلقك مختاراً ، فلا بد أن تكون مؤمناً بكل ما يكون منه ، فإذا تدخلت قوة لتكرهك على شيء وأنت تختار غيره ، فيكون الحساب فى هذه قد ارتفع عنك . أما المسألة الأخرى وهى مسائل الدنيا وغيرها، فإن مسائل الدنيا عادة نجد أن النفس مقبلة عليها بطبيعتها ، لكن هناك المناهج التى تحدد حركة المؤمن فى الحياة ، لا يوجد أحد يبحث على أمر دنياه أبداً، كل الناس مقبلون على أمور دنياهم بالاسباب والوسائل ، فالذى يتقن الاسباب مؤمناً كان أم كافراً ، يأخذ خيرها ، يقول الله تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ

لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

نَصِيبٍ ﴾ (٣)

ويقول : ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ

(١) سورة المائدة آية ١٠٨ ، والنصف ، آية ٥

(٢) سورة الشورى ، آية ٢٠

(٣) سورة الزمر ، آية ٣

رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١١﴾

وعالم الأسباب فى مسائل الدنيا مطروح أمام الخلق ، فالذى يأخذ للشيء أسبابه ويتقن عمله يأخذ خيره مؤمناً كان أو كافراً ، لكن لا يأخذ منهج الله إلا من آمن بالله ، فمنهج الله هذا مخصوص بالمؤمنين ، إن الذى يريد أن يصل إلى شيء ما فإنه يأخذ بأسبابه ، فالذى يريد النجاح يجتهد فى المذاكرة ، والذى يريد المال يذهب إلى العمل ، والذى يحرص على منفعة لا يقول : أنتظر القدر !! فالطالب الحريص على الامتحان يستيقظ له مبكراً ، ومارأينا من بين آلاف الطلاب من تأخر عن امتحانه ، لأنه أخذ بالأسباب .

ولكن رأينا الآلاف من الناس يتأخرون عن صلا الفجر ، ثم يقولون : قضاء وقدر !!

فلماذا تدخل القدر هنا ولم يتدخل هناك ؟ !!

لماذا لم يتدخل القدر إلا فى الأمور المطلوبة تكليفاً ، وفى أمور الدنيا ترتب تلك الأمور ، هذا سؤال أثاره المسيرون على أنفسهم " مسير أم مخير " ولذا الدليل على ذلك ، أن المسألة ليس فيها تناقض عقلى ، لأنه لو كان هناك تناقض عقلى لكانوا سيقولون : إذا كان الله كتب على الإنسان المعصية ، فلماذا يعذبه ؟

ولنا هنا أن نقول : أنه يأتى الشق الثانى ، وإذا كان كتب عليه الطاعة فلماذا يثيبه ؟

لم نسمع السؤال الثانى أبداً ! كل سؤال يرد يقال فيه : إذا كان الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبني ؟ ولم نسأل أبداً ، وإذا كان كتب عليه الطاعة فلماذا

يشييه ؟ لماذا ؟! . لأن المسألة الأولى جاءت له بظلم - كما يرى - والثانية جاءت له يسر فهو يريد أن يوجد لنفسه منفذاً ليخلص منه . . من ذلك الغرم .

ولذلك نأتى ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى مادام قد خلق له عقلاً ، وجعل العقل هو مطية التكليف ، بحيث إذا لم يكن عاقلاً لا يكلف ، وإذا أكره يسقط عنه التكليف ، وإذا لم يكن عقله ناضجاً أيضاً فمعنى ذلك أن الاختيار الموجود فيه مشروط فى إقباله على العمل ، والاختيار لا يكون إلا مع قدرته على هذا العمل وقدرته على العمل الآخر . والعقوبة ليست على الفعل ، بل على توجيه الفعل إلى شيء أنت نهيت أن تفعله . ولا يقول العبد : مادام الله قد كتب عليّ ، فماذا يكون عملى أنا ؟

ويكون ردنا عليه : وما الذى أدراك ، أطلعت الغيب أم اتخذت عند الرحمن عهداً ؟ !!

ومن أعلمك أنك مكتوب من أهل الشقاء والضلال ؟ هل قال لك ذلك أحد ؟ لم يقلها لك أحد ، وقد يرد بأن يقول : حين أقبل على العمل السيء أفهم أننى من أهل الشقاء ، فنقول له : وهل أنت تقبل على كل عمل شرير ، فلا يوجد ناس مطبوعون على الخير المحض . وناس مطبوعون على الشر المحض ولكن الله كتب عليك ألا . . لماذا ؟ لأن الله الخلق والقدرة والعلم ، صفة العلم عند الله هى التى جعلت الحق سبحانه وتعالى كأنه يقول : أنا سأخلق عبدي فلان وسأخلقه مختاراً فى بعض الأعمال ، وغير مختار فى بعضها الآخر ، وغير المختار فيه لادخل فيه للحساب ، وسأدخل الحساب فيما له فيه اختيار ، لكن عبدي أنا أعلم أنه سيختار كذا وكذا ، لذلك كتب ألا لأنه علم ، والله أعلم^(١).

٧ - مسألة : هل هناك تعارض بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١)

وبين قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢)

فهو مرة نفى عنه به لا النافية «لا تهدي» ومرة أثبت له ذلك بلام التوكيد «إنك تهدي» ولا يمكن أن يكون النفي والإثبات متعلقين بمعنى واحد في الهداية ، بل الهداية هنا لها معنيان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة .

أما التي للرسول ﷺ فالهداية بمعنى الدلالة

﴿ وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣)

أي تدل الناس وترشدهم على طريق الخير . يسلكونه أو لا يسلكونه ، هذا موضوع آخر ، يؤمنون به ، أو لا يؤمنون به ، هذا موضوع آخر ، فالذي يؤمن به ، ويقبل على منهج الله فيه ويصدق الله فيه ، يكون عمل الله في أن يسر عليه الأمر ويعينه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ نَقْوَاهُمْ ﴾ (٤)

إذا فالهداية ترد بمعنيين ، بمعنى الدلالة ، وبمعنى الحمل على الخير ، فالتى بمعنى الدلالة فالكل مشترك فيها ، وأما الحمل على الخير ، فالذى يقبل على الله مؤمناً به ، ومصدقاً لهداه يقول له مادمت آمنت بى وصدقت بى وأقبلت بنفسك على منهجى ، أعينك أنا على ذلك المنهج وأمكنك منه وأريك حلالته ، فيزيدهم هدى وتقوى . وأما الذى لا يقبل هداية الدلالة ، فإن محمداً ﷺ لا يستطيع أن

(١) سورة القصص ، آية ٥٦

(٢) سورة الشورى آية ٥٢

(٣) سورة محمد ، آية ١٧

بمنحه هداية المعونة ، ولو كان أقرب الناس إليه ، وأحب الخلق إليه
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وذلك كالذى حدث مع عمه أبى طالب .
وما يدل على هذا المعنى من الآيات ، قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا

ثَمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ
الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١)

فهديناهم أى دللناهم ، « فاستحبوا العمى على الهدى » أى أنهم قالوا : لا
نحن غير مؤمنين بأن هناك رباً ، وليس هناك من توجيه ، فإذا كانوا غير مؤمنين بأن
هناك رباً ، وبأن منه التوجيه فكيف يمكنهم من الهداية ؟ لا يمكنهم ، وإنما يمكن
من أقبل مؤمناً به ، مصداقاً له ، إذا فهداية الرسل تأتى بمعنى الدلالة ، والدلالة
أنك تهدي إنساناً إلى شيء ، أى تدله على طريق الخير ، مثلاً هناك فرق بين هداية
تدل ، وهداية تعين وتحمل .

هداية تدل : هذا قدر مشترك حتى مع الكفار كما فى الآية « وأما ثمود
فهديناهم » على المعنى العام بعدها قال مباشرة « فاستحبوا العمى على الهدى »
فكلمة « هديناهم » هنا ليست بمعنى حملناهم على أن يكونوا مهدين ، ولكن
هديناهم هنا ، أى دللناهم على الطريق الموصل للخير ، فهل استمعوا أم لم
يستمعوا ؟ لم يستمعوا ، إذا فوردت الهداية فى القرآن بمعنى الدلالة على الطريق
الموصل للخير ﴿ وَهَدَيْنَاهُ الْجَدَيْنِ ﴾ (٢)

(١) سورة فصلت ، آية ١٧

(٢) سورة البلد ، آية ١٠

وكذا ﴿ إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾^(١)

ووردت أيضاً بمعنى آخر وهو التمكين من فعل الخير والمعونة عليه كيف هذا ؟
نقول مثلاً : - والله المثل الأعلى - أنا أمضى في الطريق وأريد أن أذهب إلى مكان
ما ، وأنا لا أعرف الطريق الموصل إليه ، فجاء جندي المرور ، وقال لي : هذا هو
الطريق المؤدى إلى المكان الذي تريد ، فدلني على الطريق بكلامه ، إذا أنا انصعت
له وشكرته ، وبعد ذلك انجھت لأسير فيه ، فأجده يقول لي : اسمع ، هذا
الطريق فيه عقبة في مكان كذا ، ويصح أن تعمل كذا ، حتى تنتهي منه ، أي
يرشدني إلى شيء في الطريق ، والثانية أنه قد يطلب مني أن يذهب معي حتى
يخلصني من هذه العقبة ، فإذا هناك هديتان ، هداية دلت على الطريق فقط ،
وهداية أمانت على أن تسلك الطريق . أعان جندي المرور من ؟ الذي انصاع له
وآمن بمشورته في أن الطريق هو هذا ، أما الذي لا ياتمر بأمره ويقول له : لا أنت
لا تعرف الطريق ، وماذا عرفت أنت عن الطريق ، فالطريق ليس هناك أيمن
لجندي المرور أن يعينه عملاً بأن يسير معه إلى أن يده ؟ بالطبع لا ، كذلك - والله
المثل الأعلى - الهداية بالنسبة لله ، الله يهدي الجميع مؤمناً وكافراً ، يهدي بمعنى
يدل الجميع على طريق الخير ، وبعد ذلك فالذي يؤمن به إلهاً ويستمع إليه بعد
ذلك ، يعينه ويسهل عليه المهمة ، والمعونة لاتأتى إلا من مقبل على عمل وبعد
ذلك تعينه ، أما غير المقبل على عمل فكيف تكون المعونة ؟ فالمعونة لا تأتي
لشخص لا يعمل ، ثم تجعله يعمل ، لا ، ولكن المعونة أن تجد واحداً مقبلاً على
عمل ، وبعد ذلك تعينه أنت على العمل^(٢) .

(١) سورة الإنسان آية ٣

(٢) راجع القضاء والقدر ، للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٤٩ - ٥٢

٨ - مسألة حول مشيئة الرب ومشية العبد :

قد يقال : إذا كان الله منح العبد الحرية والاختيار ، فما معنى قوله

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيعَ ۖ وَمَا شَاءَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾

فنقول : معناها أن الإنسان لا يشاء شيئاً إلا إذا كان في حدود مشيئة الله وإرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين : طريق الهداية ، أو طريق الضلالة .

فإذا اختار الطريق الأول ففي نطاق المشيئة الإلهية ، وإذا اختار الطريق الثاني ففي نطاقها أيضاً ، وكل الآيات التي جاءت على هذا النحو فمعناها لا يتعدى ما ذكرناه .

وقد أراد المشركون أن يحتجوا بمشيئة الله على شركهم ، وأنه لو لم يشأ أن يكونوا مشركين لما كانوا كذلك ، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله

﴿ سَيَقُولُ ﴾

الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنَ الْقِبْلَةِ حَتَّىٰ ذَاقُوا تَابًا سَنَّا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١١٣﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾

(١) سورة التكوين آية ٢٨ ، ٢٩

(٢) سورة الانعام آية ١٤٨

فالقرآن يرد على المشركين من وجهين :

الأول : أن الله أدق الكافرين الأول بأسه ، وأنزل بهم عقابه ، فلو لم يكونوا مختارين للجرائم والمآثم والكفر والشرك لما عذبهم الله ، لأن الله عدل لا يظلم مثقال ذرة .

الثاني : أنهم زعموا ذلك عن جهل بالله ، وجهل بدينه ، وأنهم ليس عندهم من علم يمكن أن يستند عليه ، ويرجع إليه ، وإنما كفرهم هذا تمرد على دينه وافتيات على الحق الذي أنزله على السنة الرسل .

وإذا كان الله قد عذب الأمم السابقة على كفرها ، وإذا كان المشركون ليس لهم من حجة يحتاجون بها ، فقد تقرر أن دعوى المشركين دعوى ظنية لا تقوم عليها حجة ولا ينهض بها دليل ، وبذلك قامت حجة الله البالغة على هؤلاء ، ولو شاء الله لأجبرهم على الهداية ، وإذا قلن يكونوا حيثن من البشر ، لأن البشر فطر على الحرية والاختيار .

وقد عاتب الله عز وجل رسوله ﷺ أن يكون في دعوته معنى الإرغام أو الإلزام ، فقال :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾

ومعناه ، لو أراد أن يجبرهم على الإيمان ، لأمن كل أهل الأرض بمجرد صدور كلمة التكوين منه سبحانه وتعالى ، وهي « كن » ولكنه لم يفعل لأنه خيرهم ، ولم يجبرهم ، ولذلك قال له :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ﴿٢﴾

ومثل المشيئة تكون الإرادة ، كما قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١)

وكذا قال ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٢)

فما أراد المخلوق شيئاً ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاء ذلك ، وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق ، مستقلاً بالامر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً .

وبهذا تتأكد الحقيقة أن الرب غير العبد ، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى ، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب ، وسابقة لها ، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى ، لم فعل كذا ؟ أو لم لم يفعل كذا ؟ قال تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٣)

(٩) مسألة : الأمر الإلهي أمران « أمر كوني ، وأمر شرعي » .

فهذا أمر يجب التنبيه عليه ، والتنبيه له ، وبمعرفة نزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علماً ، وهو أن الله سبحانه وتعالى له الخلق والامر ، وأمره سبحانه وتعالى نوعان :

١- أمر كوني قدرى .
٢- أمر ديني شرعى .

فمشيئته سبحانه وتعالى متعلقة بخلقه ، وأمره الكوني ، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكره ، كله داخل تحت مشيئته ، كما خلق إبليس وهو يفضه ، وخلق الشياطين ، والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يفضها ، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله .

(٢) سورة النحل آية ٤٠

(١) سورة البقرة آية ١٨٥

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٣

وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الدينى وشرعه الذى شرعه على السنة رسله ،
فما وجد منه تعلقت به محبته وأمره الدينى ولم تتعلق به مشيئته .

وما وجد من الكفر والفسوق والعصيان تعلقت به مشيئته ولم يتعلق به محبته ،
ولا رضاه ولا أمره الدينى ، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته ،
فلفظ المشيئة كونى ، ولفظ المحبة دينى شرعى . كما أن لفظ الإرادة ينقسم إلى
إرادة كونية فتكون هى المشيئة ، وإرادة دينية فتكون هى المحبة ، إذا عرفت هذا ،

فقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ (١)

وقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ (٢)

وقوله ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٣)

لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه
وقدره ، فإن المحبة غير المشيئة ، والأمر غير الخلق ونظير هذا اللفظ الأمر فإنه
نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع ، والثانى قد يعصى ويخالف ، بخلاف الاول .

فقوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤)

أمر كونى لا يناقض قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ (٥)

فالاول تكوين ، والثانى تشريع .

هذا ، وقد ذكر بعض العلماء أن فى قوله عز وجل

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا

فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَاهَا نَدَمَ مَرٍ ﴾ (٦)

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٥

(٤) سورة يس آية ٨٢

(٦) سورة الإسراء آية ١٦

(١) سورة الزمر آية ٧

(٣) سورة البقرة آية ١٨٥

(٥) سورة الاعراف آية ٢٨

أنه أمر تكوين .

وأوضح الشنقيطي - رحمه الله - فى أضواء البيان : فساد هذا الرأى ، لأن الله عز وجل لا يأمر بالفحشاء وإنما هو أمر تشريع ، أى يأمرهم بطاعته وترك معاصيه فيخالفون أمره ويخرجون عن طاعته ، ويرتكبون ما نهى الله عنه ، فيستحقون بذلك العذاب^(١)

١٠- مسألة : الحسنة والسيئة :

الحسنة حسستان : « حسنة كونية وحسنة شرعية » .

والسيئة سيئتان : « سيئة كونية وسيئة شرعية » .

فالحسنة الكونية بمعنى النعمة والعطاء . والخير والصحة والعافية والنصر والعز والجاه ، فهذه الحسنة من الله تعالى .

والسيئة الكونية بمعنى النقمة والابتلاء والشر ، والنقص والمرض ، والهزائم وما إلى ذلك فهذه من عند الله تعالى أيضاً . لأنه عز وجل هو الذى يبلو العباد ، امتحاناً وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته فى تربية عباده . وتدبير شأنهم

وكما قال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَسُوا أَلْوِينَ فَأَبْتَلْنَاهُمْ فَمَنْ تَبَوَّءَ الْغَايَةَ ﴾^(٢)

وقال عز من قائل :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ

فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ^(٣) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ

فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ^(٤) كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ^(٥) ﴾

(١) الثمرات الزكية فى العقائد السلفية . الشيخ أحمد فريد ص ٢٤٩ - ٢٥٠ بتصرف

(٢) سورة الانبياء آية ٣٥

(٣) سورة الفجر الآية ١٥ - ١٧

وأما الحسنة الشرعية بمعنى الطاعة وفعل الخيرات ، فإنها تنسب إلى الله عز وجل لانه هو الذى بها أمر ، وهو الذى شرعها للعبد ، وعلمه إياها ، وأمره بفعلها ، وأعانه عليها ، ووعده بحسب المثوبة عليها ، ترغيباً له فى فعلها .

وأما السيئة الشرعية التى هى بمعنى المعصية والمخالفة ، فهذه السيئة لا تنسب إلا إلى العبد فاعلمها ، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً ، لان الله تعالى لم يشرعها ولم يأمر بها ولم يرغب فيها ، بل حرمها وتوعد عليها متفراً منها ، فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم ، لا .

ونحن نستطيع بذلك أن نفهم قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تُصِيبُكُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُكُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٩ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٨٠﴾ (١)

إذا الحسنة الشرعية والسيئة الشرعية كما قال

﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾

والحسنة الكونية والسيئة الكونية كما قال

﴿ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾

رداً على المنافقين الذين كانوا ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى ، وينسبون السيئة بمعنى النقمة والبلاء والشر إلى رسول الله ﷺ ، فرد الله تعالى

عليهم قولهم هذا وعابه عليهم ونسبهم إلى سوء الفهم وقلة الإدراك ، وأخبر مقررًا أن كلاً من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى ، وبهذا رال - والحمد لله - الإشكال الذي كان يقف عنده كثير من المؤمنين حياري يكادون أن يقولوا : إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً في حين أنه لا تناقض بينهما ولا تعارض - كما رأيت - وحاشا لكتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضاً ، تناقضاً أو تعارضاً ، وكيف يكون ذلك ، والله منزله وهو العزيز الحكيم ؟ يقول :

﴿وَأَنَّهُ لَکِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِ نَزِيلٌ مِّنْ حَّكِيمٍ حَمِيدٍ ۝﴾ (١)

وأخيراً : حكمة الإيمان بالقدر :

وحكمة ذلك : أن تنطلق قسرى الإنسان وطاقاته لتعرف هذه السنن ، وتندرك هذه القوانين وتعمل بمقتضاها فى البناء والتعمير ، وفى استخراج كنوز الأرض والانتفاع بما أودع فى الكون من خيرات .

وبذلك يكون الإيمان بالقدر قوة باعثة على النشاط والعمل والإيجابية فى الحياة كما أن الإيمان بالقدر يربط الإنسان برب هذا الوجود ، فيرفع من نفسه إلى معالى الأمور من الإباء والشجاعة والقوة من أجل إحقاق الحق ، والقيام بالواجب .

والإيمان بالقدر يرى الإنسان أن كل شيء فى الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولا يبطر وإذا برى الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح كان إنساناً سوياً مترئناً ، بالغاً متهى السمو والرفعة ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ

مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ (١)

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة وثمرات طيبة ، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، إذ من اطمأننت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، خلت

جميع أعماله من الحيرة والتردد وانتفى من حياته القلق والاضطراب ، لأنه بمجرد ما يترجع لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه في غير ما خوف ولا هية ولا تردد ، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض ، ولا يغتم لحاضر ، ولا يؤله هم المستقبل ، وبذلك يكون أسعد الناس حالاً ، وأطيبهم نفساً ، وأصلحهم بالاً ، وأهداهم خاطراً ، ومنها أيضاً : أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً ، وأكرمهم قولاً ونفساً ، إذ من عرف أن أجله محدود ، ورزقه معدود ، فلا الجبن يزيد في عمره ، ولا الشح يزيد في رزقه ، نafs في البطولات ، وسابق في المكرمات .

وما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة في هذه الأمة - أمة الإسلام - أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة في نفوسهم ، قوة في قلوبهم ، فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً وصبراً وحلماً ، ومعرفة وعلماً ، الأمر الذي تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة .

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر :

الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ، بل يعتمد بقلبه على الله عز وجل ويعلم أن كل شيء ، بقدر الله عز وجل . وكذلك أن لا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ، لأن حصوله نعمة من الله تعالى بما قدره من أسباب الخير والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة . ومنها : الطمأنينة والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى ، وتهون على العبد المصائب لعلمه بأن ذلك من عند الله سبحانه ، وما كان من عند الله سبحانه فالرضى به والتسليم له ، شأن كل عاقل ، لأنه خالقه وموجده من العدم ، فهو حقه وملكه يتصرف به كيف يشاء ، كما يتصرف العباد في أملاكهم من غير حرج عليهم .

ولذلك قال ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١)

ومنها : أن يعتقد العبد أن ما وصل إليه من الخير على أى صفة كان ، ويبد من أجرى فهو من الله عز وجل ، فيحصل له بذلك من الجبور والسرور ما لا يقادر قدره ، لما له من العظمة التى تضيق أذهان العباد عن تصورها ، وتقصر عقولهم عن إدراك أدنى منازلها .

وما أحسن ما قاله الحربي - رحمه الله - « من لم يؤمن بالقدر لم يتهنّ بعيش » وهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب وضافت بها الأنفس وحرجت بها

الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر^(١).

فاللهم ارحمنا برحمتك فإن بنا من الضعف ما أنت أعلم به منا
ومن عدم الصبر على حوادث الزمان ما لا يخفى عليك
ومن عدم الثبات على المحن ما لديك حقيقته
ولكننا نسألك العافية التي أرشدتنا إلى سؤالها منك
كما نسألك الثبات والتثبيت على الحق
وعلى صراطك المستقيم
وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين .

*

(١) الثمرات الزكية في العقائد السلفية ص ٢٥١ ، ٢٥٢ بنصرف

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخرًا ، والحمد لله الذي بنعمته تتم
الصالحات ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ، ونصلي ونسلم
على خير خلق الله أجمعين ، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين .

وبعد ..

فإنه من تيسير الله عز وجل ورحمته أننا قد وقفنا على « ركائز الإيمان » التي
يجب على كل مسلم معرفتها والاعتقاد بها ، والإلمام بمسائلها ، والتعرف على
جوانبها ، وقد حاولت جاهداً الإلمام بمحتوياتها مع التركيز على أهمها ، بتبسيط
أسلوبها وهذه الأركان - كما ترى - قد تناولت الركن الأول منها « الإيمان بالله »
في الجزء الأول من « حقيقة الإيمان » ، ثم تناولت بقية الأركان في هذا الجزء
الثاني من كتابنا « حقيقة الإيمان » بفضل الله عز وجل .

وصدق رسول الله ﷺ - وقد سئل عن الإيمان - فقال : الإيمان : « أن تؤمن
بالله وملأئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » (١)
وهذا الإيمان كالشجرة التي لا بد لها من ثمرة .

• ثمرة الإيمان بالله تعالى هي حبه سبحانه وتعالى وتعظيمه وخشيته ،
وطاعته بفعل محابه وترك مكارهه ، والاستقامة على شريعته ، والتصديق بوعد
ووعيده ، وكذا بحب رسول الله ﷺ وتعظيمه وطاعته والتأسي به ، ومتابعته ﷺ
قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

• ثمرة الإيمان بالملائكة هو الاعتبار بطاعتهم . لأنهم لا يعصون الله ما

(١) رواه مسلم

(٢) سورة الأنفال آية ١

أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، والاستحياء منهم ، وإكرامهم ، لعلم المرء بأن الكرام الكاتين لا يفارقونه ، وكذا هو وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم ، وقدرته عليهم ، إذ يقول سبحانه

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ^(١) ﴾

* وثمرة الإيمان بالكتب أنها الوسيلة إلى الإيمان بالله تعالى ومعرفة علمه وأسمائه ، ووعد ووعيده ، كما هي وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها ، وأنزلت عليهم ، وكذا وسيلة إلى معرفة شرائع الله تعالى ، وجميع ما يحبه الله ويرضاه ، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات والأقوال والأفعال ، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة .

* وثمرة الإيمان بالرسول وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى ، وبيان كيفية أداء عباداته ، ووسيلة إلى محبة رسل الله الباعثة على طاعتهم والتأسي بهم ، واتباعهم والتزام شرائعهم والاهتداء بهديهم ، واتباع ما جاء به أفضلهم وخاتمهم محمد ﷺ .

* وثمرة الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيري الدنيا والآخرة ، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله ، والرغبة من عقابه ، وبما أعده الله للمؤمنين من النعيم ، وللكافرين من الجحيم .

* والإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات ، وعدم الخوف على ما هو آت ، والرضى بما ينزل بالعبد من ابتلاءات ، وترك الفرح والبطر والأشر بما يؤتى الإنسان من ملذات ، كما هو وسيلة إلى الصبر والتجمل ، والطمأنينة والسكون بكل ما قضى رب الأرض والسموات .

وبناء على ما سبق ، فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة ،

المكونة لعقيدة المؤمن ، يثمر للمؤمن ثمرة خاصة . وأن هذه الثمرات هي وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهي كمال الإنسان الذاتي والروحي ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، إذ كل كمال للإنسان وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله ﷺ ، تلك الطاعة المزكية للنفس والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام .

قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝ ﴾ (١)

وقال سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝ ﴾ (٢)

والحمد لله أولاً وآخراً ، إن كنت قد أصبت فذلك الفضل من الله ، وإن كانت الأخرى فذلك مني ، وأستغفر الله .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ (٣)

وصلى الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً .

تم تحرير هذا الكتاب في شوال سنة ١٤١٤ هـ مارس سنة ١٩٩٤ م

(٢) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ .

(١) سورة الشمس : آية ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

مراجع الكتاب

- ١- القرآن الكريم
- * كتب السنة
- ٢- الكتاب المقدس «الاناجيل الأربعة»
- ٣- صحيح البخاري
- ٤- صحيح مسلم
- ٥- سنن أبي داود
- ٦- سنن الترمذي
- ٧- سنن النسائي
- ٨- سنن ابن ماجه
- ٩- سنن الإمام أحمد بن حنبل
- ١٠- سنن الدارمي
- ١١- مستدرک الحاكم
- ١٢- معجم الطبراني
- ١٣- فتح الباري لشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني - الكليات الأثرية
- ١٤- شرح السنة للإمام البغوي - دار الكتب
- ١٥- صحيح الجامع للألباني
- ١٦- السلسلة الضعيفة للألباني
- ١٧- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - محمد فؤاد عبد الباقي - الريان للتراث
- ١٨- الترغيب والترهيب للمنزدي - شباب الأزهر
- * كتب في التفسير
- ١٩- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - مكتبة التراث الإسلامي
- ٢٠- تفسير ابن جرير الطبري
- ٢١- تفسير الفخر الرازي
- ٢٢- صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم
- * كتب في السيرة
- ٢٣- السيرة النبوية لابن هشام - دار التراث العربي
- ٢٤- الشمائل النبوية للترمذي
- ٢٥- دلائل النبوة للبيهقي
- ٢٦- دلائل النبوة للأصبهاني

- ٢٧- الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي
- ٢٨- قصص الأنبياء لابن كثير - دار الحديث
- ٢٩- قصص الأنبياء د/ عبد الوهاب النجار - دار التراث
- ٣٠- مع الأنبياء في القرآن الكريم ، عفيفي عبد الفتاح طيارة - دار العلم للملايين
- * كتب في العقيدة**
- ٣١- للإيمان أركان- حقيقة - د/ محمد نعيم ياسين
- ٣٢- إظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي - دارالتراث العربي
- ٣٣- أهوال القيامة كما يصورها القرآن والسنة - للشيخ عبد الله الكبيسي - دار الكتب السلفية
- ٣٤- الاحتجاج بالقدر لابن تيمية - المكتبة السلفية
- ٣٥- التذكرة في أهوال الموتى والدار الآخرة للقرطبي - المكتبة السلفية
- ٣٦- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب الحنبلي - مكتبة الإيمان
- ٣٧- تعصب اليهود د/ عمر عبد العزيز - تحت الطبع
- ٣٨- تعصب النصارى د/ عمر عبد العزيز - تحت الطبع
- ٣٩- تصحيح المفاهيم الخاطئة د/ عمر عبد العزيز - تحت الطبع
- ٤٠- الثمرات الزكية في العقائد السلفية ، الشيخ أحمد فريد - مكتبة التوعية الإسلامية
- ٤١- الجزء « الجنة ، النار » نعمت صدقي - دار الاعتصام
- ٤٢- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم
- ٤٣- حقيقة الإيمان « الجزء الأول » د/ عمر عبد العزيز - دارالهدى
- ٤٤- رحلة في رحاب اليوم الآخر ، الشيخ عبد العظيم بن بدوي - التوعية الإسلامية .
- ٤٥- رسائل في العقيدة / لابن عثيمين
- ٤٦- شرح العقيدة الطحاوية مجموعة من العلماء - شباب الأزهر
- ٤٧- عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري - مكتبة الكليات الأزهرية
- ٤٨- عقيدة المسلم للشيخ العزالي - دار الكتب الحديثة
- ٤٩- عالم الملائكة ، للشيخ عبد الحميد كشك - المختار الإسلامي
- ٥- عالم الملائكة الأبرار . للشيخ عمر سليمان الأشقر

- ٥١- العقائد الإسلامية للشيخ سيد سابق - الفتح للإعلام العربي
- ٥٢- القضاء والقدر للشيخ الشعراوي - دار الشروق
- ٥٣- القضاء والقدر لابن عثيمين
- ٥٤- التيامة رأي العين . الشيخ محمد محمود الصواف - دار الإعتصام
- ٥٥- مشاهد القيامة في القرآن ، للشيخ سيد قطب - دار المعارف
- ٥٦- المهدي المنتظر ، أبي الفضيل عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري
- ٥٧- معارج القبول ، بشرح مسلم الوصول إلى علم الأصول للشيخ الحافظ أحمد الحكيمي - مكتبة زهران
- ٥٨- النهاية في الفتن والملاحم لأبي الفداء الحافظ ابن كثير - دار التراث الإسلامي
- * كتب متنوعة**
- ٥٩- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف
- ٦٠- القنديل في فقه الدليل لأبي المنذر عبد الحق بن عبد اللطيف - مكتبة مكة
- ٦١- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير - د/ محمد أبو شهبة
- ٦٢- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، د/ أحمد سيد الكومي ، د/ محمد أحمد القاسم .

الفهرس العام

الصفحة	الموضوع	
٣	مقدمة الكتاب	١
٥	الركن الثاني : الإيمان بالملائكة	٢
٧	كيف نؤمن بالملائكة وهم من الغيب	٣
١٠	أولا : الإخبار	٤
١٣	ثانيا : الآثار	٥
١٥	وجوب الإيمان بالملائكة	٦
١٧	من هم الملائكة ؟	٧
١٨	خلق الملائكة	٨
١٩	تفاضل الملائكة	٩
٢٠	أعمال الملائكة	١٠
٣٦	بعض صفات الملائكة	١١
٥١	عصمة الملائكة	١٢
٥٢	قصة الملائكة مع آدم	١٣
٥٤	هل كان إبليس من الملائكة ؟	١٤
٥٦	قصة هاروت وماروت	١٥
٥٩	الخلاصة	١٦
٦٣	الركن الثالث : الإيمان بالكتب	١٧
٦٣	أولا : تعريف الكتب	١٨
٦٣	حقيقة الإيمان بالكتب	١٩
٦٤	على أي دليل آمن المؤمن بالكتب	٢٠
٦٤	دليل الأثر	٢١
٦٦	دليل الخبر	٢٢
٦٨	أدلة وجوب الإيمان بالكتب الإلهية وكونه ركن من أركان الإيمان	٢٣
٧٠	ما عرف من الكتب الإلهية وما لم يعرف	٢٤

٢٥	كيف نؤمن بهذه الكتب ؟	٧٨
٢٦	ما معنى تصديق القرآن للكتب السابقة ؟	٨١
٢٧	ما هي منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى ؟	٨٢
٢٨	من الذي يتنفع بالقرآن ؟	٨٦
٢٩	مبحث : هل القرآن مخلوق ؟	٨٩
٣٠	الركن الرابع : الإيمان بالأنبياء والرسل	٩١
٣١	ما معنى النبوة لغة وشرعا	٩٣
٣٢	الرسول في التاريخ	٩٤
٣٣	مؤهلات النبوة	٩٥
٣٤	صفات الأنبياء	٩٦
٣٥	ما معنى الإيمان بالرسول ؟	٩٨
٣٦	الإيمان بالرسول أجمالا وتفصيلا	١٠٠
٣٧	ماهية الإيمان بالرسول	١٠٢
٣٨	مبحث في عصمة الأنبياء	١٠٩
٣٩	شبهات أثرت حول عصمة الأنبياء	١١٢
٤٠	١- آدم عليه السلام	١١٢
٤١	٢- نوح عليه السلام	١١٣
٤٢	٣- إبراهيم عليه السلام	١١٤
٤٣	٤- يوسف عليه السلام	١٢١
٤٤	٥- موسى عليه السلام	١٢٥
٤٥	٦- داود عليه السلام	١٢٦
٤٦	٧- سليمان عليه السلام	١٢٧
٤٧	٨- محمد ﷺ	١٢٩
٤٨	والخلاصة : وجوب الإيمان بالأنبياء والرسول عليهم السلام	١٣٦
٤٩	النبي محمد ﷺ خاتم النبيين	١٣٨
٥٠	من ثمرات الإيمان بالرسول	١٤٧

١٥١	الركن الخامس : الإيمان باليوم الآخر	٥١
١٥١	ما المراد باليوم الآخر ؟	٥٢
١٥١	أسماء اليوم الآخر في القرآن الكريم	٥٣
١٦٠	إمكان الفناء : هل الفناء ممكن ؟	٥٤
١٦١	إمكان المعاد : هل المعاد ممكن ؟	٥٥
١٦٢	الأدلة على إمكان البعث ووقوعه	٥٦
١٦٢	أولا : وقوع بعث في الدنيا في سبعة مواضع	٥٧
١٦٥	ثانيا : إمكانية وقوع البعث بالعقل مع النقل	٥٨
١٧٢	تفنيد القرآن الكريم لمكري البعث والرد عليهم	٥٩
١٧٦	الخلاصة	٦٠
١٨٠	الحكمة في المعاد	٦١
١٨١	وجوب الإيمان باليوم الآخر	٦٢
١٨٤	أشراط الساعة « العلامات »	٦٣
١٨٥	أولا : العلامات الصغرى	٦٤
١٨٥	١٠- ما ظهر منها	٦٥
١٩٥	ب- ما لم يظهر منها	٦٦
٢٠٢	فصل في ظهور المهدي	٦٧
٢٠٩	موجز علامات الساعة الصغرى	٦٨
٢١٣	ثانيا : علامات الساعة الكبرى	٦٩
٢١٤	أولا : خروج المسيح الدجال	٧٠
٢٢٦	ثانيا : نزول عيسى بن مريم	٧١
٢٣٤	ثالثا : خروج ياجوج وماجوج	٧٢
٢٣٨	رابعا : نزول الدخان من السماء	٧٣
٢٤٠	خامسا : طلوع الشمس من المغرب	٧٤
٢٤٤	سادسا : خروج الدابة من الأرض تكلم الناس	٧٥
٢٤٦	سابعا : محو القرآن من الأرض	٧٦

٢٤٧	ثامنا : مجيء ريح طيبة تقبض أرواح المؤمنين	٧٧
٢٤٨	٩-١١ - ثلاثة خسوف	٧٨
٢٤٩	آخر العلامات الكبرى ، وأول أشراط الساعة	٧٩
٢٥٠	بداية الانقلاب الحقيقي . يزوال الدنيا وأقبال الآخرة	٨٠
٢٥٩	يوم البيع والوقوف علي أرض المحشر	٨١
٢٦٤	فصل القضاء بين الخلائق	٨٢
٢٧٠	عرض الناس علي ربهم	٨٣
٢٧٨	أخذ الصحف أو الكتب	٨٤
٢٨١	ميزان الأعمال	٨٥
٢٨٥	مبحث حول « الحوض »	٨٦
٢٨٩	الصراط	٨٧
٢٩٢	القنطرة	٨٨
٢٩٣	مشاهد نراها يوم القيامة	٨٩
٢٩٨	أعمال تنجي صاحبها من أهوال يوم القيامة	٩٠
٣٠٠	نظرة علي أرض المحشر	٩١
٣٠٣	حال آخر رجل يخرج من النار ويدخل الجنة	٩٢
٣٠٥	أهل الجنة يتادون على أهل النار ، وأهل النار يتادون علي أهل الجنة	٩٣
٣٠٨	نهاية المطاف ، والمستقر الأخير « دار السلام أو دار ابوار »	٩٤
٣١٠	أسماء الجنة والنار	٩٥
٣١٠	أولاً : أسماء الجنة	٩٦
٣١٢	ثانياً : أسماء النار	٩٧
٣١٤	أبواب الجنة ودرجاتها ، وأبواب النار ودركاتها	٩٨
٣١٧	دخول المؤمنين الجنة - والكافرين النار	٩٩
٣٢٠	* ذكر جهنم . شدة حرها ، وشدة سوادها ، وبعد عمقها ، وسعتها	١٠٠
٣٢٢	شدة عذابها ، وحرها ، وبردها ، وعظيم خلق أهلها	١٠١
٣٢٤	مقامها وأغلالها ، وحياتها وعقاربها	١٠٢

- ١٠٣ * ذكر الجنة ، وسعتها ، وطيب ريحها ، وقصورها ٣٢٧
- ١٠٤ وأرضها ، وخيامها ، وأسواقها ، وأنهارها ، وأشجارها ٣٢٨
- ١٠٥ وخيلها ، وتفاوت درجات أهلها ، وتفاضلهم في ذلك ٣٣٠
- ١٠٦ * طعام أهل النار وشرابهم ٣٣٤
- ١٠٧ * طعام أهل الجنة وشرابهم ٣٤٠
- ١٠٨ لباس أهل النارس وفراشهم ٣٤٦
- ١٠٩ لباس أهل الجنة وفراشهم ٣٤٨
- ١١٠ الأسرة والخور العين ٣٤٩
- ١١١ غناء الخور العين في الجنة ٣٥٢
- ١١٢ صور من عذاب أهل النار ٣٥٤
- ١١٣ صور من نعيم أهل الجنة ٣٦٠
- ١١٤ الركن السادس : الإيمان بالقضاء والقدر ٣٧١
- ١١٥ تمهيد حول القضاء والقدر ٣٧١
- ١١٦ أولاً : معنى القضاء والقدر ٣٧٣
- ١١٧ ثانياً : أنواع القضاء والقدر ٣٧٥
- ١١٨ نزاع الناس حول القضاء والقدر ٣٧٨
- ١١٩ ١- القدرية ٣٧٨
- ١٢٠ ٢- الجبرية ٣٧٩
- ١٢١ ٣- الابليلية ٣٨١
- ١٢٢ ٤- أهل السنة والجماعة ٣٨٢
- ١٢٣ ثالثاً : مراتب القضاء والقدر عند أهل السنة والجماعة ٣٨٦
- ١٢٤ ١- العلم ٣٨٦
- ١٢٥ ٢- الكتابة ٣٦٨
- ١٢٦ ٣- المشيئة ٣٨٧
- ١٢٧ ٤- الخلق ٣٨٨
- ١٢٨ رابعاً : وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ٣٩٠

٣٩٥	خامسا : مسائل في القضاء والقدر	١٢٩
٣٩٥	١٠ - هل الإنسان مسير أم مخير ؟	١٣٠
٣٩٨	٢ - هل علم الله تعالى السابق يجبر العبد علي الفعل ؟	١٣١
٤٠١	٣ - هل القضاء والقدر يتنافى مع عدل الله ؟	١٣٢
٤٠٢	٤ - هل القضاء والقدر يتنافى مع الأخذ الأسباب ؟	٣٣
٤٠٥	٥ - الاحتجاج بالقدر	١٣٤
٤٠٩	٦ - مسألة في الهداية والاضلال	١٣٥
٤١٥	٧ - هل هناك تعارض بين « إنك لا تهدي » و « إنك لتهدي »	١٣٦
٤١٨	٨ - مسألة حول مشيئة الرب ومشيئة العبد	١٣٧
٤٢٠	٩ - الأمر الكوني والأمر الشرعي	١٣٨
٤٢٢	١٠ - الحسنة والسيئة	١٣٩
٤٢٥	وأخيرا : حكمة الإيمان بالقدر وثمرته	١٤٠
٤٢٩	الخاتمة	١٤١
٤٣٢	المراجع	١٤٢
٤٣٥	الفهرست	١٤٣